تفسير العهد الجديد

وليم باركلى

الرسائل الى

فيليبى وكولوسى وتسالونيكى

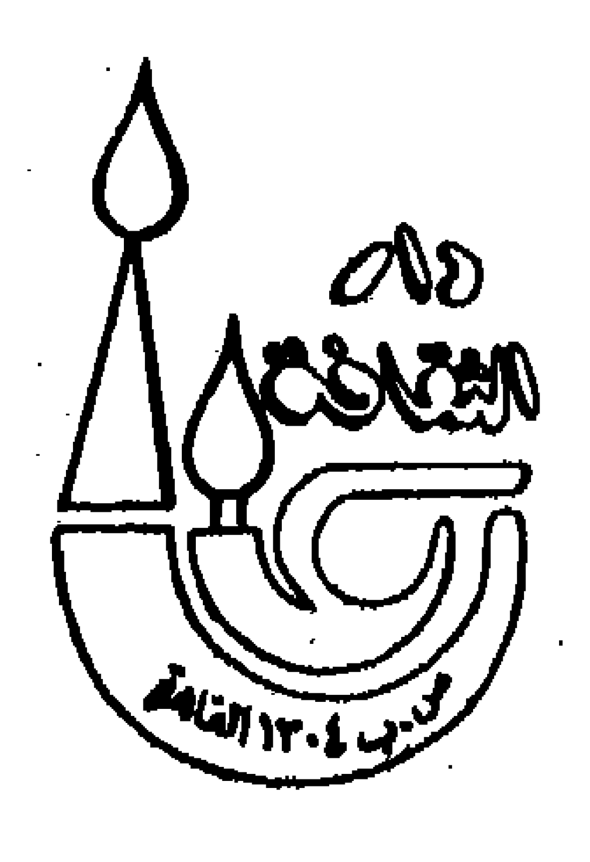


رسائل

فيلبي وكولوسي وتسالونيكي

نقله إلى العربية

القس جرجس هابيل



« طبعة ثانية »
صدر عن دار الثقافة المسيحية ص . ب ١٣٠٤ ــ القاهرة

١٠/١١١١ ط ٢/٧٩ (أ) ٥ ــ ٧
رقم الايداع بدار الكتب [illegible]
طبع بمطبعة دار العالم العربى ٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة

تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلى

أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو

مجلس التحرير

- يشترك عدد كبير من المترجمين في اصدار هذه السلسلة .

- ويقوم بنشرها :

— دار الثقافة المسيحية .

— ودار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية .

محتويات الكتاب

مقدمة رسالة فيلبى

يسعدنا ونحن ندرس رسالة فيلبى أنها خالية من المشاكل النقدية . فليس هناك ناقد من ذوى المكانة داخله الشك فى صحة هذه الرسالة . ولسنا فى حاجة إلى الحجج والبراهين للإقتناع بصحة وقانونية رسالة فيلبى كرسالة من رسائل بولس الرسول . فهى رسالته نصاً وروحاً ، لفظاً ومعنى.

١ — مدينة فيلبى :

كان بولس إذا أراد مكاناً للكرازة بالإنجيل ، يختاره دائماً بعين القائد الحربى الذى يختار الموقع الإستراتيجى المناسب لخططه الحربية . لم يكن بولس يختار المكان المهم فى حد ذاته فقط ، بل يختار ما يكون بمثابة مفتاح لكل المنطقة . وقد لوحظ أن معظم الأماكن التى اختارها بولس لتكون مراكز تبشيرية لاتزال إلى يومنا المراكز التى تتفرع منها الطرق الرئيسية وتلتقى عندها خطوط السكة الحديدية . وهكذا كانت فيلبى . كان لها على الأقل ثلاثة امتيازات عظيمة :

١ — كانت بجوارها مناجم الذهب والفضة التى يرجع تاريخ استغلالها إلى زمن الفينيقيين . والواقع أن هذه المناجم كانت قد استنفدت عند بدء التاريخ المسيحى لكنها جعلت فيلبى مركزاً تجارياً هاماً فى العالم القديم .

٢ — كان المؤسس لمدينة فيلبى هو « فيليب المقدونى » ، أبو « اسكندر الأكبر » ولذلك تحمل إسمه . وقد بنيت فى مكان يدعى « كرينيدس » ومعناها الآبار أو الينابيع وكرينيدس نفسها كانت مدينة قديمة جداً . وكان أمام فيليب هدف معين وهو يؤسس مدينة فيلبى ويوسع تخومها . كانت أوروبا كلها تفتقر إلى مركز استراتيجى هام . وكانت هناك سلسلة من التلال التى تفصل أوروبا عن آسيا — ؛

الشرق عن الغرب . وعند مدينة فيلبى كانت هذه التلال تنخفض حتى تصلح ممراً يربط القارتين معاً . و بواسطة هذا الممر امتد الطريق من الغرب إلى الشرق .

ولهذا السبب أنشأ فيليب مدينة فيلبى عام ٣٦٨ ق . م لتكون الطريق الرئيسى الذى يربط الشرق بالغرب . وكان لهـــذا السبب أن قامت معركة هناك من معارك التاريخ الكبرى بعد ذلك بزمن طويل عندما هزم أنطونيو بروتوس وكاسيوس وبذلك تقرر مصير المستقبل كله للإمبراطورية الرومانية .

٣ ــ لم يمض وقت طويل على تأسيس مدينة فيلبى حتى وصلت إلى مركز ممتاز يؤهلها لأن تصبح مستعمرة رومانية . وكانت هذه المستعمرات الرومانية ــ على غير المفهوم فى عصرنا من كلمة مستعمرة ــ مدناً عظيمة . بدأت هذه المستعمرات بداية عسكرية إذ كان من عادة رومية أن تمنح فريقاً من محاربيها القدماء الذين قضوا مدة خدمتهم وحصلوا على الجنسية الرومانية ــ حق الإقامة والاستقرار فى مراكز الطرق الحربية . وكان عدد هذا الفريق يبلغ ثلاثمائة محارب مع زوجاتهم وأولادهم. وكانت هذه المستعمرات مراكز تجمع هؤلاء الجنود عند ملتقى الطرق الرئيسية للإمبراطورية . وقد أنشئت هذه الطرق بنظام هندسى محكم بحيث يتيح للحملات العسكرية أن تنتقل من مستعمرة إلى أخرى بغاية السرعة . وكان الغرض من تأسيس هذه الطرق حفظ السلام والسيطرة على المواقع الإستراتيجية الممتدة فى أنحـــاء الإمبراطورية الرومانية . وفى بادىء الأمر كانت هذه المستعمرات فى إيطاليا ولكنها سرعان ما انتشرت فى كل الإمبراطورية . وكما رأينا آنفاً كان الغرض الأساسى لهذه المستعمرات غرضاً عسكرياً . ولكن أصبح لقب « مستعمرة » يعطى فيما بعد لأية مدينة ترغب الحكومة فى إكرامها وتقدير خدماتها الأمينة .

وكانت هذه المستعمرات تمتاز بخاصية عظيمة ، وحيثما وجدت كانت تعتبر أجزاء من مدينة رومية نفسها . وكان اعتزازها بالجنسية الرومانية هو الطابع المسيطر عليها فى كل شىء . فكانت اللغة الرومانية هى لغة التخاطب بين سكانها ، والأزياء الرومانية كانت أزياءهم المحببة لديهم . وكان حكامهم يحملون الألقاب والأوسمة الرومانية . وكانوا يمارسون العادات والتقاليد الرومانية وحيثما أقيمت هذه المستعمرات كانت تحتفظ فى إصرار وعناد بالطابع الرومانى . كانت المستعمرات

أجزاء من رومية ، أو مدناً مصغرة من عاصمة الدنيا . ونستطيع أن نسمع نغمة الكبرياء الرومانية من الإتهام الموجه ضد بولس وسيلا فى أعمال ١٦ : ٢٠ ، ٢١ « هذان الرجلان يهوديان وينإديان بعوائد لا يجوز لنـــا أن نقبلها ولا نعمل بها إذ نحن رومانيون . وهذا ما حدا ببولس أن يقول فى هذه الرسالة للمؤمنين « فإن سيرتنا هى فى السموات » (٣: ٢٠) أو بعبارة أخرى «إننا مستعمرة السماء ونتمتع بالجنسية السماوية » . وكما كانت مدينة رومية فى قلب المستعمر الرومانى ولم ينسَ قط فى أية بيئة أنه رومانى هكذا يجب علينا ألا ننسى فى أى مجتمع يضمنا أننا مسيحيون . ولم يحدث فى أى مكان أن اعتز إنسان بأنه مواطن رومانى مثل اعتزاز هؤلاء المستعمرين ، وهكذا كانت مدينة فيلبى فى اعتزازها بالجنسية الرومانية .

٢ — بولس وفيلبى :

جاء بولس إلى فيلبى لأول مرة حوالى عام ٥٢ ب . م عند قيامه بالرحلة التبشيرية الثانية . وكان مجيئه إليها بسبب الرجل المكدونى الذى رآه فى رؤيا يقول له « أعبر إلينا وأعنا » . وأقلع بولس من ترواس فى آسيا الصغرى ورست به السفينة عند ميناء نيابوليس فى أوروبا ومن هناك أخذ طريقه إلى فيلبى .

وقصة بقاء بولس فى فيلبى جاء ذكرها فى أعمال ١٥ وهى قصة ممتعة . وليس هناك أصحاح فى كل الإنجيل يرينا عمومية دعوة المسيح مثلما يرينا هذا الأصحاح . ويتركز هذا الأصحاح حول ثلاثة أشخاص . ليدية بياعة الأرجوان ، والجارية التى كان يستغلها سادتها فى كشف المستقبل للناس ، وضابط السجن الرومانى . وكان هؤلاء الثلاثة يمثلون ثلاثة قطاعات مختلفة للحياة فى ذلك العصر . كانت ليديه أسيوية ، وكانت الجارية مواطنة يونانية ، أما ضابط السجن فكان مواطناً رومانياً . لقد اجتمعت الإمبراطورية الرومانية كلها بمختلف عناصرها فى الكنيسة المسيحية . ولم يكن هؤلاء الثلاثة من جنسيات مختلفة فقط لكنهم كانوا أيضاً من طبقات إجتماعية مختلفة . كانت ليديه تاجرة الأرجوان وهو من أغلى السلع فى العالم القديم وكانت فى مقام « عميد التجار » ولم تكن الجارية فى نظر القانون شخصاً بل أداة حية . أما السجان فكان مواطناً رومانياً وعضواً فى الطبقة المتوسطة التى كان يخرج منها كل رجال الحكومة المدنيين . وفى كل هذه الطبقات : العليا والمتوسطة والفقيرة ــ كان

يمثل المجتمع . وليس هناك أصحاح آخر فى الكتاب المقدس يرينا بمثل هذا الوضوح مدى شمول واتساع الدعوة التى جاء بها يسوع المسيح إلى الناس .

٣ — الاضطهاد :

كان بولس مضطراً إلى مغادرة فيلبي بعد عاصفة عنيفة من الاضطهاد ، وبعد سجن مخالف للقانون . وكانت الكنيسة فى فيلبي وريثة لهذا الإضطهاد . ويقول لهم بولس فى هذا الصدد إنهم كانوا شركاءه فى قيوده وفى المحاماة عن الإنجيل (١ : ٧) وهو يطلب إليهم أن لا يخافوا من مقاوميهم لأنهم يجوزون فيما جازه هو بنفسه ولا يزال يحتمله حتى الآن (١ : ٢٨— ٣٠) .

٤ — الصداقة الحقيقية :

نمت بين بولس وكنيسة فيلبي صداقة أكثر ارتباطاً مما كان له مع الكنائس الأخرى . وقد كان من دواعى فخر بولس أنه لم يأخذ مساعدة من أى إنسان ولا من أية كنيسة ولكنه بيديه دبر كل احتياجاته . ولكنه قبل أن يأخذ هدية من كنيسة فيلبي وحدها . إذ بعد أن غادرهم حالا أرسلوا له هدية وهو فى تسالونيكي (٤ : ١٦) وعندما وصل إلى كورنثوس بطريق أثينا كانوا وحدهم الذين ذكروه مرة ثانية وأرسلوا له هداياهم (٢ كو ١١ : ٩) . ولذلك لا عجب أن قال لهم « يا إخوتى الأحباء والمشتاق إليهم يا سرورى وإكليلى » (٤ : ١) . إن بولس كان أكثر اتصالا بكنيسة فيلبي من أية كنيسة أخرى .

٥ — مناسبة كتابة الرسالة

لما كتب بولس هذه الرسالة كان سجيناً فى رومية وكانت أمامه أغراض معينة محددة وهو يمليها على أبفرودتس .

١ — إنها رسالة شكر . مرت السنون ونحن الآن فى العام الثالث والستين بعد الميلاد أو فى العام الذى يليه وإذا بالفيلبيين يذكرونه كعادتهم بهدية (٤ : ١٠، ١١) فكتب لهم هذه الرسالة معبراً عن عواطف شكره وامتنانه لهم .

٢ — وللرسالة صلة بأبفرودتس . ويبدو أن الفيلبيين أرسلوا أبفرودتس ليس فقط كحامل لهديتهم ولكن ليبقى مع بولس ويكون خادمه الشخصي . ولكن أبفرودتس هاجمه المرض فلازم الفراش . وكان مشتاقاً للعودة إلى بيته . وتألم لأنه علم بقلق الأخوة عليه . فأرسله بولس إلى فيلبي عندما تماثل للشفاء . لكن بولس كان يخامره الشعور أن الأخوة ربما لا يحسنون استقبال أبفرودتس ويحسبونه هارباً من ميدان الخدمة . ولذلك يكتب بولس هـــذه الرسالة التي يوصيهم فيها خيراً بأبفرودتس ويقول لهم « إقبلوه بفرح وليكن مثله مكرماً لأنه من أجل عمل المسيح قارب الموت مخاطراً بنفسه » (٢ : ٢٩ ، ٣٠) . وأنه لمنظر مؤثر أن ترى بولس وهو في السجن يتوقع الموت بين لحظة وأخرى لكنه ينسى نفسه ويهتم بتسهيل الأمور لأبفرودتس عندما اضطر أن يعود لجأة إلى بيته . وهذه هي الرقة المسيحية في أسمى صورها .

٣ — وكانت الرسالة رسالة تشجيع للفيلبيين في تجاربهم التي كانوا يكتوون بنارها من أجل المسيح .

٤ — والرسالة أيضاً دعوة إلى الوحدة . وأنه بسبب نداء الوحدة يكتب الرسول ذلك الفصل العظيم عن اتضاع المسيح وارتفاعه (٢ : ١ — ١١) وفي كنيسة فيلبي تشاجرت امرأتان وكانتا تشكلان خطراً يهدد السلام (٤ : ٢) واندس في الكنيسة المعلمون الكذبة الذين كانوا يسعون إلى إغراء الفيلبيين لإبعادهم عن الطريق الحق (٣ : ٢) فكانت هذه الرسالة نداء للإحتفاظ بوحدة الكنيسة .

لهذه الاعتبارات الطيبة كتب الرسول هذه الرسالة .

٦ — المشكلة الوحيدة :

لا تعترضنا إلا مشكلة واحدة في رسالة فيلبي ونحس أن الرسول وقف وقفة غير عادية عند ٣ : ٢ وكان كل شيء قبل ذلك يسير في هدوء ويبدو أن الرسالة تسير نحو نهايتها ولجأة ينفجر قائلا « انظروا الكلاب . أنظروا فعلة الشر . أنظروا القطع » ولا يوجد ارتباط بين الكلام السابق وهذا الكلام .

وبسبب هذه الوقفة المفاجئة يتراءى لبعض القراء أن رسالة فيلبي — كما هي بين أيدينا — ليست رسالة واحدة بل رسالتين . فالجزء من ٣ : ٢ — ٤ : ٣ هو رسالة شكر وتحذير أرسلها إليهم حالا بعد وصول أبفرودتس إلى رومية . والجزء من ١ : ١ — ٣ : ١ والجزء من ٤ : ٤ — ٢٣ هما رسالة أخرى كتبها بعد ذلك وأرسلت إلى الأخوة بيد أبفرودتس عندما اضطر إلى العودة .

ومع ذلك لا يبدو أن هناك سبباً معقولاً إلى تقسيم الرسالة إلى رسالتين وإنما الوقفة الفجائية التي بين ٣ : ١ ، ٣ : ٢ يمكن توضيحها بطريقة من طريقتين .

١ — بينما كان بولس مستغرقاً في الكتابة ، وصلت إلى سمعه أنباء عن متاعب في فيلبي . وفي الحال قطع حبل تفكيره ليعالج هذه المشكلة الطارئة .

٢ — لكن أبسط توضيح لهذه المشكلة هو بالتأكيد أن رسالة فيلبي رسالة شخصية . والرسالة الشخصية خالية من التكلف يجري فيها الكاتب على سجيته . فليس من ضرورة لترتيبها منطقياً كأنها رسالة جامعية . وفي رسالة كهذه ندون الكلام كما يأتي إلى أفكارنا ونتحدث إلى أصدقائنا على الورق كما نتحدث إليهم بشفاهنا . وارتباط الأفكار الذي يكون واضحاً لنا قد لا يكون بهذا الوضوح عند الآخرين . إن أيسر الحلول هو أن بولس يكتب خطاباً شخصياً وأن التغيير المفاجيء للموضوع هو ما يحدث بالفعل في كل رسالة شخصية كهذه الرسالة .

٧ — الرسالة الجميلة :

تعتبر رسالة فيلبي عند الكثيرين منا أحب رسالة كتبها بولس . وقد أطلق عليها لقبان جميلان جديران بها . فقد سميت بأنها « رسالة الأمور الفائقة » وسميت أيضاً بأنها « رسالة الفرح الدائم » ومع أن رسالة فيلبي وليدة السجن لكنها

تفيض بالفرح العميق . إذ يقول بولس « افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا » ، وحتى وهو فى السجن ، والموت واقف له بالمرصاد ، فإن قلبه يمتلىء بالفرح . ولا يفوته أن يوجه قلوب أصدقائه إلى هـذا الفرح العظيم وهـو فى نفس الوقت يوجـه قلوبنا من وراء الحقب والأجيـال إلى هذا الفرح الدائم الذى لنا فى المسيح يسوع فادينا .

التفســـير

الأصحاح الأول

من صديق إلى أصدقائه

بولس وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي مع أساقفة وشمامسة . نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح .

(فيلبي ١ : ١ ، ٢)

إن العبارة الأولى التي يفتتح بها الرسول بولس رسالته تضع اللحن الجميل الذي تسير عليه الرسالة كلها فهي رسالة من صديق إلى أصدقائه . ونلاحظ في دراستنا لرسائل بولس أنه في مطلع كل رسالة يقدم نفسه ببيان رسوليته . هذه قاعدة أساسية في كتابات الرسول بولس إذا استثنينا رسالتيه إلى أهل تسالونيكي ورسالته إلى فليمون . خذ مثلا رسالته إلى أهل رومية تجده يبدؤها بالقول « بولس عبد يسوع المسيح المدعو رسولا » وقس على ذلك سائر رسائله (١ كو ١ : ١ و ٢ كو ١ : ١ وغلا ١ : ١ وأف ١ : ١ وكو ١ : ١) ففي تلك الرسائل يذكر مركزه الرسمي الذي يؤهله للكتابة ويلزم قارئيه بالإصغاء إليه . أما عندما يكتب إلى أهل فيلبي فهو ليس في حاجة ليقدم لهم أوراق اعتماده كرسول . وليس محتاجاً لإبراز سلطانه كرسول ومطالبتهم بوجوب الإصغاء إليه . إنه يعلم أنهم سيصغون إليه . ويصغون بقلوب مفعمة بالمحبة له . وبالنسبة لكل الكنائس . كانت كنيسة فيلبي أقرب الكنائس

إلى قلب الرســـول بولس . وهو يكتب لا كرسول إلى كنيسة بل كصديق إلى أصدقائه .

لكنه مع ذلك لا يفوته أن يخلع على نفسه لقباً معيناً فيقول إنه مع تيموثاوس « عبد ليسوع المسيح » والعبد يختلف كل الاختلاف عن الخادم . الخادم حر فى المجيء والذهاب . وله مطلق الحرية فى ترك مخدومه والالتصاق بغيره فى أى وقت شاء . أما العبد فهو ملك سيده إلى الأبد وعندما يدعو بولس نفسه عبداً ليسوع المسيح يقصد أن يقول ثلاثة أشياء :

١ — إنه يعترف بملكية المسيح له ملكية مطلقة . المسيح قد أحبه واشتراه بثمن (١ كو ٦ : ٢٠) وهو لا يقدر أبداً أن يكون ملكاً لأحد آخر غير المسيح بأى حال من الأحوال .

٢ — وهو يعترف بأنه مدين للمسيح بالطاعة المطلقة . فليس للعبد إرادة خاصة به . إن إرادة سيده ينبغى أن تكون إرادته . وقرارات سيده هى التى تنظم حياته . كذلك لم يكن لبولس إلا إرادة سيده يسوع . ولم تكن له طاعة إلا لربه ومخلصه .

٣ — ولكن هناك شيء ثالث لمعنى العبد . كان اللقب المعروف لأنبياء العهد القديم أنهم عبيد الله (عاموس ٣ : ٧ و إرميا ٧ : ٢٥) وهذا هو اللقب الذى أعطى لموسى وليشوع ولداود (يشوع ١ : ٢ ، قضاة ٢٥ : ٨ ومز ٧٨ : ٧٠) وفى الواقع أن أعلى ألقاب الكرامة بلا منازع هو لقب عبد الله وعندما يأخذ بولس لنفسه هذا اللقب فهو يضع نفسه بتواضع فى قائمة أنبياء الله . إن عبودية المسيحى للرب يسوع ليست إذلالا أو امتهاناً . صدق التعبير اللاتينى فى قوله « إن عبوديتك لله هى الطريق لأن تكون ملكاً متوجاً » .

أجل ! إن العبودية للرب يسوع المسيح هى الطريق إلى الشرف ، والمجد ، والحرية الكاملة .

الامتياز المسيحى

فيلبى ١ : ١ ، ٢ (تابع)

يوجه الرسول رسالته إلى « جميع القديسين فى المسيح يسوع » والكلمة « قديس » كثيراً ما يساء فهمها . ولآذاننا نحن أبناء القرن العشرين ترسم لنا كلمة « قديس » صورة من التقوى التى لا يكاد لها وجود . فهى صورة نراها فى نوافذ الكاتدرائيات الكبرى لا فى دوائر الحياة العملية . ومع أنه من السهل أن نرى معنى هذه الكلمة إلا من الصعب أن نترجمها . والكلمة اليونانية « هاجيوس » وما يرادفها فى العبرية « قدوش » تترجمان عادة إلى كلمة « مقدس » . وفى الفكر العبرى إذا وصف شىء بأنه « مقدس » كانت الفكرة الأساسية أنه « مختلف » عن غيره من الأشياء أو هو « مفرز » من سائر الأشياء . ولكى يزداد فهمنا لهذه الكلمة ، دعنا ندرس معاً كيفية استعمالها فى العهد القديم . فعند وضع الأنظمة الخاصة بالكهنوت كان يقال عن الكهنة « مقدسين يكونون لإلههم » (عد٢١ : ٦) كان على الكهنة أن يكونوا ممتازين عن غيرهم من الناس لأنهم كانوا مفرزين لعمل خاص ولوظيفة معينة تختلف كل الاختلاف عن غيرها من الوظائف .

وكذلك العشور فقد كان عشر كل الإنتاج يفرز لله « وكل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب . قدس للرب » (لا ٢٧ : ٣٠، ٣٢) أى أن العشر كان يستعمل لأغراض تختلف عن أغراض الحياة الأخرى .

وكذلك ينطبق هـذا الكلام على « قدس الأقداس » وهو الجزء الرئيسى فى الهيكل (خر ٢٦ : ٣٣) فقد كان مختلفاً عن كل مكان آخر وعن كل بناء آخر .

وكلمة « قديس » أيضاً كانت تشير بصفة خاصة إلى الأمة اليهودية نفسها . فكان اليهود أمة مقدسة (خر ١٩ : ٦) وكانوا مقدسين للرب . إن الله قد فضلهم عن سائر الأمم ليكونوا خاصة (لا ٢٠ : ٢٦) وهم الأمة التى عرفها الرب دون سائر الأمم التى على وجه الأرض (عا ٢ : ٢) فكان اليهود بهذا المعنى مختلفين عن كل

الأمم الأخرى لأنهم كان لهم مكان فى خطة الله ومقاصده . لكن اليهود رفضوا أن يقوموا بدورهم فى الحياة والتاريخ كما أرادهم الله أن يكونوا . وعندما جاء ابن الله إلى العالم لم يعترفوا به ورفضوه وصلبوه . وبناء على عنادهم وقساوة قلوبهم فقد انتزعت منهم الامتيازات والمسئوليات وسلمت للكنيسة التى أصبحت اسرائيل الجديد والحقيقى ، وصارت بحق شعب الله المختار. ولذلك فكما كان اليهود فيما مضى من الزمن مقدسين أى مختلفين عن غيرهم من الناس ، فهكذا يجب أن يكون المسيحيون مقدسين ومتميزين عن الآخرين. وهكذا كان بولس قبل تجديده يضطهد « القديسين » (أعمال ٩ : ١٣) وكذلك ذهب بطرس ليزور القديسين فى لدّة (أع ٩ : ٣٢) وعندما نقول عن المسيحيين إنهم قديسون ، نقصد أن نقول إنهم مختلفون ومتميزون عن غيرهم من الناس ، ففى أى شىء يختلف المسيحيون عن بقية الناس ؟

إن بولس يقول عن هؤلاء الأحباء إنهم قديسون « فى المسيح يسوع » وما من شخص يقرأ رسائل بولس إلا ويرى أنه يكثر من ترديد هذه العبارات : فى المسيح ، فى المسيح يسوع ، فى الرب . وقد وردت عبارة « فى المسيح يسوع » فى رسائله ٤٨ مرة ، وعبارة « فى المسيح » ٣٤ مرة ، وعبارة « فى الرب » ٥٠ مرة ويبدو لنا واضحاً أن الرسول يقصد بعبارة «فى المسيح» أن يشير بأصبعه إلى جوهر المسيحية . فماذا يقصد الرسول بهذا التعبير ؟

يقول « مارفن فنسنت » إن الرسول عندما يتكلم عن وجود المسيحى فى المسيح كان يعنى أن المسيحى يحيا فى المسيح كما يحيا الطير فى الهواء ، أو السمك فى الماء ، أو جذور الشجرة فى أعماق الأرض . إن الوجود فى المسيح هو الحياة بصفة دائمة ومستمرة فى جو وروح المسيح. هو الحياة فى عالم يحدثنا فيه كل شىء عن المسيح . هو الحياة التى لانشعر فيها لحظة واحدة بأننا قد انفصلنا عن المسيح . هو الوجود بحيث نحس بحضوره وقوته وسلطانه فينا وحولنا . إن ما يجعل المسيحى مختلفاً وممتازاً عن كل إنسان هو إحساسه بحضور المسيح معه فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وإلى آباد الدهر .

وعندما يتكلم الرسول عن « القديسين فى المسيح يسوع » يقصد أولئك الذين يختلفون عن الآخرين وهم مكرسون لله بسبب صلتهم الخاصة بيسوع المسيح .

وهذا أمر ميسور لكل مسيحى .
وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسيحى .

التحية الشاملة

فيلبى ۱ : ۱ ، ۲ (تابع)

إن تحية بولس لأصدقائه هى « نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح » أنظر رو ۱ : ۷ و ۱ كو ۱ : ۳ و ۲ كو ۲ : ۲ وغلا ۱ : ۳ و أف ۱ : ۲ و كو ۱ : ۲ و ۱ تس ۱ : ۱ و ۲ تس ۱ : ۲ و فل ۳ .

وعندما أخذ الرسول هاتين الكلمتين : النعمة والسلام ووضعهما معاً أراد أن يصوغ منهما شيئاً عجيباً ، كان يريد أن يأخذ عبارتى التحية لأمتين عظيمتين ويجعل منهما تحية واحدة شاملة . فالنعمة (كاريس) هى التحية اليونانية . وهى التحية التى كان يبدأ بها اليونان رسائلهم دائماً . أما السلام (إيرينى) فهو التحية العبرية التى كان يحيى بها اليهود بعضهم بعضاً . وكل كلمة من هاتين الكلمتين كان لها مذاق خاص . وكل كلمة منهما ازدادت عمقاً وقيمة بالمعنى الجديد الذى أضفته المسيحية عليها .

فالنعمة (كاريس) كلمة جميلة تحمل فى طياتها معانى الفرح والسرور والبهاء والجمال . ولكن بيسوع المسيح أضيف جمال جديد على ما كان لها من جمال . وهذا الجمال هو وليد الصلة الجديدة بالله — صلة النعمة المجانية . ومع المسيح صارت الحياة جميلة لأن الإنسان لم يعد فريسة الخوف من سلطان وشريعة الله بل قد صار إبناً لمحبة الله . ومع المسيح قد جاء هذا الجمال الفائق باكتشاف النعمة الغنية المتفاضلة فى الله أبينا .

أما السلام (إيرينى) فهو كلمة عظيمة متسعة . ولا يقصد أبداً بالسلام أنه سلام سلبى . وليس معناه إطلاقاً عدم وجود المتاعب . إن المقصود بالسلام هو الخير الأسمى والأكمل للإنسان . وهذا السلام يقوم على الصلات الشخصية : صلة الإنسان بنفسه ، وصلته بإخوته ، وصلته بالله . إنه دائماً السلام الذى ينشأ عن المصالحة .

ولذلك فإن بولس حين يصلي طالباً النعمة والسلام لأحبائه فهو يصلي لكي يعرفوا فرح معرفة الله الآب وسلام المصالحة مع الله، ومع الناس، ومع أنفسهم وأن هذه النعمة وهذا السلام لا يمكن أن يأتيا للإنسان إلا بواسطة يسوع المسيح.

علامات الحياة المسيحية

أَشْكُرُ إِلٰهِي عِنْدَ كُلِّ ذِكْرِي إِيَّاكُمْ. دَائِمًا فِي كُلِّ أَدْعِيَتِي مُقَدِّمًا الطِّلْبَةَ لِأَجْلِ جَمِيعِكُمْ بِفَرَحٍ. لِسَبَبِ مُشَارَكَتِكُمْ فِي الْإِنْجِيلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ إِلَى الْآنَ. وَاثِقًا بِهٰذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. كَمَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَفْتَكِرَ هٰذَا مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ لِأَنِّي حَافِظُكُمْ فِي قَلْبِي فِي وُثُقِي وَفِي الْمُحَامَاةِ عَنِ الْإِنْجِيلِ وَتَثْبِيتِهِ. أَنْتُمُ الَّذِينَ جَمِيعُكُمْ شُرَكَائِي فِي النِّعْمَةِ. فَإِنَّ اللهَ شَاهِدٌ لِي كَيْفَ أَشْتَاقُ إِلَى جَمِيعِكُمْ فِي أَحْشَاءِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. وَهٰذَا أُصَلِّيهِ أَنْ تَزْدَادَ مَحَبَّتُكُمْ أَيْضًا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَفِي كُلِّ فَهْمٍ. حَتَّى تُمَيِّزُوا الْأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ لِكَيْ تَكُونُوا مُخْلِصِينَ وَبِلاَ عَثْرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْمَسِيحِ. مَمْلُوئِينَ مِنْ ثَمَرِ الْبِرِّ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِمَجْدِ اللهِ وَحَمْدِهِ.

(فيلبي ١: ٣ — ١١)

إنه شيء جميل حقاً — كما يقول إليكوت — عندما يجتمع الذكر والشكر معاً ، وفى كل علاقاتنا الشخصية كم يكون رائعاً وجميلا ألا تختزن عقولنا إلا الذكريات السعيدة . وهذا ما كان عليه بولس مع المسيحيين فى فيلبى . فالذكريات لم تجلب له حسرة بل سعادة ، وهنا تضع أمامنا هذه العبارات العلامات الحقيقية للحياة المسيحية .

والفرح المسيحى هو أول علامة للحياة المسيحية . فبقلب فرح يصلى بولس لأجل أصدقائه . وقد سميت رسالة فيلبى بحق « رسالة الفرح » . ويقول « بنجل » فى عبارة لاتينية موجزة ما معناه إن النقطة المركزية فى هذه الرسالة هى « أنا فرح فافرحوا أنتم » لننظر الآن إلى صورة الفرح المسيحى كما ترسمها لنا هذه الرسالة .

١ — الفرح المسيحى هو فرح الصلاة المسيحية — فرح التقدم بأعزائنا إلى عرش النعمة (١ : ٤) ويحدثنا « جورج ريندروب » فى أحد كتبه عن ممرضة تقية علمت رجلا كيف يصلى واستطاعت بتعليمه الصلاة أن تنقله من مخلوق ساخط كئيب إلى رجل فرح . وكانت الممرضة بحكم مهنتها تؤدى كثيراً من عملها بيديها . واستعملت يدها كما لو كانت منهاجاً للصلاة . وكل إصبع من أصابعها يشير إلى شخص معين . فالإبهام كان أقرب الأصابع إليها وكان يذكرها بالصلاة من أجل أقرب الناس إليها وأحبهم إلى قلبها . والأصبع الثانى يستعمل للإشارة وتوجيه النصائح وكان هذا الأصبع يذكرها بالصلاة من أجل كل معلميها فى المدرسة أو فى المستشفى . والأصبع الثالث هو أطول الأصابع وكان يذكرها بالصلاة من أجل ذوى الحيثية والمكانة فى بلادها أو فى العالم . والأصبع الرابع هو أضعف الأصابع كما يعرف ذلك كل عازف على البيانو . وكان هذا الأصبع يذكرها بالصلاة من أجل الضعفاء ، والمتعبين والمتألمين . أما الخنصر فهو أصغر الأصابع وأقلها أهمية وكانت الممرضة تشير به إلى نفسها . وهذا فى الواقع منهاج جميل للصلاة . ولابد أن يمتلىء القلب بفرح عميق وسلام فائض عندما نذكر أحباءنا ومواطنينا وكل سكان العالم فى صلاتنا لله .

٢ — والفرح المسيحى هو فرح الكرازة بيسوع المسيح (١ : ١٨) وعندما

يتمتع الإنسان ببركة عظيمة فإن أول دافع له يهديه بالتأكيد إلى وجوب اقتسامها مع الآخرين . وهناك فرح عظيم فى التفكير بأن الانجيل « يكرز به فى كل أرجاء العالم » فيأتى إلى محبة المسيح شخص، وثان ، وثالث . وهكذا إلى أن تمتلىء الأرض من معرفة محبة المسيح كما تغطى المياه البحر .

٣ — والفرح المسيحى هو فرح الإيمان (١ : ٢٥) وإذا لم تجعل المسيحية الإنسان فرحاً فهى لاتستطيع أن تصنع منه شيئاً على الاطلاق ؛ وهناك عقائد تجعل من المسيحية ديانة مفزعة حزينة . قال المرنم «نظروا إليه واستناروا » (مز ٣٤ : ٥) وعند ما نزل موسى من قمة الجبل كان جلد وجهه يلمع (خر ٣٤ : ٢٩) إن المسيحية هى ديانة القلب السعيد والوجه اللامع المضىء .

٤ — والفرح المسيحى هو الفرح برؤية المسيحيين فى شركة مقدسة معاً (٢ : ٢) كما غنى المرنم فى مزمور ١٣٣ : ١ « هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معاً » .

يا ما ألذ الاتحـــاد بـين بنى الإيمان

إذ يسلكون فى وداد بالقلب واللســان

ولا يمكن أن يكون سلام لأحد وبينه وبين غيره علاقات متصدعة ومنازعات دائمة . وليس فى العالم بأسره ما هو أجمل من عائلة يرتبط أفرادها معاً برباط المحبة والوفاق . وليس هناك ما هو أفضل من منظر الكنيسة المتحدة معاً لأن أعضاءها فى المسيح يسوع ربهم . وفى المسيح فقط يظهر ويتألق جمال العلاقات البشرية الكاملة .

٥ — والفرح المسيحى هو فرح الألم لأجل المسيح (٢ : ١٧) ويذكر لنا التاريخ أن « بوليكاربوس » صلى فى ساعة استشهاده فى جوف اللهيب قائلا « إنى أشكرك أيها الآب القدوس لانك حسبتنى مستحقاً لهذه الساعة »إن الألم لأجل المسيح هو الامتياز الكبير لأنه يهيىء لنا المجال للشهادة الأكيدة عن ولائنا للمسيح ، ولأنه يقدم لنا فرصة حقيقية لبناء ملكوت الله .

٦ — والفرح المسيحى هو الفرح بوصول الأخبار السارة عن الأحباء (٢ : ٢٨) والحياة ملأى بالفواصل التى تفرق بين الأصدقاء . ولابد أن الفرح يغمر قلوبنا عندما تأتينا أخبار طيبة عن أحبائنا الذين فرقت الأيام بيننا وبينهم مدة طويلة من الزمن . تكلم واعظ اسكتلندى كبير عن الفرح الذى نعطيه لأحد أعزائنا دون أن يكلفنا أكثر من قيمة طابع بريد . إنه جدير بنا أن نذكر أن إعطاء الفرح لأعزائنا شىء سهل وميسور بدوام الاتصال بهم ، كما أن جلب الأحزان والهموم إليهم أمر سهل وميسور أيضاً بإهمال الكتابة لهم .

٧ — والفرح المسيحى هو فرح الكرم المسيحى (٢ : ٢٩) وهناك البيت ذو الباب المغلق فى وجوه الضيوف والغرباء ، كما أن هناك البيت الذى بابه مفتوح دائماً لهم . الباب المغلق هو باب محبة الذات التى تتنافى مع المسيحية . والباب المفتوح هو باب الترحيب المسيحى والمحبة المسيحية . إنه شىء عظيم حقاً أن يكون لبيوتنا هذا الباب المفتوح الذى يطرقه الغريب والمتضايق والحزين وهم يعلمون أنهم لابد واجدون فينا صدوراً مرحبة ووجوهاً بشوشة وقلوباً محبة .

٨ — والفرح المسيحى هو فرح وجود الإنسان فى المسيح (٣ : ١ و ٤ : ١) ولقد سبق لنا أن رأينا أن الوجود فى المسيح هو الحياة فى بهجة حضوره كما يحيا الطائر فى الهواء ، وكما يحيا السمك فى البحار ، وكما تمتد جذور الشجرة فى أعماق الأرض . إنه أمر طبيعى أن نكون سعداء فى وجودنا مع شخص نحبه . والمسيح هو المحب الأعظم لنا والمحبوب الأعظم منا ولن يفصلنا عنه شىء ما سواء فى الزمن الحاضر أو فى الأبدية .

٩ — والفرح المسيحى هو فرح اكتساب نفس واحدة للمسيح (٤ : ١) . إن الفيلبيين هم سرور بولس وإكليله لأنه كان الواسطة فى الإتيان بهم إلى يسوع المسيح . إنه فرح الأب ، والأم ، والمعلم ، والواعظ عندما يأتون بالآخرين — سيما الأطفال — إلى محبة يسوع المسيح . ومن يتمتع بامتياز عظيم فبالتأكيد لا يهدأ حتى يقاسم أسرته وكنيسته أمجاد هذا الامتياز .

١٠ — والفرح المسيحى هو الفرح بالهدية الصادرة من قلب محب (٤ : ١٠) والفرح بالهدية ليس فى الهدية ذاتها لكنه الفرح فى ذكر الآخرين له . هو فرح

الشعور بأن صديقاً له لا يزال يذكره ولم ينسه بالرغم من بعد المسافات .

وليست الهدية فى قيمتها ولكن فى المحبة التى تعبر عنها . وهذا فرح يمكننا أن نعطيه الآخرين أكثر جداً مما نقوم به فعلا .

علامات الحياة المسيحية

الذبيحة المسيحية

فيلبى ١ : ٣ — ١١ (تابع)

يقول بولس فى العدد السادس إن الله الذى ابتدأ فى الفيلبيين عملا صالحاً سيكمله ويتممه حتى يكونوا على استعداد ليوم المسيح . ويستعير الرسول هنا كلمتين من اللغة اليونانية للتعبير عن « البدء » و « التكميل » ليس فى الإمكان ترجمتهما فالكلمتان اللتان يستعملهما للبدء والتكميل هما كلمتان فنيتان للتعبير عن البدء والنهاية عند تقديم الذبيحة .

وكانت لليونانيين طقوس مبدئية يقومون بها عند تقديم الذبيحة . فكانوا يضيئون شعلة بالنار ويضعونها على المذبح ثم يغطسون الشعلة الملتهبة فى إناء من الماء وبذلك يتطهر الماء بالشعلة المقدسة . وبذلك الماء المطهر كان يرش الناس والذبيحة ليجعلهم مقدسين . ثم يتبع ذلك ما كانوا يسمونه بالصمت المقدس الذى يقضيه العابد فى تقديم صلواته إلى إلهه . وفى النهاية يؤتى بسلة من الشعير ثم ترمى بعض حبات الشعير على الذبيحة وعلى الأرض من حولها . وكانت كل هذه الأعمال بداية تقديم الذبيحة . وكانوا يستعملون لهذه المقدمات كلمة « أرشيثاى » وهى الكلمة التى يستعين بها بولس هنا . وعند تكملة كل الطقوس الخاصة بتقديم الذبيحة بكل تفاصيلها الصغيرة كانوا يستعملون كلمة « إتيتلين » التى يتخذها الرسول أيضاً للتعبير عن تكملة عمل الله الصالح فينا .

وكل العبارة كما كتبها بولس تتحرك فى جو من الذبيحة وتتنقل فى تعبيرات وصور خاصة بهذه الطقوس المقدسة عند اليونانيين .

وهكذا يرى الرسول أن حياة كل مسيحى ماهى إلا ذبيحة معدة لتقديمها ليسوع المسيح . وهى نفس الصورة التى يرسمها فى رسالته إلى أهـــل رومية عند ما يطلب منهم برأفة الله أن يقدموا أجسادهم ذبيحة حية مقدسة مرضية عنـــد الله (رو ١٢ : ١) .

ويوم مجيء المسيح سيكون مجيء ملك مهيب . وفى يوم كهذا يتحتم على رعايا الملك أن يقدموا له الهدايا تعبيراً عن ولائهم وإظهاراً لعواطف محبتهم . والهدية الوحيدة التى يرغب المسيح أن نقدمها له هى نفوسنا وحياتنا ولذلك فإن أسمى واجب علينا هو أن نجعل حياتنا لائقة لتقديمها هدية ليسوع المسيح . ونعمة الله فقط هى التى تقدرنا أن نفعل ذلك . ومن اللحظة التى نبدأ فيها طريق الحياة المسيحية ، تبدأ معنا نعمة الله لتؤهلنا لتقديم الذبيحة الكاملة ليسوع المسيح . وإذا كنا نواصل فى السماح لنعمة الله أن تعمل فينا ، فإن نعمته ستكمل عملها المجيد وهكذا تكون حياتنا تقدمة لائقة له فى يوم مجيئه المبارك .

علامات الحياة المسيحية

المشاركة المسيحية

فيلبى ١ : ٣ — ١١ (تابع)

فى هذه العبارات ينبر الرسول بشدة على فكرة المشاركة المسيحية . وهناك أشياء معينة يشترك فيها المسيحيون مع بعضهم البعض .

١ — المسيحيون شركاء فى النعمة . المسيحيون أناس أخذوا نصيبهم من عطية مشتركة هى عطية نعمة الله . المسيحيون أناس اجتذبتهم النعمة إليها لأنهم مدينون بدين مشترك لنعمة الله وصلاحه .

٢ — المسيحيون شركاء فى عمل الإنجيل . المسيحيون لا يشتركون فقط فى عطية معطاة لهم لكنهم يشتركون أيضاً فى عمل عظيم مسند إليهم . وهذا العمل هو تقدم الإنجيل . ويستعمل الرسول كلمتين للتعبير عن عمل المسيحيين لأجـــل

الإنجيل . فهو يتكلم عن المحاماة عن الإنجيل وتثبيته . ويقصد بالمحاماة عن الإنجيل ضد الهجمات التى تصوّب إلى الإنجيل من الخارج . هو الرد على الأقوال التى يتطاول بها أعداء المسيحية . وعلى المسيحى أن يكون مستعداً دائماً للدفاع عن إيمانه ليعطى سبباً للرجاء الذى فيه . أما تثبيت الإنجيل فهو العمل على بناء وتقوية الإنجيل من الداخل هو تثبيت الإيمان فى الإخوة المسيحيين داخل نطاق الكنيسة . والمسيحى ملتزم بالعمل مع إخوته فى المحاماة عن الإنجيل ضد هجمات أعدائه ، وفى بناء وتقوية الإيمان فى حياة أصدقائه .

٣ — المسيحيون شركاء فى احتمال الألم لأجل الإنجيل ، كان الفيلبيون شركاء فى قيود بولس . وحيثما دعى المسيح ليتألم لأجل الإنجيل فلابد أن يجد القوة والعزاء لأنه لايحتمل الألم وحده بل هو واحد فى شركة عظيمة ممتدة فى كل بقاع الأرض . وهى فى كل عصر وفى كل جيل وفى كل ركن من أركان هذا العالم الواسع . هذه الشركة العظيمة قد تألمت لأجل المسيح ولم تنكر إيمانها به .

٤ — المسيحيون شركاء مع المسيح . ويقول الرسول فى العدد الثامن « إنى أشتاق إليكم فى أحشاء يسوع المسيح » والكلمة التى يستعملها للأحشاء تشير إلى الأمعاء العليا والقلب والكبد والرئتين وكان اليونانيون يعتقدون أنها مركز العواطف والمشاعر . وما يريد الرسول أن يقوله هو هكذا « إنى أشتاق إليكم فى صميم عواطف يسوع المسيح نفسه وأنا أحبكم كما يحبكم يسوع »

إن المحبة التى يشعر بها تجاه أصدقائه المسيحيين ماهى إلا محبة المسيح نفسه ، ويقول « لايتفوت » تعليقاً على هذه العبارة « ليس للمؤمن أشواق منفصلة عن ربه . فإن نبضات قلبه تتفق مع نبضات قلب المسيح ، وعندما تكون واحداً مع المسيح بحق ، فإن محبته تخرج بواسطتنا إلى اخوتنا الذين يحبهم هو ، والذين مات على الصليب لأجلهم ، وليس المسيحى أقل من شريك فى محبة المسيح .

علامات الحياة المسيحية

التقدم المسيحى والهدف المسيحى

فيلبى ۱ : ۳ — ۱۱ (تابع)

كانت صلاة بولس من أجل أحبائه أن تزداد محبتهم نمواً كل يوم (۱ : ۹ ، ۱۰) ولم تكن تلك المحبة مجرد إحساس عاطفى لكنها كانت محبة تنمو أكثر فأكثر فى المعرفة والإدراك الروحى حتى يصيروا قادرين على التمييز بين الصواب والخطأ . إن المحبة هى دائماً الطريق إلى المعرفة . وإذا أحببنا موضوعاً معيناً شغفنا به وقادتنا هذه المحبة إلى معرفة كل شاردة وواردة عنه . وإذا أحببنا شخصاً ما رغبنا فى معرفة كل شيء عنه . وإذا أحببنا يسوع دفعتنا هذه المحبة إلى النمو اليومى المتزايد فى معرفته وفى معرفة حقه . المحبة تحس دائماً بإحساس عقل وقلب من تحب . وإذا آذت المحبة شعور الشخص الذى تدعى حبه فلا تكون محبة على الإطلاق . وإذا كنا نحب يسوع حقاً نحس بإرادته ورغباته . وكلما أحببناه ازدادت ضمائرنا رقة، وازددنا إحجاماً عن فعل الشر ، ورغبة فى فعل الخير والصلاح . إن المحبة الصحيحة تقود إلى الازدياد كل يوم فى المعرفة ، وإلى النمو فى الطاعة . والكلمة التى يستعملها الرسول لتمييز الأمور المتخالفة هى الكلمة التى تستعمل فى فحص المعادن واختبارها أو فى فحص قطعة من العملة للتأكد من أن العملة صحيحة وليست مزيفة. إن المحبة الحقيقية ليست عمياء . إنها المحبة الحقيقية التى تستطيع دائماً أن ترى بين الصحيح والزائف .

وبهذه الكيفية يصبح المسيحى مخلصاً وبلا عثرة . ويصير نقياً فى نفسه ولا يعثر أحداً . والكلمة « مخلصين » قد تحمل معنى « الحكم فى ضوء الشمس » وهكذا الأخلاق المسيحية يمكنها أن تقف فى وجه الأنوار المسلطة نحوها . وقد تحمل هذه الكلمة معنى آخر مأخوذاً من دوران الحنطة المستمر فى غربال حتى تكون خالية تماماً من الشوائب . وبهذا المعنى تكون الأخلاق المسيحية مطهرة ومنظفة من أية شائبة إلى أن تصير فى تمام النقاوة .

لكن المسيحى لا يقف عند حد الإخلاص أو الطهارة الشخصية ، لكنه لا يتسبب أبداً فى عثرة أى شخص من الأشخاص . وهناك مسيحيون بلا لوم فى

حياتهم الشخصية لكنهم جامدون وقساة وخشنون وعابسون حتى أنهم فى النهاية ينفرون الناس من المسيحية. وهناك أناس صالحون لكنهم كثيرو الانتقاد للآخرين لدرجة تجعل الناس يكرهون الصلاح بسببهم . المسيحى فى نفسه نقى ولكن يجب أن يكون عنده من المحبة والرقة ما يجذب الآخرين إلى طريق الحياة المسيحية ولا يعثر أحد قط عن السير فيها .

وأخيراً يضع الرسول أمامنا الهدف المسيحى ، وهو أن نحيا الحياة التى تعطى المجد والحمد لله. وليس المقصود من الصلاح المسيحى أن نكسب الحمد والمجد والكرامة لأنفسنا بل الهدف من حياتنا هو أن نكسب المجد لله .. إن المسيحى لا يشير أبداً إلى نفسه . إنه دائماً يشير إلى الله لأنه يعلم ويشهد أنه وصل إلى ما هو عليه الآن، لا بفضل مجهوداته الخاصة بل بفضل نعمة الله فقط .

القيود التى دمرت الحواجز

« ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنْجِيلِ . حَتَّى إِنَّ وُثُقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلاَيَةِ وَفِي بَاقِي الأَمَاكِنِ أَجْمَعَ . وَأَكْثَرُ الإِخْوَةِ وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بِوُثُقِي يَجْتَرِئُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلاَ خَوْفٍ .

(فيلبى ١ : ١٣ ، ١٤).

كان بولس سجيناً ، وبدت هـــذه الحقيقة القاسية كأنها تضع النهاية لنشاطه المرسلى، ولكن عوضاً عن أن يقضى السجن على نشاطه المرسلى فقد عمل على امتداده ســـواء بشخصه أو بواسطة آخرين . إن القيود التى تهدد بها تعطيل الإنجيل قد تحولت إلى معاول لهدم الحواجز. والكلمة التى يستعملها الرسول لتقدم الإنجيل هى

الكلمة الخاصة بوصف التقدم الذى يحرزه الجيش وهو يقتلع الأشجار التى تعترض طريقه ، ويزيل الحواجز التى تعطل زحفه . وقد كان سجن بولس فاتحاً الباب لامغلقاً إياه . لم يكن حاجزاً بل ممهداً الطريق إلى دوائر جديدة للعمل والنشاط الذى لم يكن ميسوراً له لولا قيود السجن .

إن بولس إذ رأى أن العدالة لاتنصفه فى فلسطين ، رفع أمره إلى قيصر كما يحق لكل مواطن رومانى أن يفعل ذلك . وفى الوقت المعين أرســــل إليه رومية تحت حراسة عسكرية . وعندما وصل إليها سلم إلى رئيس العسكر وأذن له أن يقيم وحده مع العسكرى الذى كان يحرسه (أعمال ٢٨ : ٢٦) .

وأخيراً ، وإن لم يزل تحت الحراسة ، سمح له أن يستأجر بيتاً لنفسه (أعمال ٢٨ : ٣٠) وكان بيته مفتوحاً لكل من يأتى ليراه .

ونحن نقرأ فى هذه الرسالة أن « وثقه » أى قيوده قد صارت ظاهرة فى المسيح فى كل دار الولاية وفى باقى الأماكن أجمع والكلمة الأصليـــة لدار الولاية وهى « بريتوريوم » لها معنيان : فهى تعنى مكاناً أو مجموعة من الناس . وهى بمعنى المكان لهـا ثلاث مدلولات . فهى مركز قائد الجيش فى المعسكر . ويمكن إطلاقها على سراى الإمبراطور ، وقد تحمل معنى البيت الكبير أو الفيللا التى تليق بمسكن رجل ثرى . وليس من المعقول أن يسكن بولس فى بيت من هذا الطراز . إذن نرجع إلى المعنى الثانى للكلمة وهو « مجموعة من الناس » وبهذا المعنى يكون المقصود بدار الولاية جنود الحرس الإمبراطورى . وهذا الحرس كان قد أنشأه أغسطس قيصر وكان مكوناً من عشرة آلاف من الجنود الممتازين . وكانوا موزعين فى أرجاء مدينة رومية وفى المدن المجاورة . ثم بنى لهم طيباريوس قيصر مساكن خاصة ومحصنة . أما الإمبراطور فيتيليوس فقد زاد عددهم إلى ستة عشر ألف جندى وكانت مدة خدمتهم اثنى عشرة سنة ، وزادت فيما بعد إلى ستة عشر سنة وفى نهاية خدمتهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية ومبلغاً من المال يزيد على مائتين وخمسين جنيها . وعلى مر الأيام أصبح وجودهم مشكلة ، وجاء وقت كانوا فيه من القوة بحيث استطاعوا أن يصنعوا الامبراطور وأصبحت كلمتهم أمراً مسموعاً إذ أن الشخص الذى كان يرشحونه للامبراطورية كان هو الامبراطور . وإذا لزم الأمر كانوا يفرضون إرادتهم بالقوة على الشعب .

وإلى رئيس هذا الحرس الإمبراطورى كان بولس قد سلم عندما وصلت به السفينة إلى رومية .

والآن يكرر بولس الإشارة إلى نفسه بوصفه أسيراً أو مقيداً بقيود . وفى حديثه مع المسيحيين الرومان يقول إنه لم يفعل شيئاً يستحق من أجله أن يسلم أسيراً إلى أيدى الحكام الرومان (أعمال ٢٨:٧) وفى هذه الرسالة يقول ويعيد أنه موثق بسلاسل (١ : ٧ ، ١٣ ، ١٤) وفى رسالته إلى أهل كولوسى يقول إنه مقيد من أجل المسيح ويطلب منهم أن يذكروا قيوده (كو ٤ : ١٣ ، ١٨) وفى رسالته إلى فليمون يدعو نفسه أسير يسوع المسيح ويتكلم عن قيود الإنجيل (فل ٩ ، ١٣) . وفى رسالته إلى أهل أفسس يدعو نفسه أيضاً أسير يسوع المسيح (أف ٣ : ١) وهناك عبارتان تعرف فيهما هذه القيود تعريفاً أدق . فى أعمال ٢٨ : ٢ يتكلم عن نفسه باعتباره مقيداً بهذه السلسلة وهو يستخدم نفس الكلمة فى أفسس ٦ : ٢٠ عندما يقول إنه سفير فى سلاسل . وفى هذه الكلمة نجد مفتاحاً لنا . فهى السلسلة القصيرة التى يربط بها معصم يد الأسير إلى معصم يد الجندى المكلف بحراسته حتى يكون الهروب ضرباً من المحال . وكان الموقف بهذه الصورة ، سلم بولس إلى رئيس المعسكر انتظاراً للمحاكمة أمام الامبراطور ، وسمح له أن يتخذ مسكناً خاصاً به ولكن السلسلة كانت تربط يده بيد الجندى ليلا ونهاراً . ولابد أن عدداً من الجنود كانوا يتناوبون بالطبع القيام بهذا الواجب . وظل بولس على هذا الوضع سنتين طويلتين . ويالها من فرصة ممتعة سنحت لبولس ! فقد كان هؤلاء الجنود يسمعون أحاديث بولس ومواعظه إلى أصدقائه . وهل كان هناك شك فى أن بولس يفتح باب المناقشة كل هذه الساعات الطوال مع الجندى المنوط بحراسته عن يسوع المسيح ؟ إن سجن بولس قد فتح الطريق للكرازة بالإنجيل أمام هذه الفرقة المنتخبة من الجيش الرومانى . ولا عجب أن يعلن بولس أن سجنه قد آل إلى تقدم الإنجيل إذ أن كل جنود الحرس الامبراطورى قد عرفوا لماذا سجن بولس . ولاشك أن كثيرين منهم قد آمنوا بالمسيح . ولقد أعطى هذا المنظر المؤثر شجاعة للإخوة فى فيلبى ليكرزوا بالإنجيل ويشهدوا للمسيح بلا خوف .

إن قيود بولس قد أزالت الحواجز وقدمت فرصة مؤاتية للحديث إلى زهرة الجيش الرومانى ، كما أن قيود بولس كانت دواء الشجاعة للإخوة فى فيلبى .

الكرازة هي الأمر المهم

أَمَّا قَوْمٌ فَعَنْ حَسَدٍ وَخِصَامٍ يَكْرِزُونَ بِالْمَسِيحِ وَأَمَّا قَوْمٌ فَعَنْ مَسَرَّةٍ . فَهؤُلاءِ عَنْ تَحَزُّبٍ يُنَادُونَ بِالْمَسِيحِ لا عَنْ إِخْلاَصٍ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إِلَى وُثُقِي ضِيقًا . وَأُولئِكَ عَنْ مَحَبَّةٍ عَالِمِينَ أَنِّي مَوْضُوعٌ لِحِمَايَةِ الإِنْجِيلِ . فَمَاذَا . غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ سَوَاءٌ كَانَ بِعِلَّةٍ أَمْ بِحَقٍّ يُنَادَى بِالْمَسِيحِ وَبِهذَا أَنَا أَفْرَحُ . بَلْ سَأَفْرَحُ أَيْضًا .

(فيلبي ١ : ١٥ — ١٨)

إن قلب بولس العظيم يتحدث إلينا من خلال هذه السطور . كان سجنه محفزاً الكثيرين على الكرازة بالإنجيل ولكن هذا الحافز اتجه فى طريقين مختلفين . إن أحباءه عندما رأوه سجيناً ضاعفوا جهودهم فى الكرازة بالإنجيل حتى لا يخسر الإنجيل شيئاً بسبب سجن بولس . لقد عرفوا أن أفضل طريق لجلب السرور إلى قلبه هو أن لا يتأثر العمل بسبب غيابه الذى لا مناص منه . لكن كان هناك فريق آخر يحركه الحسد والخصام للكرازة بالإنجيل . كانو مدفوعين إلى العمل بباعث التحزب . والكلمة المستعملة للتحزب ليست فى أصلها كلمة رديئة . فقد كانت تعنى بوساطة العمل لأجل الأجر . لكن الرجل الذى يعمل مدفوعاً فقط بدافع الأجر يعمل بباعث رخيص جـــداً . فهو يعمل لأجل منفعته الخاصة فقط . وفى سبيل الوصول إلى أغراضه ورغبته فى الارتفاع على الآخرين . وأصبحت الكلمة وصفاً لمن يعمل فقط لمصلحته الخاصة ولكى يكون له مقام بين الناس ، واتصلت بالسياسة والمهارة السياسية والطموح الشخصى والتنافس فى سبيل علو المكانة بغض النظر عن الوسائل المستعملة للوصول إلى غرضه .

وهكذا وجد هؤلاء القوم الذين انتهزوا فرصة سجن بولس وضاعفوا نشاطهم لأنهم توهموا أن سجن بولس فرصة مرسلة لهم من السماء لبسط نفوذهم وإعلاء كلمتهم وإبراز حزبهم الكنسي وإضعاف أصدقاء بولس .

ولا يجب أن يخطر ببالنا أن هؤلاء الذين يكرزون هكذا هم هراطقة أو متهودون أرادوا أن يرجعوا بالمسيحيين إلى الطقوس اليهودية . فما كان لبولس أن يستحسن هذا إطلاقا . لقد أرادوا فقط بكرازتهم أن يرفعوا من مقامهم ويلاشوا تأثير بولس حينما كان فى السجن .

وهنا درس كبير لنا. إن بولس لم يكن به شيء من الغيرة أو الكرامة الشخصية. وطالما كان المسيح يكرز به فلم يعبأ بولس بمن يحوز الكرامة والمقام والنفوذ . ولم يلتفت إلى ما يقوله الكارزون الآخرون عنه . ولم يحز فى نفسه الموقف العدائى الذى كانوا يقفونه منه . كان كل اهتمامه أن المسيح ينادى به . وكثيراً جداً ما نغتاظ لأن شخصاً آخر ينال الشهرة أو المقام الذى لا نناله نحن . وكثيراً ما نحسب شخصاً ما عدواً لنا لأنه انتقدنا أو انتقد طرقنا فى الخدمة . وكثيراً ما نحكم على شخص أنه لا يجنى خيراً من عمله لأنه لا ينهج الطريقة التى نسير عليها نحن . فالعقليون لا يتعاملون مع الروحيين . والذين يعتقدون فى التجديد البطيء عن طريق التربية الكنسية ليس لهم مكان عند الذين يعتقدون فى التجديد السريع الحاسم. ويقف بولس أمامنا مثالا عظيما فى هذا الأمر . كان خالياً من الذات والأنانية . ورفع أمر التبشير بالمسيح فوق الأغراض الشخصية . وكل ما كان يهمه هو أن المسيح ينادى به . هذا هو الأمر البالغ الأهمية .

النهاية السعيدة

لِأَنِّى أَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا يَؤُولُ لِى إِلَى خَلَاصٍ بِطَلْبَتِكُمْ وَمُؤَازَرَةِ رُوحِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ . حَسَبَ انْتِظَارِى وَرَجَائِى أَنِّى لَا أُخْزَى فِى شَيْءٍ بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِى كُلِّ حِينٍ كَذٰلِكَ الْآنَ يَتَعَظَّمُ الْمَسِيحُ فِى جَسَدِى سَوَاءٌ كَانَ بِحَيٰوةٍ أَمْ بِمَوْتٍ .

(فيلبى ١ : ١٩ ، ٢٠)

إن عقيدة بولس الجازمة أن كل الموقف المحيط به سيؤول أخيراً إلى خلاصه . وحتى سجنه ، وكرازة أعدائه ومنافسيه ستتحول أخيراً إلى خلاصه . فماذا يقصد بقوله « خلاصى » الكلمة هى « سوتيريا » ويحتمل أن لها ثلاثة معان .

١ — المعنى الأول هو الأمان والنجاة . أى أن بولس يريد أن يقول إنه واثق تمام الثقة أن كل هذا سينتهى أخيراً بإطلاق سراحه من السجن . ولكن القرينة تنفى هذا المعنى إذ أن بولس يمضى فى قوله إنه ليس على يقين من الحياة أو الموت .

٢ — والمعنى الثانى هو الخلاص فى السماء . وفى هذه الحالة يقصد بولس أن يقول إن المسلك الذى اتخذه مع أعدائه سيكون شاهداً له فى اليوم الأخير . وهذا حق عظيم ، فالموقف الذى يقفه الإنسان لا يؤثر فى الزمن الحاضر فقط بل يمتد تأثيره إلى الأبدية . وأى موقف يقفه الإنسان ، لا ينال فقط حكم الناس بل حكم الله له أو عليه . وأى اتجاه نتجه بإزاء الظروف ، والفرص ، والتحديات ، والمشاكل سيكون شاهداً لنا أو ضدنا فى الأبدية .

٣ — لكن الكلمة «سوتيريا» قد تحمل أيضاً معنى أوسع من المعنيين السابقين . فقد تعنى الصحة والخير الشامل الأعم . وقد يقصد بولس أن يقول إن كل هذا الذى يحدث له فى هذا الموقف البالغ الصعوبة هو أفضل الأشياء له فى الحياة الحاضرة والحياة الأبدية . ولعله يقصد أن يقول : إن الله قد وضعنى فى هذا الموقف ، والله يقصد من وراء كل هذه المشاكل والصعوبات أن يجعل منى إنساناً سعيداً ونافعاً فى الحياة الحاضرة ، وأن يحول كل شىء إلى فرحى وسلامى فى الحياة الأبدية . وهذا مقصود به خيرى الأسمى فى هذا العالم وفى العالم الآتى . ونحن نفعل حسناً إذا كنا نذكر أن أى تحد يسمح به الله لتقويتنا وبناء حياتنا .

وفى هذا الموقف يعلم بولس أن له سندين عظيمين .

١ — السند الأول هو سند الصلاة لأجله من أصدقائه . إن أجمل الأشياء فى رسائل بولس أن يطلب من أحبائه المرة بعد المرة أن يصلوا من أجله . فهو يكتب إلى الإخوة فى تسالونيكى قائلا : «أيها الإخوة صلوا لأجلنا» (١ تس ٥ : ٢٥) ويقول لهم أيضاً : « أخيراً أيها الإخوة صلوا لأجلنا لكى تجرى كلمة الرب » (٢ تس ٣ : ١ ، ٢) ويقول لأهل كورنثوس : « وأنتم أيضاً مساعدون بالصلاة

لأجلنا » (٢ كو ١ : ١١) ويكتب إلى فليمون راجياً أنه بواسطة صلواته يعود إلى أصدقائه (فليمون ٢٢) وقبل أن يبدأ رحلته الخطيرة إلى أورشليم يكتب إلى الكنيسة فى رومية طالباً منهم أن يجاهدوا معه فى الصلوات من أجله إلى الله (رو ١٥ : ٣٠ — ٣٢) . إن بولس لم يكن أبداً أكبر من أن يذكر لأصدقائه أنه محتاج إلى صلواتهم ولم يقف أبداً موقف المتعالى عليهم ولم ينظر أبداً إلى الناس كأنهم لايستطيعون أن يفعلوا شيئاً وأنه يستطيع أن يفعل كل شيء . لقد كان دائماً يذكر أنه لا هو ولا أصدقاؤه يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بدون معونة الله . وهنا نجد شيئاً جديراً بالذكر . فعندما يكون أناس تحت وطأة الحزن وقلوبهم منكسرة ، يكون من أعظم تعزياتهم شعورهم بأن آخرين يحملونهم فى الصلاة أمام عرش النعمة . وعندما يواجه أناس مجهوداً يكسر الظهر أو قراراً يكسر القلب ، تسرى إليهم قوة جديدة إذا عرفوا أن إخوة لهم يذكرونهم أمام الله . وعندما يبتعد الناس عن بيوتهم أو يهاجرون إلى بلاد جديدة لم يألفوها من قبل ، يجدون أكبر سند عند معرفتهم أن صلوات الأحباء تعبر البر والبحر لتأتى بهم أمام عرش النعمة . ونحن لانقدر أن ندعو إنساناً صديقاً لنا — ولا نقدر أن ندعو أنفسنا أصدقاء له — مالم نصل من أجله . »

٢ — ويعلم بولس أن له سنداً آخر — وأنعم به من سند — هو الروح القدس. إن حضور الروح القدس هو إتمام الوعد الذى نطق به يسوع أن يكون معنا ملازماً لنا كل الأيام إلى انقضاء الدهر .

وفى كل هذا الموقف ليس لبولس إلا انتظار واحد ورجاء واحد . والكلمة التى يستعملها للتعبير عن الانتظار كلمة قوية ، وهى كلمة غير عادية لم يستعملها أحد قبل بولس ويجوز أنه صاغها بنفسه والمعنى الحرفى لهذه الكلمة هو : النظرة المركزة بشغف وتطلع إلى من ترغب دون أن تحيد عنه هذه النظرة يمنة أو يسرة . إن رجاء بولس أن لايكون أبداً فى صمت مخجل . وأن شيئين قد يخجلان بولس فيصمت ولا يؤدى الشهادة للمسيح فى وقتها . الشيء الأول هو الجبن الذى يجعله يصمت فى الوقت الذى يجب فيه أن يتكلم .

والشيء الثانى هو الفشل فى عمله فقد يسلبه حق الكلام . لكن بولس واثق تمام الثقة أنه فى المسيح سيجد الشجاعة فلا يخجل أبداً من الانجيل . وأنه بفضل بركة

المسيح على مجهوداته سيكون ناجحاً ومثمراً. إن انتظار بولس هو أنه سيوهب الشجاعة فى الكلام. ويقول « لايتفوت » « إن حق الكلام بحرية مطلقة هو الشعار والامتياز لكل خادم للمسيح » وقول الحق بشجاعة ليس فقط امتياز خادم المسيح بل هو أيضاً واجبه فى كل الظروف والأحوال.

ولهذا فإن بولس إذا انتهز هذه الفرصة السانحة وتكلم بشجاعة وتأثير، فستكون النتيجة حتماً أن يتمجد المسيح. ولا يهمه فى شيء كيف تسير الأمور معه. إذا مات سيوضع على هامته تاج الشهيد. وإذا عاش سيكون له الامتياز العظيم أن يكرز ويشهد للمسيح. وكما يقول « اليكوت » قولا نبيلا فى هذا الصدد « إن بولس يريد أن يقول : «إن جسدى سيكون مسرحاً يعرض فيه مجد المسيح» وهنا تضح المسئولية الكبرى فى عنق كل مسيحى. فمن يوم أن نختار المسيح ونصير أعضاء فى كنيسته فنحن بحياتنا وسلوكنا نجلب إما المجد أو العار على المسيح. إن الزعيم يحكم له أو عليه دائماً من مسلك أتباعه. والمسيح يحكم له أو عليه — يتعظم أو يهان — بسببنا. فماذا نحن فاعلون ؟ وأى أناس يجب أن نكون ؟

فى الحياة والممات

لِأَنَّ لِيَ ٱلْحَيٰوةَ هِيَ ٱلْمَسِيحُ وَٱلْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. وَلٰكِنْ إِنْ كَانَتِ ٱلْحَيٰوةُ فِي ٱلْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي فَمَاذَا أَخْتَارُ لَسْتُ أَدْرِي. فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ ٱلٱثْنَيْنِ. لِيَ ٱشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ ٱلْمَسِيحِ. ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا. وَلٰكِنْ أَنْ أَبْقَى فِي ٱلْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ. فَإِذْ أَنَا وَاثِقٌ بِهٰذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَمْكُثُ وَأَبْقَى مَعَ جَمِيعِكُمْ لِأَجْلِ تَقَدُّمِكُمْ وَفَرَحِكُمْ فِي ٱلْإِيمَانِ.

لِكَىْ يَزْدَادَ افْتِخَارُكُمْ فِى الْمَسِيحِ يَسُوعَ فِىَّ بِوَاسِطَةِ حُضُورِى أَيْضًا عِنْدَكُمْ .

(فيلبى ١ : ٢١ — ٢٦)

منذ أن ألقى بولس فى السجن متوقعاً المحاكمة كان عليه أن يواجه الحقيقة وهى أنه لايعرف إن كان سيعيش أو سيموت . وكان كلا الأمرين على حد سواء بالنسبة له .

ويقول فى تعبيره العظيم « لى الحياة هى المسيح » .

وكان المسيح لبولس **بدء الحياة** لأنه فى ذلك اليوم التاريخى وهو فى طريقه إلى دمشق كان كأنه ولد من جديد — كأنه ابتدأ الحياة مرة ثانية . وكان المسيح لبولس **استمرار الحياة** . ولم يمض على بولس يوم واحد لم يختبر فيه حضور الرب وفى اللحظات المرعبة من حياته كان المسيح هناك يقويه ويشجعه (أعمال ١٨ : ٩ ، ١٠) .

وكان المسيح لبولس **غاية الحياة** لأن حياته كانت تتجه دائماً نحو حضور المسيح الأبدى .

وكان المسيح لبولس **الهام الحياة** . كان المسيح القوة الدافعة والدينامو المحرك نحو الحياة الأفضل .

وأعطى المسيح لبولس **مهمة الحياة** لأن المسيح هو الذى جعله رسولا وهو الذى أرسله مبشراً للأمم .

وأعطى المسيح لبولس **قوة الحياة** لأن نعمة المسيح الكافية هى التى جعلته قوياً فى ضعفه .

وكان المسيح لبولس **مكافأة الحياة** لأن المكافأة الوحيدة فى نظر بولس أن تزداد شركته تعمقاً مع سيده وربه . ولو أخذ المسيح من حياة بولس لم يبق أمامه

شيء آخر يعيش من أجله ولم يكن المسيح فى نظر بولس أقل من الحياة نفسها .

ثم يقول بولس « والموت هو ربح » ولم يكن الموت إلا دخولا إلى حضور المسيح الأقرب . وهناك آيات ينظر فيها بولس إلى الموت على اعتبار أنه رقاد — بالنسبة للجسد — يستيقظ منه جميع الناس عند القيامة العامة المقبلة (١ كو ١٦ : ٥١ ، ٥٢ و ١ تس ٤ : ١٤ ، ١٦) لكن الموت بالنسبة للروح ليس رقاداً بل دخولا مباشراً إلى محضر الرب . وإذا كنا نؤمن بالرب يسوع يكون الموت لنا اتحاداً بالمسيح وجمع الشمل مع الأحباء الذين خسرناهم فترة قصيرة من الزمن .

وكانت نتيجة هذه النظرة المشجعة إلى الموت ، أن بولس وجد نفسه ميالا إلى رغبتين . وهو على حد تعبيره « محصور من الإثنين » والكلمة التى يستعملها بولس للحصار هى الكلمة التى تستعمل للمسافر الذى يسير فى ممر ضيق بين سور صخرى من هذا الجانب وسور صخرى من الجانب الآخر . وهو لايستطيع أن يتحرك إلى أى جانب . وبالجهد يقدر أن يتقدم فى طريقه إلى الأمام . وهذا كان شعور بولس بالضبط . فهو من جهته يرغب بتلهف أن يكون مع المسيح . وأما من جهة أصدقائه وما يستطيع أن يعمله معهم ولأجلهم يرغب أن يبقى على قيد الحياة .

وعندئذ ينجلى الموقف أمامه فيفوض أمره إلى الله ويقول إن الاختيار ليس له بل للرب ، ولم يعط له أن يقول ما يريد أن يفعله لأنه يقدر فقط أن يفعل مايريده له الله أن يفعله .

أما عن الانطلاق فيقول بولس « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » وللإنطلاق يستعمل كلمة تحمل معها ثلاث صور :

١ — الصورة الأولى للكلمة هى صورة الخيمة وهى تطوى وترخى حبالها وتقتلع أوتادها ويشرع فى المسير . وهكذا الموت هو انطلاق . ويقال إنه فى الأيام الرهيبة أثناء الحرب العالمية الأولى كان السلاح الجوى الانجليزى يقف بين بلاده والدمار ، وكانت حياة الطيارين تقدم على مذبح الفداء للوطن ، لم يكن يقال عن واحد منهم إنه مات بل انتقل إلى مركز آخر . إن مسيرة كل يوم تزيدنا قرباً إلى الوطن السماوى إلى أن تطوى خيمتنا من هذا العالم نهائياً وتستبدل ببيت أبدى فى ديار المجد .

٢ — والصورة الثانية للموت هى صورة سحب حبال السفينة الراسية ورفع المرساة والشروع فى الانطلاق . والموت ما هو إلا إقلاع السفينة نحو خضم عميق وانطلاق الرحلة إلى الميناء الأبدى وإلى الله .

٣ — والصورة الثالثة للموت هى صورة الحلول الأخيرة للمشاكل . إنما الموت هو الذى يقدم لنا الحل الأخير لمشاكل الحياة . هناك فى الأبدية يوجد لنا مكان نجد فيه جواباً لكل أسئلة الأرض ، ونلقى حلا موفقاً مريحاً لكل المشاكل المحيرة . إن جميع الذين انتظروا وصبروا سيفهمون أخيراً كل شىء .

ويعتقد بولس اعتقاداً جازماً أنه إذا قدّر له أن يعيش فسيمكث ويبقى مع جميعهم لأجل تقدمهم وفرحهم فى الإيمان . والكلمتان للمكوث والبقاء تفيدان الانتظار بروح الاستعداد والرغبة للمساعدة المستمرة طول الوقت . إن رغبة بولس فى الحياة ليست لمنفعته الشخصية بل لمصلحة الذين يستطيع بحياته أن يقدم لهم كل معونة ممكنة .

وهكذا إذا أراد الرب لبولس أن يأتى إليهم ويراهم ثانية فسيكون لهم فيه أسس قوية للافتخار فى يسوع المسيح . أو بعبارة أخرى سيكونون قادرين للتطلع إلى بولس ليروا فيه ما يستطيع المسيح أن يعمله لإنسان أن يثق فيه ثقة مطلقة . إن بولس سيكون مثلا لامعاً لما يقدر إنسان أن يعمله بنعمة المسيح فى مواجهة أسوأ الظروف ويخرج منها منتصراً شجاعاً . وإنه لواجب كل مسيحى أن يثق ويحيا على هذا المنوال حتى يتسنى للناس أن يروا فيه ما يستطيع المسيح أن يفعله لإنسان يكرس حياته له تمام التكريس .

مواطنو الملكوت

فَقَطْ عِيشُوا كَمَا يَحِقُّ لِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ حَتَّى إِذَا جِئْتُ وَرَأَيْتُكُمْ أَوْ كُنْتُ غَائِبًا أَسْمَعُ أُمُورَكُمْ أَنَّكُمْ تَثْبُتُونَ فِي رُوحٍ وَاحِدٍ مُجَاهِدِينَ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ لِإِيمَانِ الْإِنْجِيلِ . غَيْرَ

مُخَوَّفِينَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُقَاوِمِينَ الأَمْرُ الَّذِى هُوَ لَهُمْ بَيِّنَةٌ لِلْهَلاَكِ وَأَمَّا لَكُمْ فَلِلْخَلاَصِ وَذَلِكَ مِنَ اللهِ . لأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ . إِذْ لَكُمُ الْجِهَادُ عَيْنُهُ الَّذِى رَأَيْتُمُوهُ فِيَّ وَالآنَ تَسْمَعُونَ فِيَّ .

(فيلبى ١ : ٢٧ — ٣٠)

شىء واحد جدير بالاهتمام بغض النظر عما يحدث لهم أو لبولس . على هؤلاء الفيلبيين أن يعيشوا كما يحق لإيمانهم واعتقادهم . ومعنى هذه العبارة « ليكن كل تصرفكم لائقاً بأناس قد ارتبطوا فى عهد مقدس مع المسيح » لكنه فى هذه المناسبة يستعمل كلمة قلما يستعملها للتعبير عما يقصده ولتصوير الصورة التى يريد إبرازها . فهو عادة فى أحاديث مماثلة يستعمل كلمة معناها « السلوك اللائق » أما فى هذه المرة فهو يستعمل كلمة معناها « المواطن الصالح » . وكان بولس يكتب من عاصمة الإمبراطورية الرومانية أى من مدينة رومية نفسها . وكان بفضل الجنسية الرومانية أن صار من حقه أن يذهب إلى هناك ليستأنف الحكم الصادر ضده فى أورشليم . وكانت فيلبى مستعمرة رومانية . وكانت المستعمرات الرومانية أجزاء من مدينة رومية نفسها . وفى المستعمرات الرومانية لم ينس المواطنون الرومان أبداً أنهم يتمتعون بالجنسية الرومانية ويفخرون بها . فكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ويرتدون الأزياء اللاتينية ، ويدعون حكامهم بأسماء لاتينية لأنهم كانوا يتباهون فى إصرار وعناد على أنهم رومان لحماً ودماً مهما باعدت بينهم المسافات من مدينة رومية وكأنى ببولس يقول تعرفون جيداً أنه حتى فى فيلبى وهى تبعد عن رومية أميالا عديدة لكن يتحتم عليكم أن تعيشوا أو تتصرفوا كما يعيش أهل رومية . وعلى هذا القياس اذكروا أن عليكم واجباً أعلى من هذا بكثير وحيثما تكونوا يجب أن تعيشوا كما يليق بمواطن ملكوت الله . وينبغى ألا تنسوا أبداً امتيازات ومسئوليات هذه الجنسية — لا جنسية رومية بل جنسية ملكوت الله . وعلى المسيحى إذن أن يذكر

على الدوام المملكة التى هو مواطن فيها . ويجب أن يتفق تصرفه مع هذه الجنسية السماوية . ماذا ينتظر منهم بولس إذن ؟

ينتظر منهم أولا — ثباتاً « أسمع أموركم أنكم تثبتون » . إن العالم ملىء بالمسيحيين المتقهقرين إلى الوراء . وعند ما تكون المسيحية صعبة يخفون مسيحيتهم . أما المسيحى الحقيقى فإنه يظل ثابتاً فى موقفه لايحيد عنه ولايخجل منه أمام أى نوع من الرفاق .

وهو ينتظر منهم — ثانياً — اتحاداً « فيجب عليهم أن يرتبطوا معاً بروح واحد مثل رابطة الإخوة . ليتنازع العالم وليحارب وليتصارع وليدخل فى لجاج واختلاف . أما المسيحيون فيجب أن يكونوا واحداً « فى روح واحد . . . بنفس واحدة » .

وهو ينتظر منهم — ثالثاً — ظفراً لايقهر ولا يغلب « مجاهدين معاً . . . لإيمان الإنجيل » فلا يجب عليهم أبداً أن يفشلوا فى جهاد الإيمان . ويبدو الشر أحياناً أنه فوق الهزيمة . ويظهر أحياناً أنه من رابع المستحيلات أن يقهر المسيحى الشر ويجاهد ضد الخطية . لكن ما هذه إلا أوهام لاتلبث أن تتبدد أمام قوة الإيمان . إن المسيحى لايجب عليه أبداً أن يفقد الرجاء فى جهاده . على المسيحى أن يحارب وأن يستمر محارباً بلا ضعف أو وهن لأجل المسيح .

وينتظر منهم — رابعاً — شجاعة هادئة «غير مخوفين بشىء من المقاومين» عند اشتداد الأزمات قد يضعف الآخرون ويصبحون عصبيى المزاج تنتابهم المخاوف ويستبد بهم القلق ويكونون كريشة فى مهب الرياح ولكن فى أوقات كهذه يظل المسيحى هادئاً متزناً مالكاً روحه ممسكاً بزمام الموقف .

وإذا استطاعوا أن يكونوا بهذه الصفات ضربوا أروع الأمثلة التى تجعل الوثنيين يهجرون دياناتهم ويثورون على طريقهم الخاص فى الحياة ، ويتأكدون أن المسيحيين لديهم شىء لا يملكونه ويفتشون عليه باجتهاد حتى يجدوه .

ولا يوعز بولس إليهم أن هذه الحياة ستكون سهلة عليهم . إذ قد رأوا بعيونهم كيف دخلت المسيحية إلى فيلبى لأول مرة . لقد شاهدوا بولس وهو يحارب

حروبه . ورأوه وهو يجلد ويسجن لأجل الإيمان (أعمال ١٦ : ١٩) وهم يعلمون ما يجتازه الآن من صنوف المحن وألوان التجارب لكن ليذكروا أن أى قائد حربى يختار أفضل جنوده لأصعب معاركه . وهذا شرف عظيم لنا أن نقاسى شيئاً لأجل المسيح . هناك قصة فرنسية تروى عن محارب فرنسى قديم جاء إلى جندى شاب يرتعد خوفاً من موقف يائس فقال له المحارب المحنك « تعـــال ياابنى إلى جانبى لنعمل معاً — أنت وأنا — عملا مجيداً لفرنسا » وهكذا يقول بولس للفيلبيين « إن الحرب دائرة بالنسبة لكم ولى فلنعمل معاً عملا مجيداً للمسيح » .

الأَصْحَاحُ الثَّانِي

أسباب الإنقسام

فَإِنْ كَانَ وَعْظٌ مَا فِي الْمَسِيحِ إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةٌ مَا لِلْمَحَبَّةِ إِنْ كَانَتْ شَرِكَةٌ مَا فِي الرُّوحِ إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءٌ وَرَأْفَةٌ . فَتَمِّمُوا فَرَحِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ مُفْتَكِرِينَ شَيْئًا وَاحِدًا لا شَيْئًا بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ بَلْ بِتَوَاضُعٍ حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ . لا تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضًا .

(فيلبى ٢ : ١ — ٤)

إن الخطر الوحيد الذى هدد كنيسة فيلبي كان خطر الانقسام . وهناك إحساس أن هذا هو الخطرالذى يواجه كل كنيسة قوية سليمة البنيان . فعندما يكون الأعضاء عاملين بجد ونشاط ، وعقائدهم جزء لا يتجزأ من كيانهم الروحى ، ولهم شوق لتنفيذ خططهم المرسومة ، عندئذ يتعرضون لقيام أحدهم ضد الآخر . وكلما إزداد الحماس إزداد الخطر بتصادمهم معاً . ولهذا يرغب بولس أن يحصن أصدقائه ضد هذا الخطر .

وفى العددين الثالث والرابع يعطينا الرسول الأسباب الثلاثة العظيمة للشقاق والانقسام .

١ — السبب الأول هو الطموح الأناني . وهذا هو الخطر الداهم عند ما يعمل الناس لا لتقدم العمل بل لتقدمهم الشخصى .

وإنه لشيء رائع حقاً أن نذكر أن أفراد الكنيسة الذين يشار إليهم بالبنان كانوا يتنحون عند دعوتهم لتقلد المناصب الكبيرة لشعورهم العميق بعدم جدارتهم . فلقد كان « أمبروز » علماً كبيراً من أعلام الكنيسة الأولى . كان عالماً عظيماً ، وكان الحاكم الرومانى الإقليمى لبجوريا وإميليا ، وحكم الإقليميين بعناية وعطبة مما جعل الناس يعتبرونه أباً لهم . وعندما مات أسقف الأبروشية أثيرت مشكلة من يقوم خلفاً له . وفى وسط النقاش سمع صوت صبى صغير يقول « أمبروز ! أسقف أمبروز أسقف ! » ، ووافق الجميع على هذا الصوت أما أمبروز فلم يخطر له هذا المنصب على بال . وعندما وصلت إليه الأنباء هرب ليلا ليتجنب هذا المركز العظيم الذى قدمته له الكنيسة . وعن طريق تدخل الإمبراطور نفسه رضخ أخيراً إلى قبول منصب أسقف ميلان .

ومثال آخر نجده فى حياة « يوحنا نوكس » فعندما وقف الواعظ « جون روف » على منبر كنيسة القديس اندراوس ، ودعا يوحنا نوكس إلى الخدمة ، ارتعب نوكس وهاله الأمر . وفى كتابه « تاريخ الإصلاح » يقول هو عن نفسه فى هذه اللحظة ارتبك المدعو يوحنا نوكس وانفجر فى البكاء بدموع غزيرة وانزوى فى غرفته الخاصة . ومن ذلك اليوم إلى اليوم الذى اضطر فيه للوقوف على منبر الوعظ ، كانت ملامح وجهه وتصرفاته الشخصية تنبىء عن أحزان ومتاعب قلبه فلم ير فيه أحد أية علامة للغبطة والارتياح . ولم يسر باجتماعه مع أى إنسان . وظل على هذه الحال أياماً طويلة .

إن العظماء بحق — فضلا عن بعدهم عن الطموح الأنانى — يغمرهم إحساس عميق بعدم أهليتهم وعدم كفايتهم لملء المراكز الكبيرة . هم أبعد الناس عن التحزب النفسانى والطموح الأنانى .

٢ — والسبب الثانى للانقسام هو العجب بالنفس الذى يدفع إلى طلب المقام الرفيع والرغبة فى المجد الزائل . ومرات كثيرة يصدق القول إن شهوة الرآسة عند كثيرين تجربة أشد من تجربة المال ، وعند عدد كثير من الناس رغبة ملحة وشهوة

جامحة فى نوال الإعجاب والظفر بالاحترام والتوقير والفوز بمنبر كبير ، وأن يكون لهم رأى مسموع ، وأن يعرفوا بأسمائهم ومظهرهم ، وأن يصغى الجميع إلى أفواههم ، وأن يصلوا إلى درجة كبيرة من الشهرة ولو عن طريق التملق والمداهنة . لكن هدف المسيحى ليس إظهار النفس بل إخفاء النفس . وعندما يقوم بأعمال حسنة لا ينتظر تمجيداً من الناس بل ينتظر تمجيد الناس لأبيه الذى فى السموات . إن المسيحى لايرغب أن تركز الأنظار نحوه بل يرغب أن تسلط الأضواء كلها نحو إلهه . إنه يضيء بنور ساطع لكن هذا النور ليس نوراً شخصياً نابعاً منه بل هو نور الله الذى يشير فيه .

٣ — والسبب الثالث للإنقسام هو التركيز على الذات . وإذا كان الإنسان يضع ذاته فى الاعتبار الأول ويهمه أولا وقبل كل شيء مصالحه الخاصة ، فهو معرض للاصطدام مع الآخرين . وإذا كانت الحياة عند إنسان عبارة عن تنافس على جوائز يجب أن يفوز بها هو دون سواه ، وإذا كان ينظر إلى الحياة على اعتبار أنها صراع وتشاحن للانتصار على الآخرين وليكون دائماً فى أعلى مقام ؛ فإنه يخلق لنفسه أعداء أو على الأقل معارضين ، ويعمل جاهداً لإبعادهم لفسحوا له الطريق . إن التركيز على الذات واعتبارها محور الدائرة فى التفكير والعمل يقوده حتما إلى محاولة إخفاء الآخرين فلا يكون لهم وجود معه ويكون غرض الحياة فى هذه الحالة لا مساعدة الآخرين بل تجاهلهم والتطويح بهم .

وحيثما يوجد الطموح الأنانى . والرغبة للمجد الشخصى ، والشهوة العارمة فى التركيز على المصالح الشخصية وتجاهل مصلحة الآخرين ، فلا يمكن أن يكون بين الإخوة إلا التفرقة والانقسام .

علاج الانقسام

فيلبى ٢ : ١ — ٤ (تابع)

فى مواجهة خطر الانقسام يضع بولس خمسة اعتبارات أو نداءات لابد منها لتمنع كل شقاق وانقسام .

١ — إن اتحادنا جميعاً بالمسيح يجب أن يحفظنا فى اتحاد مع بعضنا البعض .

فلا يستطيع إنسان أن يسلك فى انقسام مع إخوته وفى نفس الوقت يكون له اتحاد مع المسيح . وإذا اختار إنسان المسيح رفيقاً لحياته ، فإنه حتماً رفيق لكل إخوته . ولا يستطيع إنسان أن يعيش فى جو المسيح وهو يعيش فى حقد ومرارة مع إخوته . إن علاقات الإنسان بإخوته ليست دليلا ضعيفاً على علاقته بيسوع المسيح بل إنها تدل أقوى الدلالة على عمق ومتانة صلته بالرب يسوع .

٢ — إن قوة المحبة المسيحية تحفظنا فى اتحاد وارتباط مع أحدنا الآخر . إن المحبة المسيحية هى المشاعر الطيبة والنية الحسنة التى لاتعرف أبداً المرارة ولا تطلب شيئاً إلا الخير للآخرين . المحبة المسيحية ليست مجرد تفاعل مع الآخرين كالمحبة البشرية . إنها انتصار الإرادة التى يتم بمعونة المسيح . وليس معناها فقط أن نحب الذين يحبوننا ، أو الذين نميل إليهم بطبيعتنا ، أو الذين يستحقون المحبة . إنها تعنى نية حسنة لا تقهر نحو الجميع حتى الذين يكرهوننا . إنها القوة على محبة الذين لانحبهم ولا نميل إليهم . إنها القدرة المسيحية على محبة غير المحبين وغير المحبوبين . وهنا يكمن جوهر الحياة المسيحية . وهنا يستقر العنصر الأساسى الذى يؤثر فينا تأثيراً يبقى مدى الحياة ويمتد إلى الأبدية . ويقول «ريتشارد تاتلوك» فى كتابه « فى بيت أبى» إن جهنم هى الحالة الأبدية للذين جعلوا العلاقة بالله وعلاقتهم بالناس أمراً مستحيلا بواسطة حياتهم التى دمرت المحبة. أما السماء فهى — من الجانب الآخر — الحالة الأبدية لأولئك الذين وجدوا الحياة الحقة فى علاقات المحبة مع الله ومع إخوتهم »

٣ — إن حقيقة شركتنا مع الروح القدس يجب أن تحفظنا من الانقسام . إن الروح القدس هو الذى يربط الإنسان بالله . ويوحد الإنسان بأخيه الإنسان . هو الروح الذى يعلن لنا ما يريد الله منا أن نفعله . هو الروح الذى يسكب محبة الله فى قلوبنا . هو الروح الذى يقدرنا على حياة المحبة التى هى حياة الله . وإذا عاش إنسان فى انقسام مع إخوته فقد أعطى الدليل على أن عطية الروح القدس ليست فيه .

٤ — إن وجود العواطف البشرية يجب أن تحفظ الناس من الانقسام . قال الفيلسوف القديم « أرسطو » إن الناس لم يخلقوا ليكونوا ذئاباً تكشر عن أنيابها نحو بعضها البعض بل خلقوا ليعيشوا فى شركة حبية معاً . إن الانقسام يفتت كيان الحياة نفسها .

٥ — ونداء بولس الأخير هو النداء الشخصى . فلن تكون له سعادة طالما يعلم أن هناك انقساماً فى الكنيسة العزيزة عليه . إذا أرادوا أن يتمموا فرحه فليجعلوا شركتهم مع بعضهم البعض تامة غير ناقصة فى شىء . وليس كلام بولس إلى المسيحيين فى فيلبى صادراً عن تهديد لأنه من النادر جداً أن يهدد الراعى المسيحى أو يتوعد . إنه يقدم لهم نداء المحبة التى يجب أن تكون النغمة الغالبة فى الراعى كما كانت النغمة الغالبة فى حياة سيده .

اللاهوت الحقيقى والناسوت الحقيقى

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هٰذَا الْفِكْرُ الَّذِى فِى الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا . الَّذِى إِذْ كَانَ فِى صُورَةِ اللهِ لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلّٰهِ . لٰكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ صَائِراً فِى شِبْهِ النَّاسِ . وَإِذْ وُجِدَ فِى الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ ، لِذٰلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضًا وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ . لِكَىْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِى السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ . وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ .

(فيلبى ٢ : ٥ — ١١)

فى الحقيقة أن هذا الفصل هو أعظم وأروع ماكتبه الرسول بولس عن يسوع . وهو هنا يسجل فكراً محبباً لديه كان قد وضع خلاصته فى ٢ كو ٨ : ٩ « فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو غنى لكى تستغنوا أنتم بفقره » لكنه فى هذا البيان الرائع يتوسع فى شرح فكره بأسلوب لا يبارى فى ملئه وغناه .

إن بولس يلتمس من الفليبيين أن يعيشوا فى اتحاد وانسجام ، ويطرحوا جانباً كل انشقاق وانقسام ، وينزعوا من قلوبهم المطامع الشخصية ، والكبرياء ، والرغبة فى التسلط والتعالى ، ويعيشوا بروح التواضع الخالى من الأنانية — الأمر الذى كان جوهر حياة المسيح ثم يأتى أخيراً بهذا النداء لتدعيم الوحدة بينهم وهو النداء النهائى الذى يدحض ولاينقص إذ يوجه أنظارهم إلى مثال يسوع المسيح .

وهذا فصل يلزمنا أن نفهمه فهماً كاملاً لأن فيه الكثير الذى يوقظ عقولنا للتفكير وقلوبنا للتعجب . وإذا كان لنا أن نفهمه على حقيقته يجب أن نتعمق فى دراسة بعض كلماته العظيمة فى اللغة اليونانية .

واللغة اليونانية لغة غنية ويمكنك أن تعبر عن الفكرة الواحدة بكلمتين أو ثلاث ، وقد تكون هذه الكلمات مترادفات ولكن لكل كلمة مذاقها الخاص ودلالتها الخاصة . وهذا بالضبط ما يسير عليه الرسول فى هذا الفصل إذ أن كل كلمة فيه قد انتقاها بولس بعناية فائقة ليشرح لنا أمرين بالغى الأهمية وهما حقيقة لاهوت المسيح وحقيقة ناسوته . لندرس هذه التعبيرات واحداً بعد واحد ولنحاول أن ندخل إلى الجوهر العميق الذى تنطوى عليه هذه الكلمات .

يقول العدد السادس « الذى إذ كان فى صورة الله » وهنا ينتقى الرسول كلمتين بغاية العناية ليرينا لاهوت المسيح فى جوهره وعدم تغيره . والكلمة التى للفعل « كان » هى « هو بارشين » وهى ليست كلمة عادية فى اللغة اليونانية . إنها تصف ذات الجوهر الذى يملكه الإنسان ولا تنتقل ملكيته إلى شخص آخر . إنها تصف القدرات والملكات التى لا تتغير ولا تتبدل فى الإنسان . إنها تصف هذا الجزء فى الإنسان الذى بالرغم من كل التغييرات التى تطرأ عليه يظل هو ثابتاً فى كل الظروف والأحوال . إن الرسول بولس يبدأ بقوله إن يسوع كان ولا يزال هو الله فى ذات جوهره بلا تغيير ولا تبديل .

ثم يمضى الرسول فيقول إن يسوع كان فى صورة الله . وهناك كلمتان فى اللغة اليونانية للتعبير عن الصورة ولكن الفرق كبير بين الكلمتين . الكلمة الأولى « مورفى » هى الصورة الجوهرية لشىء ما ولا تتغير قط . والكلمة الثانية « سكيما » هى الصورة الخارجية التى تتغير من وقت إلى وقت ومن ظرف إلى

ظرف . فمثلا الصورة الجوهرية للإنسان البشرى « مورفى » هى الإنسانية وحقيقة انسانيته ثابتة لايعتريها تغيير لكن الصورة الخارجية للإنسان « سكيما » فإن التعبير يطرأ عليها باستمرار . إن الإنسان سواء كان طفلا أو صبياً أو شاباً أو رجلا أو شيخاً يحتفظ بالصورة الجوهرية له دائماً لكن المظهر الخارجى « الإسكيما » فى تغير مستمر .

والرسول بولس وهو يتكلم عن المسيح إذ كان فى صورة الله ، يستعمل كلمة « مورفى » أى الصورة الجوهرية الأساسية . كأنى به يريد أن يقول إن يسوع فى صورة الله — الصورة التى لا تتغير قط لجوهره هو جوهر اللاهوت . وكيفما كان مظهره الخارجى قابلا للتغيير فهو يبقى فى جوهره وكيانه إلهاً من إله حق .

وفى نفس العدد يستطرد بولس فيقول إن يسوع لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله . والكلمة التى يستعملها الرسول للخلسة هى « هاربجموس » وهى مشتقة من فعل يعنى الخطف أو النهش بالمخلب . وهذا التعبير يمكن أن يحمل معنيين كلاهما يهدفان إلى شىء واحد .

١ — فقد يكون المعنى أن يسوع لم يكن فى حاجة إلى خطف المساواة مع الله لأنه كان كذلك واللاهوت حق طبيعى له . كانت المساواة حقاً له فلم تكن به حاجة إلى خطفها أو اختلاسها .

٢ — وقد يكون المعنى أيضاً أن يسوع لم يخطف المساواة مع الله كما لو كان قد احتفظ بها لنفسه ممسكاً بها بشدة لئلا تفلت منه . إنه تخلى عنها بمحض رغبته لصالح الناس . ويمكنك أن تأخذ المعنى الذى يروق لك فكلاهما محتملان ويؤكدان مرة ثانية جوهر اللاهوت الذى لا يتغير فى يسوع المسيح .

ويقول العدد السابع « أخلى نفسه » والكلمة اليونانية هى الفعل « كينوس » ومعناه الحرفى إخلاء وتفريغ الإناء مما فيه إلى أن يصبح الإناء خالياً ، وسكب الماء فى الوعاء إلى أن لايتبقى منه شىء . وهنا يستعمل بولس أوضح ما فى جعبته من كلمات ليقرب إلى أذهاننا تضحية التجسد . فالأمجاد اللاهوتية كلها قد تخلى عنها

المسيح طوعاً واختياراً لكي يصير إنساناً . أخلى نفسه من مجد لاهوته لكي يتخذ لنفسه جسداً بشرياً . ولا جدوى من التساؤل : كيف صار هذا ؟ يمكننا فقط أن نقف منذهلين أمام هذا السر العجيب — أما منظر المسيح وهو الإله القادر على كل شيء — فى الجوع والعطش والتعب والدموع . وهنا على آخر مدى تتسع له اللغة البشرية يقدم لنا الرسول هذا الحق الخلاصى العظيم أن يسوع إفتقـــر من أجلنا وهو الغنى .

ويمضى بولس فى القول إنه أخذ صورة عبد ويستعمل بولس مرة ثانية كلمة « مورفى » أى الصورة الجوهرية الأساسية لا المظهر الخارجى ، وما يقصده بولس أن يسوع لما صار إنساناً لم يكن ممثلا يقوم بدور إنسان . لكن ناسوته كان حقيقة كاملة . لقد كان إنساناً بكل معنى الكلمة . إنه لم يكن مثل الآلهة اليونانية التى صارت بشراً ، لكنها — كما تروى الأساطير — ظلت محتفظـــة بامتيازاتها الإلهية . إن المسيح صار إنساناً حقيقيا بأكمل معنى لكلمة إنسان . لكن هناك شيئاً أكثر مما ذكر . إنه صار فى شبه الناس . والكلمة اليونانية للصيرورة تصف حالة ليست دائمة . حالة متغيرة مع أنها حقيقية لكنها تمر وتعبر . بمعنى أن ناسوت المسيح لم يأخذ صفة الدوام . إنه صار إنساناً حقيقياً ولكن إلى وقت محدود . فهو — جوهرياً — إله ، لكنه — وقتيا — صار إنساناً . إن ناسوته كان حقاً لكنه مر وعبر ولاهوته كان حقا بكل معنى الكلمة لكنه شيء يبقى فيه إلى الأبد .

والعدد الثامن يقول « إذ وجد فى الهيئة كإنسان » والأصل اليونانى لكلمة « هيئة » هو « سكيما » التى رأينا فيما سبق أن معناها الصورة التى تتغير وتتبـــدل . وجاء يسوع فى الصورة الحقيقية لعبد مثل إنسان حقيقى لكن بالنسبة له لم يكن هذا إلا مرحلة وقتية خرج فيها من مجد اللاهوت ثم عاد من حيث أتى إلى مجد اللاهوت . أخـــلى نفسه من أمجاد اللاهوت كجندى يضع سيفه فى غمده ولا يستعمله .

إن الأعداد من ٦ — ٨ عبارة عن فصل قصير جداً لكن لا يماثله فصل آخر فى كل العهد الجديد من حيث تحريكه للعواطف . وهو يقرر الحقيقة الكاملة للاهوت الرب يسوع المسيح وناسوته . وهو يقدم لنا بأجلى وضوح وأروع بيان سر

الفداء الذى قدمه المسيح وهو يتخلى عن أمجاد اللاهوت ويقبل راضياً مختاراً هوان الناسوت . أما كيف حدث هذا فلا نقدر أبداً أن نصل إلى عمق هذا السر . إنه سر عميق لا يسبر غوره لكنه سر المحبة العظيمة التى وإن كنا لا نستطيع أبداً أن نفهمها فهماً كاملا إلا أننا نشعر بها ، ونختبر لذتها ، ونستعبد لها .

اتضاع المسيح وارتفاعه

فيلبى ٢ : ٥ — ١١ (تابع)

جدير بنا أن نذكر دائماً أن بولس وهو يفكر ويتكلم عن يسوع لم يكن مقصده مجرد تأملات عقلية بل كانت كلها تهدف إلى الجوانب العملية . فالحياة العملية والعلوم اللاهوتية — فى نظر بولس ، مرتبطتان معاً لاتنفصلان وكل طريق للتفكر يجب أن يؤدى فى رأيه إلى طريق للحياة ، وهذا الفصل الموضوع أمامنا للتأمل هو — كما قلنا ولا نمل من القول — من أروع ما وصلت إليه العقائد اللاهوتية . لكن كان كل القصد منه أن يقود الفيلبيين إلى حيـــاة يموت فيها الانقسام ، والتنافر والمطامع الشخصية ويحيا فيها التواضع والإيثار ، والنظر إلى الآخرين .

وهكذا يقول بولس عن يسوع إنه وضع نفسه وأطاع حتى الموت — موت الصليب . إن الخصائص العظيمة لحياة يسوع تميزت بالتواضع والطاعة وإنكار النفس . فهو لم يرغب أن يتسلط على الناس بل كانت رغبته الوحيدة أن يخدم الناس . إنه لم يرغب طريقاً خاصاً له بل رغب فقط طريق الله الآب . إنه لم يطلب مقاماً رفيعاً لنفسه لكنه طلب فقط أن يتخلى عن كل أمجاده فى سبيل خدمة الناس . ويقرر العهد الجديد هذه الحقيقة مرة بعد مرة أن الإنسان المتواضع هو وحده الذى يرتفع (متى ١٣ : ١٢ ، لوقا ٤ : ١١ ، ١٨ : ١٤) وإذا كان التواضع والطاعة وإنكار النفس من أبرز خواص حياة المسيح فيجب أن تكون أيضاً العلامات المميزة لحياة المسيحى لأن المسيحى يجب ان يتمثل دائماً بسيده . إن العظمة المسيحية والشركة المسيحية تعتمدان كلتاهما على إنكار النفس . إن محبة الذات ، وتأكيد الذات ، وإعلاء الذات هذه كلها كفيلة بتدمير مشابهتنا للمسيح وعلاقتنا مع بعضنا البعض .

لكن إنكار يسوع المسيح لنفسه عاد عليه بأعظم مجد . إنه جاء له بسجود وعبادة

جميع الكائنات . وسيأتي اليوم — إن عاجلا أو آجلا — يقوم كل مخلوق فى كل المكون سواء كان فى السماء أو على الأرض أو حتى فى أعماق الجحيم بواجب السجود والعبادة للرب يسوع . والآن يجدر بنا أن نلاحظ بعناية من أين يأتى هذا السجود للمسيح إنه يأتى من المحبة. إن يسوع قد كسب قلوب الناس لا بقوة السيف ولكن بسلطان المحبة والتضحية وإنكار النفس التى لابد لها من تحريك العواطف والانتصار على القلوب . وعند النظر إلى هذا الشخص العجيب الذى تنحى عن مجده لأجل الناس وأحبهم حتى الموت لأجلهم على الصليب ، قد ذابت قلوب الناس وتكسرت مقاومتهم . وعندما يتعبد الناس ليسوع المسيح لا يسجدون عند قدميه خوفاً من جبروته بل بدافع المحبة المتعجبة المذهلة وأن الإنسان يقول « أنا لا أقدر أن أقاوم قوة كهذه، لكنه يقول إن محبة عجيبة وإلهية كهذه المحبة تتطلب حياتى ونفسى وكل ما عندى » ولا يقول إنسان « أنا سلمت له حياتى مكرهاً مضطراً » لكنه يقول « أنا منذهل أشد الانذهال أمام هذه المحبة العجيبة التى فاقت كل الحدود» إنها ليست قوة المسيح التى أخضعت الإنسان واضطرته إلى التسليم المطلق : إنها محبة المسيح المذهلة هى التى تجعله يركع ويسجد أمام المسيح . إن السجود مؤسس لا على الخوف بل على المحبة .

وفضلا عن ذلك يقول بولس إنه كنتيجة لمحبة المسيح المضحية، وإنكاره لنفسه أعطاه الله إسماً فوق كل إسم .

من الأساليب الكتابية المألوفة إعطاء إسم جديد للإنسان للدلالة على مرحلة جديدة دخلت فيها حياته . فأبرام صار اسمه إبراهيم عند ما تلقى وعد الله له (تكوين ١٧ : ٥) ويعقوب صار إسمه إسرائيل عندما دخل الله معه فى علاقة جديدة (تك ٣٢ : ٢٨) ووعد المسيح المقام لكنيستى برغامس وفيلادلفيا هو الوعد بالإسم الجديد (رؤيا ٢ : ١٧ ، ٣ : ١٢) . إن الإسم الجديد هو علامة مرحلة جديدة . ما هو إذن هذا الإسم الجديد الذى أعطى ليسوع المسيح ؟ لا نستطيع أن نجزم تماماً بما كان فى ذهن الرسول بولس . ولكن فى الأغلب يكون الإسم الجديد « الرب » .

إن اللقب العظيم الذى عرف به المسيح فى الكنيسة الأولى هو لقب كيريوس.

أى « الرب » إن يسوع قد صار بنوع خاص وبصفة متميزة « الرب يسوع » ويلذ لنا أن ندرس تاريخ الكلمة « كيريوس » إذ أن لها تاريخاً لامعاً .

١ — بدأت بمعنى السيد أو المالك وكانت دائماً لقب التوقير والاحترام .

٢ — وصارت فيما بعد اللقب الرسمى للامبراطور الرومانى : فالإمبراطور كان فى اللغة اليونانية « كيريوس » وفى اللاتينيـــة « دومينوس » أى الرب أو السيد .

٣ — ثم أصبحت لقب الآلهة الوثنية . كل إله وثنى . كان يسبق إسمه لقبه « كيريوس » أى الرب .

٤ — كانت الكلمة اليونانية التى ترجمت إليها الكلمة العبرية « يهوه » فى ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية .

ولهذا سمى يسوع « كيريوس » أى الرب . بمعنى أن المسيح صار السيد والمالك للحياة كلها . وصار بحق ملك الملوك ورب الأرباب . وصار الرب بمعنى لا يمكن أن تصل إليه الآلهة الوثنية البكماء بأى حال من الأحوال . ولم يكن أقل من اللاهوت فى شىء . إن إسم يسوع الجديد الذى ستدعوه به كل الكائنات فى يوم آت لا ريب فيه هو « الرب » أجل ! هو ملك الملوك ورب الأرباب بحق الخليقـــة وبحق الفداء العجيب .

كل شىء لمجد الله الآب

فيلبى ٢ : ٥ — ١١ (تابع)

إن العدد الحادى عشر هو واحد من أهم الأعداد فى العهد الجديد لأننا نقرأ فيه أن هدف الله ، وأحلام الله ، ومقاصد الله ، أن يأتى ذلك اليوم الذى يعترف فيه كل لسان أن يسوع المسيح هو رب . وهذه الكلمات الأربع تكونت منها العقيدة الأولى فى الكنيسة المسيحية . ولكى يصير الإنسان مسيحياً كان عليه أن يعترف أن يسوع المسيح هو رب (رومية ١٠ : ٩) وهى عقيدة بسيطة لكنها جامعة شاملة .

ونحن نحسن صنعاً إذ نعود إلى اعتناق هذه العقيدة . وقد حاول الناس فى الأيام الأخيرة أن يحددوا المعنى المقصود بالضبط لهذه العقيدة ، واحتدم النقاش بينهم وحكموا على بعضهم البعض بالهرطقة والغباء . لكن بالرغم من هذه المناقشات الحامية فإن كل إنسان يقول إن يسوع المسيح رب يدعى إنساناً مسيحياً . وإذا كان القائل يقولها بلسانه وحياته فهو يقصد أن يسوع المسيح شخص فريد لا يدانيه فى السمو شخص آخر ، وأنه مستعد أن يقدم ليسوع الطاعة التى لا يقدمها لأى شخص آخر ، وهو مستعد أن يعطى يسوع حباً وإخلاصاً وولاء لا يمكن أن يعطيه لأى شخص آخر بالغاً ما بلغ هذا الشخص . وقد يكون هذا الإنسان المسيحى عاجزاً عن وضع عقيدته فى إطار من الكلمات البشرية ولكن طالما كان له فى قلبه هذه المحبة المتعجبة ، وفى حياته هذه الطاعة المطلقة فهو مسيحى لأن المسيحية ليست فهماً عقلياً بقدر ما هى محبة قلبية .

وهكذا نأتى إلى نهاية هذا الفصل الكتابى الرائع . وعندما نصل إلى نهايته نعود مرة ثانية إلى بدايته . إن اليوم الذى فيه يعترف جميع الناس بيسوع رباً سياتى بلا ريب لكنهم سيفعلون ذلك لمجد الله الآب . إن بولس يتكلم بمنتهى الوضوح عن السمو النهائى الذى ينفرد به الله الآب . ففى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس يكتب قائلا « إنه متى أخضع له الكل فحينئذ الإبن نفسه أيضاً سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل » (١ كو ١٥ : ٢٨) . إن يسوع يجذب إليه الناس لكى يتقدم بهم إلى الله . وفى كنيسة الفيلبيين كان أناس ليس لهم إلا هدف واحد وهو إشباع مطامعهم الشخصية . أما الهدف الواحد ليسوع المسيح فقد كان خدمة الآخرين بغض النظر عما تكلفه هذه الخدمة من تضحيات بالنفس وإنكار للنفس عجيب .

فى كنيسة فيلبى كان أولئك الذين لا هم لهم إلا تركيز الأنظار نحو أشخاصهم . أما يسوع فكان هدفه الوحيد من ناسوته هو تركيز أنظار الناس نحو الله الآب .

وهكذا يجب على تابع المسيح أن يفكر دائماً لا فى نفسه بل فى الآخرين لا لمجده الخاص بل لمجد الله .

التعاون في الخلاص

إِذًا يَا أَحِبَّائِي كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ بَلِ الآنَ بِالأَوْلَى جِدًّا فِي غِيَابِي تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ لِأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ . إِفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلا دَمْدَمَةٍ وَلاَ مُجَادَلَةٍ . لِكَيْ تَكُونُوا بِلاَ لَوْمٍ وَبُسَطَاءَ أَوْلاَدًا لِلّٰهِ بِلاَ عَيْبٍ فِي وَسَطِ جِيلٍ مُعَوَّجٍ وَمُلْتَوٍ تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي الْعَالَمِ . مُتَمَسِّكِينَ بِكَلِمَةِ الْحَيَاةِ لافْتِخَارِي فِي يَوْمِ الْمَسِيحِ بِأَنِّي لَمْ أَسْعَ بَاطِلاً وَلاَ تَعِبْتُ بَاطِلاً . لَكِنَّنِي وَإِنْ كُنْتُ أَنْسَكِبُ أَيْضًا عَلَى ذَبِيحَةِ إِيمَانِكُمْ وَخِدْمَتِهِ أُسَرُّ وَأَفْرَحُ مَعَكُمْ أَجْمَعِينَ . وَبِهٰذَا عَيْنِهِ كُونُوا أَنْتُمْ مَسْرُورِينَ أَيْضًا وَافْرَحُوا مَعِي .

(فيلبي ٢ : ١٢ — ١٨)

إن نداء بولس إلى الفيلبيين ليس مجرد نداء لحياة الاتحاد والوفاق . إنما هو نداء لحياة تؤول بجملتها إلى خلاص الله في الزمن الحاضر وفي الأبدية .

وليس في أي مكان آخر في العهد الجديد يوضح فيه عمل الخلاص ببلاغة وإيجاز مثلما يوضح في هذا المكان. ويقول في العددين ١ و ١٣ «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة» . وكما هو الحال دائماً مع بولس فهو يختار كلمته بكل دقة وعناية «تمموا خلاصكم» . والكلمة التي يستعملها للتتميم تحمل دائماً فكرة التكميل حتى يصل العمل المطلوب إلى أقصى

درجات الكمال . كأنى ببولس يريد أن يقول « لا تقفوا فى منتصف الطريق . لاتكتفوا بخلاص جزئى واصلوا السير إلى الأمام حتى يصل عمل الخلاص فيكم إلى أوج الكمال . ولا يقدر إنسان مسيحى أن يكون راضياً عن شىء أقل من البركات الكاملة للإنجيل . ثم يمضى بولس فى قوله « لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » والكلمة التى يستعملها بولس لفعلى الإرادة والعمل مشتقة من فعل واحد يتميز بخاصيتين فهو أولا يستعمل دائماً عن عمل الله . وثانياً يستعمل دائماً عن العمل المنتج . إن عملية الخلاص بجملتها هى عمل الله . وهذا العمل منتج ومثمر لأنه عمل الله . إن عمل الله لا يمكن أن يخيب أو يبقى ناقصاً . لابد أن يصل إلى حد الكمال .

وكما قلنا سابقاً نجد فى هذا الفصل أكمل مثال لطريق الخلاص .

١ — إن الخلاص هو من الله . هو الله الذى يعمل فى الإنسان .

[ا] هو الله الذى يضع فينا الإرادة والرغبة للخلاص هو الذى يوقظ فى قلوبنا الشوق إليه ، إنه صحيح أن « قلوبنا تستمر قلقة حتى تستريح فيه » وصحيح أيضاً أنه « لم يكن فى مقدورنا أن نبدأ مجرد بداءة فى البحث عنه ما لم يكن قد وجدنا أولا » . إن الرغبة إلى صلاح الله ، والاشتياق إلى سلام الله ، والتعطش إلى خلاص الله ، لم تكن هذه الأشواق وليدة عواطف بشرية . إن بداية عملية الخلاص لاتعتمد على أية رغبة بشرية . إن الله هو الذى يوقظها ويؤججها فى القلب .

[ب] إن استمرار هذه العملية يعتمد على الله . فبدون معونة الله لا يمكن أن يكون تقدم فى الصلاح . وبدون عون الله لاتغلب خطية . ولا تكمل فضيلة . فبواسطة معونته — ومعونته فقط — يمكننا أن نحصل على القوة لنغلب الشر ولنعمل الخير .

[ح] إن نهاية عملية الخلاص هى أيضاً من الله . لأن نهاية عملية الخلاص هى الصداقة مع الله حيث يكون الحبيب لنا ونحن للحبيب . هو إذن الحق الصريح أن نقول إن عمل الخلاص فى بدايته ، ومواصلته ، ونهايته هو من الله وفى الله .

٢ — لكن هناك جانباً آخر لعمل الخلاص هو من الإنسان «تمموا خلاصكم»

هكذا يطالب بولس . وبدون تعاون الإنسان مع الله لا يستطيع الله نفسه أن يعمل له شيئاً . والحقيقة أن أية عطية أو أية بركة يجب أن تؤخذ وتقبل وإن لم يأخذها الإنسان ويقبلها لم يستمتع بها . فقد يكون إنسان مريضاً ، وقد تكون للطبيب القدرة على علاجه. والأدوية وطرق العلاج هي بين يدي المريض لاستعمالها . لكن المريض لا يمكنه أن يشفى من مرضه ما لم يتناول هذه الأدوية . وبديهي أن الإنسان لا يقدر أن يتعلم بدون معلم . لكن المعلم يقف عاجزاً عن التعليم إذا رفض التلميذ أن يستعمل الكتب والأجهزة والتدريبات التي بواسطتها يدخل العلم إلى عقله . وهكذا الأمر نفسه في موضوع الخلاص . إن عطية الله مقدمة مجاناً . وفي متناول كل إنسان أن يمد يده ويتناولها. وبدون هذه العطية لا يمكن أن يكون له خلاص . إن الله ينفخ في قلب الإنسان طالباً أن يملأه بالشوق إليه . لكن الإنسان لن يحصل على الخلاص ما لم يستجب لنداء الله ، ويأخذ مايقدمه له الله ، ويتقبل مايعطيه إياه ، ويعمل بما يأمر به الله .

إنه لن يكون هناك خلاص للإنسان بدون الله . ولكن ما يقدمه الله يجب على الإنسان أن يتناوله . إن الله لا يمنع أبداً الخلاص عن أي إنسان ، ولكن الإنسان برفضه وعناد قلبه يحرم نفسه من نعمة الخلاص .

علامات الخلاص

فيلبي ٢ : ١٢ — ١٨ (تابع)

وفضلا عما ذكر عن التعاون في الخلاص ، فإننا عند تأملنا في تسلسل الفكر في هذا الفصل ، نجد الرسول يضع أمامنا خمس علامات للخلاص .

١ — العلامة الأولى للخلاص هي التقدم المنتج المثمر . « تمموا خلاصكم » . إن المسيحي يجب أن يعطي البرهان المستمر في حياته اليومية على أنه يتمم خلاصه بحق . ويوماً بعد يوم يجب أن يزداد خلاصه كمالا . وكل يوم يمر عليه يجب أن يجد هذا الخلاص وقد ازداد نمواً أكثر من اليوم السابق . إن المأساة المحزنة عند الكثيرين هي أنهم لا يخطون خطوة واحدة إلى الأمام نحو الخلاص الكامل . إن حياتنا لا تزال موروفة بنفس الأخطاء ونفس العيوب ، ونظل أسرى

لعاداتنا وعبيداً لتجاربنا ، ونبقى متهمين بنفس الخيانة للعهد ، وذات الفشل فى تحقيق انتظارات الرب . إن الحياة المسيحية الحقة لا تقدر أن تقف فى ذات المكان الواحد . شعارها هو التقدم المستمر وليس لها شعار آخر بخلاف ذلك لأن الحياة المسيحية ما هى إلا رحلة نحو الله .

٢ — والعلامة الثانية للخلاص هى ما يسميه الرسول بالخوف والرعدة . وهذا ليس خوف ورعدة العبد وهو يتذلل أمام سيده . ليس هو خوف ورعدة النظر فى العقاب . إن هذا الخوف وهذه الرعدة يأتيان من مصدرين . يأتيان أولا من الإحساس ببشريتنا وضعفنا وعجزنا ، وعدم كفايتنا فى مواجهة الحياة بكل تجاربها . إنه ليس الخوف والارتعاد اللذين يدفعاننا لمحاولة الاختباء من الله . واللذين يفصلاننا عن الله . إنهما بالأحرى الخوف والارتعاد اللذان يدفعاننا للبحث عن الله ، واللذان يأتيان بنا إلى علاقة أوثق بالله فى روح اليقين بأننا بدون عونه لا يمكننا أن نواجه الحياة مواجهة مثمرة .

والخوف والارتعاد هما — ثانياً — الخوف من أن نحزن الله ونجعله يفشل فينا . وعندما نحب شخصاً محبة حقيقية لانخاف مما يحتمل أن يفعله هذا الإنسان معنا . إن خوف المحبة ليس خوف الوقوع تحت طائلة العقاب ممن نحب . إنما هو الخوف الناشيء من احتمال جرحنا لقلبه . إن خوف المسيحى الوحيد هو الخوف من جرح احساس الله ، ومن صلب المسيح ثانية .

٣ — والعلامة الثالثة للخلاص هى الصفاء واليقين . إن المسيحى يعمل كل شيء بلا دمدمة أو مجادلة . والدمدمة هى الصفة التى اتصف بها بنو إسرائيل عند تذمرهم الشائر والخالى من الإيمان فى رحلة البرية (خر ١٥ : ٢٤ ، ١٦ : ٢ ، عد ١٦ : ٤١) والكلمة تصف جماعة السوقة وهم يثورون على قادتهم ويلوحون بالعصيان ويقفون على حافة الثورة والانقلاب عليهم . أما المجادلة فهى تصف قوماً غير مهذبين يدخلون فى مجادلات عنيفة ينقضون بها أقوال من يتكلم معهم ويشكون فيما يسمعونه . لكن الحياة المسيحية فيها الصفاء واليقين . فيها الخضوع الكامل واليقين الكامل ، والثقة الكاملة .

٤ — والعلامة الرابعة للخلاص هى الطهارة . إن المسيحيين يجب أن يكونوا —

كما يقول الوحى — بلا لوم . وبلا عيب ، وبسطاء . وكل كلمة من هذه الكلمات لها دلالتها الخاصة التى تضيفها إلى فكرة الطهارة المسيحية .

فالكلمة المترجمة « بلا لوم » تعبر عما يكون عليه المسيحى أمام العالم . إن حياة المسيحى يجب أن تكون من الطهارة بحيث لايقدر إنسان أن يجد فيها لوماً . وكثيراً ما يقال فى ساحات المحاكم إن العدالة لا يلزمها فقط أن تكون عادلة بل يجب أن يرى الناس جميعاً أنها عادلة . والمسيحى لا يلزمه فقط أن يكون طاهراً فى حياته الخاصة بل يجب أن يرى الجميع طهارة حياته .

والكلمة المترجمة « بسطاء » تعبر عما يكون عليه المسيحى أمام نفسه . وهى تعنى حرفياً السوائل غير المخلوطة أو غير المغشوشة . وهى تستعمل عادة للخمر الصافية أو اللبن النقى الذى لايخلط بالماء . وتستعمل أيضاً للمعادن الخالية من الشوائب . أما عند استعمالها عن الناس فهى تشير إلى الإخلاص المطلق ، وتدل على البواعث النقية النظيفة التى لا تشوبها شائبة . والطهارة المسيحية يجب أن تتسم بالإخلاص الكامل فى الأفكار والأخلاق .

أما الكلمة المترجمة « بلا عيب » فهى تصف ما يكون عليه المسيحى أمام الله . وهذه الكلمة تستعمل بصفة خاصة فيما يتعلق بالذبائح . فالذبيحة يجب أن تكون بلا عيب ليليق تقديمها على مذبح الله . إن طهارة المسيحى يجب أن تكون بحيث يمكنها أن تقف أمام عين الله الفاحصتين . الحياة المسيحية يجب أن تكون بلا عيب حتى تصلح أن تقدم ذبيحة لله .

الطهارة المسيحية هى بلا لوم فى نظر العالم ، وهى بسيطة ومخلصة أمام نفسها ، وهى بلا عيب ولائقة للوقوف فى محضر الله .

٥ — والعلامة الخامسة للخلاص هى السعى المرسلى . عد ١٥ ، ١٦ على المسيحى أن يقدم للجميع كلمة الحياة أى الكلمة التى تعطى الحياة . وهذا السعى المسيحى المرسلى له جانبان ، جانبه الأول هو تقديم رسالة . هو تبليغ عطية الإنجيل فى كلمات واضحة لا التباس فيها ولا غموض .

وجانبه الثانى هو شهادة حياة . إنها رسالة الحياة المستقيمة فى عالم معوج

وملئتو . إنها عطية النور إلى عالم يعيش فى ظلام دامس . إن المسيحيين ينبغى أن يكونوا أنواراً فى العالم . إن الكلمة التى يستعملها بولس للأنوار هى نفس الكلمة المستعملة فى قصة الخليقة عن النورين العظيمين الشمس والقمر اللذين وضعهما الله فى جلد السماء ليضيئا على الأرض (تك ١ : ١٤ — ١٨) وعلى المسيحى أن يقدم الاستقامة فى عالم معوج ، ويعطى النور لعالم مظلم . إن عمله المرسلى هو تقديم رسالة وشهادة حياة .

صورتان معبرتان

فيلبى ٢ : ١٢ — ١٨ (تابع)

يختم الرسول هذا الفصل بصورتين معبرتين وهما تمثلان أسلوب بولس فى التفكير والكتابة .

١ — إن بولس يشتاق أن يرى فى أحبائه الفيلبيين التقدم والكمال المسيحيين حتى يكون له فى اليوم الأخير فرح بمعرفة أنه لم يسع باطلا ولا تعب باطلا . والكلمة التى يستعملها للتعب لها معنيان يكمل أحدهما الآخر . المعنى الأول هو التعب الذى يتصبب فيه العرق ويصل إلى حد الإجهاد . هو الذى يسكب فيه الإنسان آخر نقطة من قوته ونشاطه . والمعنى الثانى مستمد من تعب التدريب الرياضى . وما يريد بولس أن يقوله هو أن يبتهل إلى الله أن كل ما قام به من التدريب الذى فرضه على نفسه لا يمضى أدراج الرياح . ومن ملامح كتابة بولس نرى حبه للصور المأخوذة من حياة الرياضيين . وليس هذا أمراً مستغرباً . ففى كل مدينة يونانية كانت الملاعب تقام لا للتدريبات الرياضية فحسب بل كانت ساحات للخطابة . وكثيراً ما كان سقراط يقف فى هذه الملاعب يتحدث ويتناقش مع سامعيه فى المشاكل الأزلية . فى هذه الملاعب كان يقف الفلاسفة ، والمعلمون ، والوعاظ ويجدون سامعين لهم . وفى كل مدينة يونانية كانت الملاعب أكثر من ساحات للعب . إنما كانت أيضاً بمثابة أندية لتغذية العقول . واشتهرت المدن اليونانية بالألعاب وكان أبرزها الألعاب الأولمبية التى كانت تقام مرة كل أربعة أعوام . وكثيراً ما كانت المدن الإغريقية فى صراع وصدام مع بعضها البعض ولكن عند حلول ميعاد هذه

الألعاب كانت توقف الحروب ولو كانت على أشدها ، وتعلن الهدنة شهراً من الزمان . ولم يأت فقط أبطال الرياضة إلى هذه الملاعب بل جاء إليها المؤرخون بأحدث كتبهم ، والشعراء بأحسن قصائدهم ، والفنانون بأفضل ما جادت به قرائحهم . ولا أشك كثيراً فى أن بولس وهو فى كورنثوس أو أفسس قد شاهد هذه الألعاب . وحيثما كانت تزدحم جموع الناس فبكل تأكيد كان بولس هناك باحثاً عن نفوس يربحها للمسيح . ولكن علاوة على الوعظ والكرازة بالإنجيل ، فإن هذه المباريات الرياضية وجدت تجاوباً فى قلب بولس . إنه كان على علم بمباريات الملاكمين (١ كو ٩ : ١٦) ويعرف سباق الركض وهو أشهر كل أنواع السباق ، وشاهد الحكم وهو يدعو المتسابقين فى نقطة الابتداء (١ كو ٩ : ٢٧) ورأى الراكضين وهم يبذلون أقصى قوتهم للوصول إلى الهدف قبل غيرهم (فيلبى ٣ : ١٤) ورأى القاضى وهو يقدم الجوائز فى نهاية السباق (٢ تى ٤ : ٨) وعرف إكليل الغار الذى كان يوضع على رأس الظافر (١ كو ٩ : ٢٤ وفى ٤ : ١) وهو يعلم التدريب الشديد الذى يجب أن يسير عليه كل رياضى (١ تى ٤ : ٧ و ٨ ، ٢ تى ٢ : ٥) .

وصلاة بولس هى أن لا يكون تعبه مثل تعب الرياضى الذى ضاعت جهوده الكثيرة هباء منثوراً ، إن أعظم جوائز الحياة فى نظر بولس هو أن يعرف أنه عن طريقه وبواسطة خدمته وحياته قد جاء الناس إلى معرفة ومحبة وخدمة يسوع المسيح .

٢ — ونجد لبولس صورة معبرة أخرى فى العدد السابع عشر . وكان لبولس موهبة خاصة فى التكلم إلى الناس باللغة التى كانوا يفهمونها . ومرة بعد مرة نراه يستمد صورة من الشئون العامة ومظاهر النشاط المختلفة التى كان سامعوه أو قارئوه يمارسونها أو على إلمام بها . وقد رأينا أنه أخذ صورة من الألعاب الرياضية . أما الآن فهو يأخذ صورة من الذبائح الوثنية . ومن الفرائض الوثنية المألوفة ما كان يسمى بالسكيب . وكان السكيب عبارة عن كأس من الخمر تسكب كتقدمة الآلهة . فمثلا كانت تبدأ وتنتهى كل وجبة طعام عند الوثنيين بسكيب من هذا القبيل كنوع من الصلاة قبل الأكل وبعده . وهكذا يقول فى العدد السابع عشر عن ذبيحة وخدمة إيمان الفيلبيين ، إنه ينظر إلى إخلاصهم وعيشتهم المسيحية وإيمانهم الحى كأنه ينظر إلى ذبيحة وإلى تقدمة تقدم إلى الله كما هى بالحقيقة . وهو يعلم أن الموت على

قاب قوسين أو أدنى منه لأنه يكتب لهم من وراء أسوار السجن منتظراً المحاكمة . ولذلك يكتب لهم قائلا إنه يسره كثيراً أن ينسكب على ذبيحة إيمانهم وهو نفس التعبير المستعمل للسكيب فى الذبائح الوثنية . وما يريد الرسول أن يقوله هو هذا: إن إخلاصكم للمسيح كان فعلا ذبيحة مقدمة إلى الله . « وإذا ما جاءنى الموت لأجل المسيح سأكون راضياً فرحاً أن تسكب حياتى لا كسكيب أمام الآلهة بل كسكيب على مذبح الإله القدوس الذى توضع عليه ذبيحة حياتكم » .

إن الموت لأجل المسيح هو فى نظر بولس امتياز كبير . وقد كان راضياً كل الرضى أن يجعل من حياته ذبيحة وتقدمة لله . وإذا حدث له هذا فإنه يسره كل السرور . وهو يناشدهم ألا يحزنوا عند سماعهم خبر موته بل بالأحرى ليفرحوا معه . إن كل دعوة للألم ، والتضحية والعمل المضنى هى عند بولس دعوة إلى محبته للمسيح ، ولذلك كان يتلقى كل دعوة من هذا القبيل لا بالشكوى والندم والتذمر والأنين ، ولكن بالشكر والفرح والتهليل .

الخادم الأمين

عَلَى أَنِّى أَرْجُو فِى الرَّبِّ يَسُوعَ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ سَرِيعاً تِيمُوثَاوُسَ لِكَىْ تَطِيبَ نَفْسِى إِذَا عَرَفْتُ أَحْوَالَكُمْ . لأَنْ لَيْسَ لِى أَحَدٌ آخَرُ نَظِيرُ نَفْسِى يَهْتَمُّ بِأَحْوَالِكُمْ بِإِخْلاَصٍ . إِذِ الْجَمِيعُ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ لأَنْفُسِهِمْ لاَ مَا هُوَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ . وَأَمَّا اخْتِبَارُهُ فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّهُ كَوَلَدٍ مَعَ أَبٍ خَدَمَ مَعِى لأَجْلِ الإِنْجِيلِ . هٰذَا أَرْجُو أَنْ أُرْسِلَهُ أَوَّلَ مَا أَرَى أَحْوَالِى حَالاً . وَأَثِقُ بِالرَّبِّ أَنِّى أَنَا أَيْضاً سَآتِى إِلَيْكُمْ سَرِيعاً .

(فيلبى ٢ : ١٩ — ٢٤)

حيث أن الظروف لا تسمح لبولس أن يأتى إلى فيلبى فى الوقت الحاضر ، ينوى أن يرسل تيموثاوس إليهم نائباً عنه إذ لم يكن هناك شخص آخر على أوثق صلة ببولس نظير تيموثاوس ، ولا نعرف عن تيموثاوس إلا النذر اليسير ، لكن سجل خدمته مع بولس يكشف لنا عن مدى إخلاصه ومحبته وتفانيه فى الخدمة .

وكان تيموثاوس أحد مواطنى مدينة دربة أو لسترة وأمه أفنيكى كانت يهودية واسم جدته لوئيس . أما أبوه فكان يونانياً . وحقيقة بقاء تيموثاوس بدون ختان ترينا أنه تربى فى المدارس اليونانية . (أعمال ١٦ : ١ ، ٢ تى ١ : ٥) وليس فى استطاعتنا أن نعرف كيفية ومكان تجديده ، لكننا نعرف أن بولس إلتقى به فى رحلته التبشيرية الثانية ، ورأى بولس فى تيموثاوس شخصاً يمكن الإعتماد عليه فى خدمة الرب يسوع .

ومن ذلك الوقت صار بولس وتيموثاوس رفيقين حميمين : ويستطيع بولس أن يقول عنه إنه إبنه فى الرب (١ كو ٤ : ١٧) ورافق تيموثاوس بولس إلى فيلبى (أعمال ١٦) وكان معه فى تسالونيكى وبيريه (أع ١٧ : ١ — ١٤) وكان معه فى كورنثوس وأفسس (أع ١٨ : ٥ ، ١٩ : ٢١ ، ٢٢) وكان معه فى السجن فى روما (كو ١:١ ، فى ١:١) واشترك تيموثاوس مع بولس فى كتابة مالا يقل عن عن خمس رسائل (١ و ٢ تس ، ٢كو ، كو ، فى) وعندما كتب بولس رسالته إلى رومية اشترك تيموثاوس أيضاً معه فى إهداء التحيات للأحباء (رو ١٦ : ٢١) .

ولكن الخدمة العظيمة التى أسداها تيموثاوس لبولس هى أنه حيثما أراد بولس أن يعرف حالة كنيسة ما ، أو رغب فى إرسال نصيحة أو مشورة أو تشجيع أو إرشاد أو توبيخ لم يكن أمامه إلا تيموثاوس ليرسله إلى أية مهمة يريدها متى تعذر عليه الذهاب بنفسه . ولهذا أرسل تيموثاوس إلى تسالونيكى (١ تس٣ : ٦) وإلى كورنثوس (١ كو ٤ : ١٧ ، ١٦ : ١٠ ، ١١) وإلى فيلبى كما تعرف من هذا الفصل (فى ٢ : ١٩) . وفى النهاية نعلم أن تيموثاوس أيضاً كان سجيناً لأجل المسيح (عب ١٣ : ٢٣) .

إن الخدمة العظيمة التى قام بها تيموثاوس هى أنه كان رجلا يستطيع بولس أن يرسله إلى أى مكان ، وكان على الدوام مستعداً وراغباً فى الذهاب . وكانت الرسالة المسلمة إلى يدى تيموثاوس تصل إلى أصحابها بمنتهى الأمانة كما لو كان بولس قد سلمها بنفسه . فالآخرون قد يتحكم فيهم الطمع الأنانى ، وقد يضعون مصالحهم

الخاصة فى المكان الأول ولكن رغبة تيموثاوس الوحيدة هى أن يخدم بولس ويخدم المسيح فى كنيسة المسيح. إن تيموثاوس هو المثال العملى لكل القانعين بالمحل الثانى طالما أتيحت لهم الفرصة للخدمة.

رقة بولس

وَلٰكِنِّي حَسِبْتُ مِنَ اللاَّزِمِ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ أَبَفْرُودِتُسَ أَخِي وَالْعَامِلَ مَعِي وَالْمُتَجَنِّدَ مَعِي وَرَسُولَكُمْ وَالْخَادِمَ لِحَاجَتِي. إِذْ كَانَ مُشْتَاقًا إِلَى جَمِيعِكُمْ وَمَغْمُومًا لأَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ كَانَ مَرِيضًا. فَإِنَّهُ مَرِضَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ لٰكِنَّ اللهَ رَحِمَهُ وَلَيْسَ إِيَّاهُ وَحْدَهُ بَلْ إِيَّايَ أَيْضًا لِئَلاَّ يَكُونَ لِي حُزْنٌ عَلَى حُزْنٍ: فَأَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ بِأَوْفَرِ سُرْعَةٍ حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمُوهُ تَفْرَحُونَ أَيْضًا وَأَكُونُ أَنَا أَقَلَّ حُزْنًا. فَاقْبَلُوهُ فِي الرَّبِّ بِكُلِّ فَرَحٍ وَلْيَكُنْ مِثْلُهُ مُكَرَّمًا عِنْدَكُمْ. لأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ عَمَلِ الْمَسِيحِ قَارَبَ الْمَوْتَ مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ لِكَيْ يَجْبُرَ نُقْصَانَ خِدْمَتِكُمْ لِي.

(فى ٢ : ٢٥ — ٣٠)

تختفى قصة مؤثرة وراء هذه الكلمات المقدسة. ومضمون هذه القصة أن الفيلبيين حينما بلغتهم الأنباء بأن بولس فى السجن تحركت عواطف محبتهم إلى عمل إيجابى. فأرسلوا له هدية على يد أبفرودتس. ونظراً لبعد المسافة التى تفصل بين فيلبى ورومية لم يستطيعوا أن يأتوا بأنفسهم إليه فأنابوا عنهم أبفرودتس. ولم يكن قصدهم من إرسال أبفرودتس أن يحمل هديتهم فقط. لكنهم أرادوا أيضاً أن يبقى أبفرودتس فى رومية ليكون الملازم الدائم والخادم الشخصى لبولس.

وواضح لنا إن أبفرودتس كان رجلا شجاعاً لأنه لابد أن تحوم حوله الشبهات، وهو يلازم رجلا سجيناً يتوقع محاكمته من يوم إلى يوم . فى الحقيقة كانت مخاطرة كبيرة من أبفرودتس أن يذهب لخدمة بولس .

وفى رومية أصيب أبفرودتس بالمرض فلازم الفراش . ولعل مرضه كان بسبب الحمى الرومانية الشديدة الوطأة التى اجتاحت المدينة فى وقت من الأوقات كأنها الوبأ القاتل . واشتد عليه المرض لدرجة أنه وصل إلى حافة الموت . وعرف أبفرودتس أن أخبار مرضه قد تسللت إلى فيلبى . وكان مغموماً لشعوره أن أحباءه سيحزنون لمرضه . لكن الله تدخل برحمته وأنقذ حياة أبفرودتس ولم يضف حزناً جديداً على بولس . وجاء الوقت لرجوع أبفرودتس إلى فيلبى بعد أن استعاد صحته وتماثل للشفاء ، وكان الحامل لهذه الرسالة إلى الكنيسة .

ولكن كانت هناك مشكلة . أن كنيسة فيلبى قد أرسلت أبفرودتس ليمكث مع بولس ويخدمه . وإذا عاد إلى فيلبى فلا تخلو الكنيسة ممن ينسبون له الجبن والخوف . وهنا يثنى بولس على أبفرودتس ثناء عاطراً ويعطيه شهادة رائعة كفيلة بإسكات كل انتقاد محتمل عند عودته .

وفى هذه الشهادة ينتقى بولس — كعادته — كل كلماتها بغاية العناية . فيقول إن أبفرودتس كان له أخاً وعاملا معه ومتجنداً معه . أو كما يضع « لا يتفوت » هذه الشهادة فى أسلوب آخر فيقول . «كان أبفرودتس واحداً مع بولس فى العاطفة ، وواحداً معه فى العمل ، وواحداً معه فى الخطر » إن أبفرودتس فى الحقيقة وقف فى خط النار .

ثم يمضى بولس فيقول لأهل فيلبى إن أبفرودتس كان رسولكم والخادم لحاجتى ويستحيل إعطاء المذاق الحقيقى لهذه الكلمات فى أى ترجمة . إن الكلمة التى يستعملها بولس « الرسول » هى بعينها الكلمة المعطاة لبولس نفسه . وفى الواقع أن المعنى الحرفى لكلمة « أبوستولوس » يقصد بها الإنسان الذى يرسل فى مهمة خاصة . لكن الإستعمال المسيحى كرس هذه الكلمة وشرفها . وإذ يستعملها بولس هنا يريد أن يضع أبفرودتس معه جنباً إلى جنب وفى مصاف رسل المسيح جميعاً ومع الصفوة الممتازة من حماة الإيمان .

ويقول بولس أيضاً عن أبفرودتس إنه الخادم لحاجته . وفى اللغة اليونانية العالمية كان لهذه الكلمة معنى سام . ففى الأيام القديمة كان فى المدن اليونانية أشخاص يبلغ بهم حبهم الشديد لبلادهم إلى حد أنهم كانوا يتبرعون بمبالغ عظيمة للقيام بالواجبات الوطنية . فكانوا مثلا يقومون بتكاليف سفارة ، أو إنتاج التمثيليات العظيمة لشاعر كبير ، أو يتطوعون بتدريب الرياضيين الذين يمثلون مدينتهم فى الألعاب . أو إعداد بارجة حربية ودفع مرتبات بحارتها . وهذه كانت هدايا سخية يقوم بها كبار المحسنين فى الدولة ، وكان كل محسن يقوم بخدمة من هذا القبيل يطلق عليه لقب « ليتورفوس » أى الخادم . وهذه هى نفس الكلمة التى يتخذها بولس وينسبها لأبفرودتس. فهو يتخذ الكلمة المسيحية العظيمة «أبوستولوس» والكلمة العالمية العظيمة «ليتورفوس» ويطبقهما على أبفرودتس وكأنه يقول لهم « رحبوا كل الترحيب برجل من هذا الطراز أعطوه ما يستحقه من الإكرام لأنه خاطر بحياته من أجل المسيح .

وهناك نرى بولس يمهد الطريق ويسهل عودة أبفرودتس إلى بلاده، وأن شيئاً عجيباً حقاً يسترعى انتباهنا . إننا نرى بولس وهو فى ظل الموت ، مقيداً بقيود السجن ومنتظراً المحاكمة بين ساعة وأخرى، لكنه يظهر منتهى الرقة المسيحية والاعتبار الكامل لأبفرودتس .

كان بولس يواجه الموت ولكن كان يهمه جداً أن أبفرودتس لا يلقى إحراجاً عند عودته. كان بولس مسيحياً حقيقياً فى موقفه بإزاء الآخرين . إن بولس لم يكن أبداً غارقاً فى متاعبه بحيث لا يجد وقتاً للتفكير فى متاعب أصدقائه .

وقد وردت فى هذا الفصل كلمة صارت لها فيما بعد شهرة عالمية . والكلمة عن أبفرودتس وهى « المخاطرة بحياته » والكلمة فى أصلها تطلق على المقامر الذى يرمى بكل شيء لديه عند البدء فى أية دورة من دورات اللعب . وما يريد بولس أن يقوله إن أبفرودتس من أجل المسيح قامر بحياته . لقد خاطر بحياته حباً فى المسيح بروح المغامر . وفى أيام الكنيسة الأولى، انتظمت جماعة من المسيحيين من رجال وسيدات تدعى بجماعة « بارابولانى » أى جماعة المقامرين . كان هدفهم أن يزوروا المسجونين ، والمرضى ، وخصوصاً الذين أصابتهم أمراض خطيرة معدية ، ويقدمون لهم كل ما يمكن من العطف والمعونة .

وفى عام ٢٥٢ للميلاد انتشر الطاعون فى قرطاجنة ، ورمى الوثنيون أجسام موتاهم وأسلموا سيقانهم للريح رعباً من هذا الوبأ المخيف . أما كبريانوس الأسقف المسيحى فقد جمع المسيحيين معاً وأشار عليهم أن يدفنوا الموتى ويخدموا المرضى فى تلك المدينة الموبوءة . وبعملهم المجيد هذا أنقذوا المدينة بالمقامرة بحياتهم من الهلاك والخراب .

ويجب أن تكون فى المسيحى روح الشجاعة التى تغامر بكل شىء اذا لزم الأمر ولو بالحياة نفسها فى خدمة المسيح وخدمة الآخرين. ان الكنيسة فى حاجة على الدوام الى جماعة « البارو بولاى » أى جماعة المقامرين لأجل المسيح .

الأصحاحُ الثالثُ

الفرح الذى لا يلاشيه شىء

أخيرًا يا إخوتى افرحوا فى الربّ . كتابة هذه الأمور إليكم ليست علىّ ثقيلة وأمّا لكم فهى مؤمّنة .

(فيلبى ٣ : ١) .

يضع بولس أمامنا الآن أمرين على جانب كبير من الأهمية .

١ — الأمر الأول هو ما يمكننا أن نسميه الفرح المسيحى الذى لا ينزع ولا يتلاشى . ولابد أن بولس قد أحس أنه يتحدى الإخوة الفيلبيين بهذا الطلب . فمن جهتهم كانوا يتوقعون الاضطهاد والموت تماماً كما توقع بولس . وكان لزاماً عليهم أن يسلكوا الطريق المسيحى بكل مافيه من صعوبات ومشقات . كانت المسيحية تبدو بحسب الظاهر كأنها شىء كريه حزين ولكن بالرغم من هذه الأحزان والمشقات . كان قلب المسيحى الأمين يمتلىء بالفرح الغامر الذى لا يلاشيه شىء . قال يسوع « لا ينزع أحد فرحكم منكم » (يوحنا ١٦ : ٢٢) وهذا مايمتاز به الفرح المسيحى . إنه يقف فى وجه كل العقبات التى تحاول انتزاعه . وهذا هو الواقع لأن الفرح المسيحى فى الرب . أساس هذا الفرح أن المسيحى يعيش على الدوام فى محضر الرب وفى مرافقة سيده الأمين . وقد يخسر المسيحى الأمين كل شىء ، وقد يخسر جميع الناس لكنه لن يخسر المسيح أبداً . ولهذا السبب ، حتى فى الظروف التى يبدو فيها الفرح مستحيلا ، وحتى فى الأحوال التى لا يكون فيها إلا الآلام والمتاعب ، فإن الفرح المسيحى يبقى ويدوم . إن كل تهديدات الحياة ومخاوفها ومتاعبها لا تقدر أن تفصل المسيحى عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا (رومية ٨ : ٣٥ — ٣٩) . حمل البريد إلى يوحنا وسلى عام ١٧٥٦ خطاباً من أب له ابن ضال . وعندما كانت النهضة الروحية تغمر بلاد الإنجليز كان الإبن ملقى فى سجن يورك وبلغته رسالة

التوبة فتاب وآمن بالمسيح . وكتب الأب يقول فى خطابه « لقد سر الله ألا يميته فى خطاياه ، فقد أعطاه فرصة للتوبة . وليس ذلك فقط بل أعطاه قلباً ليتوب » كان الغلام قد حكم عليه بالإعدام بسبب جرائمه . ويمضى الآب فى خطابه قائلا : « ان سلامه كان يزداد يوماً بعد يوم الى أن جاء يوم السبت — وهو اليوم المقرر فيه تنفيذ حكم الإعدام — وخرج من غرفته ووصل إلى العربة . وفيما هو سائر إلى مصيره كان الفرح والهدوء ساطعين على « ملامح وجهه لدرجة أذهلت المشاهدين » لقد وجد الغلام فرحاً لا يمكن لأى شيء — حتى حبل المشنقة — أن ينزعه منه .

ويحدث أحياناً أن الناس يستطيعون أن يحتملوا الأحزان العظمى ويقاوموا التجارب الكبرى ، لكنهم يضطربون أمام المزعجات الصغرى . لكن هذا الفرح المسيحى يقدر الإنسان على تقبل هذه جميعها بابتسامة ، كان جون نلسن واحداً من أقدر الوعاظ فى نهضة وسلى . وقام هو ووسلى فى رحلة تبشيرية بالقرب من « لاندز إند » ، ويصف جون نلسن مشاق هذه الرحلة فيقول : كنا طوال هذه المدة ننام على الأرض . وكان وسلى يتخذ من معطفى وسادة له ، أما أنا فكانت وسادتى كتاباً كبير الحجم أخذته معى فى الرحلة . وبعد أن قضينا مايقرب من ثلاثة أسابيع ، أيقظنى وسلى من نومى فى الساعة الثالثة صباحاً وقال لى « ياأخى دعنا نفرح معاً فلا يزال جانبى الأيسر سليما أما الجانب الأيمن فقد تآكل من طول نومى على الأرض وكان طعامنا أقل من الكفاية . وفى ذات يوم وعظ وسلا بمجهود كبير وفى رجوعنا إلى البيت أوقف وسلى حصانه ليلتقط قليلا من تمر العليق البرى وهو يقول ياأخى ينبغى لنا أن نشكر الله لان هذه الثمار تنمو هنا بكثرة . إن هذا أفضل مكان استراحت فيه معدتى مع أنه أردأ مكان للحصول فيه على طعام » .

إن الفرح المسيحى جعل (وسلى) قادراً على قبول ضربات الحياة الكبرى ، ومرحباً وضاحكا بمضايقات الحياة الصغرى .

٢ — والأمر الثانى الذى يضعه الرسول أمامنا هو ما يمكن أن نسميه بضرورة الإعادة والتكرار . أن بولس يريد أن يكتب لهم ما سبق أن نبههم اليه من قبل . وهو كأى معلم خبير لا يخشى أبداً تكرار الأقوال . وقد يكون من أخطائنا رغبتنا فى مفاجاة القراء والسامعين لنا بشيء جديد . لكن لنعلم علم اليقين أن الحقائق الخلاصية العظمى فى المسيحية لا تتغير ، ولا يمكن أن نمل سماعها أبداً . فنحن لا نتعب من

تناول الأطعمة التي هي مقومات الحياة . وننتظر أن نأكل الطعام ونشرب الماء كل يوم في حياتنا . ولا ينبغي للمعلم أن يجد غضاضة وهو يكرر ويعيد الحقائق الأساسية العظمى للإيمان المسيحي لأن هذا هو طريق الأمان لسامعيه . وقد نشتهي أحياناً « المشهيات اللطيفة » على موائدنا . ولكن الأطعمة الأساسية هي التي تبقي حياتنا . إن « المواضيع الجانبية » في وعظنا وتعليمنا قد تكون طلية وجذابة وقد يكون لها مكانها أحياناً . لكن الحق الأساسي لا نمل سماعه . ولا يعتبر الكلام فيه أو الاستماع له أكثر مما يلزم لأنه نافع لتأمين نفوسنا .

المعلمون الأشرار

انْظُرُوا الْكِلاَبَ انْظُرُوا فَعَلَةَ الشَّرِّ اُنْظُرُوا الْقَطْعَ . لأَنَّنَا نَحْنُ الْخِتَانُ الَّذِينَ نَعْبُدُ اللهَ بِالرُّوحِ وَنَفْتَخِرُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ وَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى الْجَسَدِ .

(فيلبي ٣ : ٢ ، ٣)

تتغير لهجة بولس فجأة من الفرح إلى التحذير . وحيثما علم بولس كان اليهود يتعقبونه محاولين أن ينقضوا تعليمه . لقد كان تعليم بولس أننا نخلص بالنعمة فقط وأن الخلاص هو هبة الله المجانية ولن يمكننا اكتسابه أو استحقاقه وإنما يمكننا أن نقبله بتواضع وشكر من يد الله الذي قدمه لنا . وفضلاً عن ذلك فإن تعليم بولس هو أن الخلاص هبة من الله لكل الناس ، ولكل الأمم ولا يخرج إنسان من هذه الدائرة المتسعة . أما أولئك اليهود الأردياء فكانوا يعلمون أن الإنسان إذا أراد أن يخلص يتحتم عليه أن ينال رضى الله بقيامه بأعمال الناموس التي لا تنتهي وأنه يجب أن يفتح حساباً دائناً يدين به الله بمواصلة إتمام الأعمال التي يطلبها الناموس . وزد على ذلك فإن تعليم أولئك اليهود هو أن الخلاص وقف على اليهود دون غيرهم . وقبل أن يكون للإنسان أي نفع عند الله ، فعليه أن يختتن أولا ويلزمه بأن يتهود ، أما بولس فعلى النقيض من ذلك كان يقدم الخلاص المجاني بنعمة الله لكل

إنسان. علّم اليهود أن الخلاص هو من حق اليهود فقط دون سواهم من أمم الأرض . وأن طريق اكتسابه هو إتمام أوامر الناموس ونواهيه. أما بولس ففتح باب الخلاص للعالم أجمع . وجعل بولس الخلاص معتمداً كل الاعتماد على نعمة الله فقط . أما اليهود فجعلوه يعتمد على مجهودات الإنسان البشرية . وهنا نرى بولس ينقض على هؤلاء المعلمين الذين أخرجوا كل ما فى جعبتهم لمحاربته .

وهو يطلق عليهم ثلاث صفـــات تنطبق عليهم تماماً لرد سهامهم إلى صدورهم :

١ ـــ أنظروا الكلاب . وهذا هو الوصف الأول الذى يصفهم به . والكلب حيوان محبوب مدلل عند أهل الغرب لكنه لم يكن كذلك عند أهل الشرق . كانت الكلاب تطوف الشوارع والأزقة باحثة فى أكوام القمامة عن أى شيء تلتهمه . وهى تنبح دائماً على المارة وأحياناً تتشاجر معاً . وفى الكتاب المقدس يكنى عن الكلب بأحقر الأشياء . فعندما كان شاول يبحث عن داود طالباً قتله كان داود يقول له : « وراء من خرج ملك اسرائيل ؟ » من أنت مطارد ؟ وراء كلب ميت ؟ وراء برغوث واحد ؟ » (١ صم ٢٤ : ١٤ ، ٢ مل ٨ : ١٣ ، مزمور ٢٢ : ١٦ ، ٢٠) . وفى مثل الغنى ولعازر كان جانب من عذابه وفقره أن الكلاب كانت تجىء بلحس قروحه (لوقا ١٦ : ٣١) . وفى سفر التثنية جمع الناموس ثمن الكلب مع أجرة الزانية وحرم تقديمها كليهما الى الله (تث ٢٣ : ١٣) . وفى سفر الرؤيا تطلق كلمة « الكلاب » على النجسين الذين أوصدت فى وجوههم أبواب المدينة المقدسة (رؤ ٢٢ : ١٥) . وكان الحال هكذا مع الكلاب عند اليونان ـــ وكان الكلب مرادفاً لأنجس الأشياء وأقذرها . وقال المسيح جهاراً إن القدس لا ينبغى أن يعطى للكلاب (متى ٧ : ٥) . وبهذا الإسم لقب اليهود الأمم . ومن أقوال الربيين « ان أمم العالم مثل الكلاب » .

وهكذا كان جواب بولس على هؤلاء المعلمين اليهود فهو يقول لهم « فى كبريائكم وبركم الذاتى تصفون الناس بالكلاب . وفى تفاخركم بقوميتكم اليهودية تقولون عن الأمم الأخرى إنها كلاب . لكنكم أنتم الكلاب لأنكم بلاحياء أو خجل تقلبون انجيل يسوع المسيح » . ان بولس يأخذ ذات الإسم الذى يطلقه على هؤلاء المعلمين الأردياء

على النجسين وعلى الأمم قاطبة ويرميهم به . وعلى الانسان أن يحترس دائماً فلا يرتكب نفس الخطايا التى يتهم بها الآخرين .

٢ — أنظروا فعلة الشر. كان هؤلاء اليهود واثقين من أنفسهم أنهم فعلة البر. كان رأى اليهود أن حفظ الناموس بتفاصيله الكثيرة . والخضوع لأحكامه وأنظمته التى لا تحصى هى فى اعتقادهم فعل البر . لكن بولس كان مؤمناً الإيمان كله أن البر الوحيد المقبول عند الله هو فى القاء النفس تماماً على نعمة الله. كانت نتيجة تعليم هؤلاء اليهود أن ابتعد الناس عن الله بدلا من تقربهم إلى الله . وزعموا أنهم كانوا يفعلون خيراً والحقيقة أنهم كانوا يفعلون شراً ، وكل معلم أو واعظ عليه أن يكون مصغياً لصوت الله فلا يقول كلاما من عندياته وألا يعرض نفسه للوقوع فى زمرة فعلة الشر حتى وهو يظهر أنه فى عداد فاعلى البر .

الختان الحقيق الوحيد

فيلبى ٣ : ٢ ، ٣ (تابع)

٣ — يقول الرسول عن هؤلاء المعلمين الأشرار إنهم « القطع » والكلمة فى أصلها لاتعنى الختان وهو العلامة المقدسة عند اليهود ، لكنها تعنى الجراحة الممنوعة التى جاء ذكرعنها فى (لا ٢١ : ٥) وهكذا يقول لهم بولس : « أنتم أيها اليهود تظنون أنكم أنتم مختونون والحقيقة أنكم تشوهون أجسادكم فقط »

ما هو بيت القصيد من هذا الكلام ؟ طبقاً للعقيدة اليهودية كان الختان فرضاً إلهياً كرمز وعلامة على أنهم شعب دخل الله معه فى عهد مقدس وفى علاقة خاصة . جاءت أول قصة للختان فى سفر التكوين ١٧ : ٩ ، ١٠ حينما دخل الله فى عهده المقدس مع إبراهيم ووضع الختان كعلامة أبدية لهذا العهد . وما الختان إلا علامة فى الجسد ولكن إذا أراد الإنسان أن يكون على صلة خاصة بالله متقرباً إليه يلزمه أن يعمل شيئاً أكثر من مجرد هذه العلامة فى جسده . يجب أن يكون له نوع خاص من العقل والقلب والأخلاق . لكن عدداً من اليهود زعموا أن الختان وحده كاف

لإيجاد علاقة طيبة بالله واعتبروا أن هذه العلاقة الجسدية فى ذاتها تجعلهم شعباً خاصاً لله ولا لزوم لأى شيء آخر مع الختان . وقبل ذلك بزمن طويل كان عظماء المعلمين وعظماء الأنبياء قد رأوا أن ختان الجسد وحده ليس كافياً . ويجب أن يكون فى الإنسان ما نسميه بالختان الروحى . فى سفر اللاويين يقول المشترع الإلهى إن القلوب الغلف لبنى إسرائيل يجب أن تقبل باتضاع وتذلل عقاب الله (لا ٢٦ : ٤١) . ويقول كاتب سفر التثنية « اختنوا غرلة قلوبكم ولا تصلبوا رقابكم بعد » (تث ١٠ : ١٦) ويقول أيضاً « يختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكى تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا » (تث ٣٠ : ٦) ويتكلم إرميا النبى عن الأذن الغلفاء التى لا تقدر أن تسمع كلمة الرب (إرميا ٦ : ١٠) . ويقول موسى عن نفسه إنه أغلف الشفتين (خر ٦:١٢و٣٠) . وكان كبار المفكرين من اليهود يرون دائماً أن ختان الجسد ليس شيئاً ، وأن تكريس العقل والقلب والشفتين هو الأمر الجوهرى . وعلى هذه الوتيرة يقول بولس : « إذا لم يكن لديكم شيء إلا ختان الجسد فأنتم إذن لستم مختونين الختان الحقيقى . ما أنتم إلا مشوهون مبتورون . أما الختان الحقيقى فهو تكريس القلب والعقل والفكر والحياة لله »

وبسبب هذا كله فإن المسيحيين فقط هم المختونون بحق . وختانهم ليس بعلامة جسدية ولكنه الختان الروحى الداخلى الذى تحدث عنه المعلمون والأنبياء من قديم الزمان . ما هى إذن علامات الختان الحقيقى ؟ يضع الرسول أمامنا ثلاث علامات .

١ — نحن نعبد الله بالروح . إن العبادة المسيحية ليست ملاحظة طقوس وأنظمة ناموسية . إن العبادة المسيحية شيء يتصل بالروح والقلب . ومن المحتمل جداً أن يمارس الإنسان فرائض لاعدد لها ومع ذلك يكون بعيداً جداً عن الله . ومن الجائز جداً أن يدقق الإنسان فى حفظ شعائر الدين الخارجية ويكون فى قلبه الحقد ، والمرارة ، والكبرياء ، والضغينة . إن المسيحى الحقيقى ، المختون حقاً ، الذى له صلة حقيقية بالله هو الذى يعبد الله لا بطقوس وممارسات خارجية ولكن بالتعبد الحقيقى وبإخلاص القلب الحقيقى . إن عبادته هى المحبة لله ، والخدمة للناس ، والتواضع العميق الذى يعرف به خطيته ومواطن الضعف فيه ، والذى لذته فى خدمة الله والآخرين .

٢ — فخرنا الحقيقى هو فى المسيح يسوع . إن الفخر الحقيقى لدى المسيحى ليس فيما فعله هو للمسيح بل فيما فعله المسيح لأجله . إن الفخر الوحيد للمسيحى هو أنه إنسان مات المسيح من أجله . هو الإنسان الذى لا يخجله شىء مثل الخجل من ذاته الخاطئة ولا يفتخر بشىء إلا بالصليب .

فى الصليب ، فى الصليب راحتى بل فخرى
فى حياتى وكذا بعد دفن القبر

٣ — إن المسيحى هو الإنسان الذى لا يتكل على الجسد . هو الإنسان الذى لا يضع ثقته قط فى أشياء جسدية محضة . وضع اليهودى ثقته فى علامة الختان الجسدية وفى الممارسات الجسدية لأوامر الناموس ونواهيه . أما المسيحى فهو متكل على الله .

إن الختان الحقيقى ليس علامة فى الجسد . هو تلك العبادة الحقيقية . هو ذلك الإفتخار الحقيقى . هو ذلك الاتكال الحقيقى على نعمة الله فى المسيح يسوع ربنا .

امتيازات بولس

مَعَ أَنَّ لِي أَنْ أَتَّكِلَ عَلَى الْجَسَدِ أَيْضًا . إِنْ ظَنَّ وَاحِدٌ آخَرُ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَى الْجَسَدِ فَأَنَا بِالأَوْلَى . مِنْ جِهَةِ الْخِتَانِ مَخْتُونٌ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنْ جِنْسِ إِسْرَائِيلَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ عِبْرَانِيٌّ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ . مِنْ جِهَةِ النَّامُوسِ فَرِّيسِيٌّ . مِنْ جِهَةِ الْغَيْرَةِ مُضْطَهِدُ الْكَنِيسَةِ . مِنْ جِهَةِ الْبِرِّ الَّذِي فِي النَّامُوسِ بِلاَ لَوْمٍ . لَكِنْ مَا كَانَ لِي رِبْحًا فَهَذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً .

(فيلبى ٣ : ٤ — ٧)

هاجم بولس المعلمين اليهود وأصر على أن المسيحيين — لا اليهود — هم المختونون حقاً ، وهم الذين دخلوا مع الله فى عهد مقدس ، وفى صلة مباركة مع الله . ويتصور بولس أن أعداءه يجادلونه بقولهم « أنت مسيحى يا بولس ولذلك فلا تعرف ما تتحدث عنه ، ولا تعرف ما معنى أن يكون الإنسان يهودياً » ولذلك يجاهر بولس بامتيازاته . وهو لا يفعل ذلك من قبيل الإفتخار ولا لكى ينسب لنفسه فضلا . إنما يقصد أن يبين لهم أن كل امتياز تمتع به يهودى ، قد تمتع هو به من كل الوجوه ، وبلغ منتهى ما يتمنى اليهودى أن يبلغه ، وقد عرف جيداً معنى أن يكون الإنسان يهودياً . لكنه بعد تفكير ومعرفة ورغبة خالصة طرح كل هذه الامتيازات جانباً فى سبيل التمتع بيسوع المسيح . وكل امتياز فى قائمة امتيازات بولس له معنى خاص . ولذلك يجدر بنا أن ندرس كل امتياز على حدة .

١ — من جهة الختان مختون فى اليوم الثامن . فقد كانت وصية الله لإبراهيم هكذا « ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم » (تك ١٧ : ١٢) وصارت هذه الوصية فيما بعد قانوناً دائماً فى إسرائيل (لا ١٢ : ٣) وبهذا الدليل يريد بولس أن يقول إنه ليس إسماعيلياً ، لأن إسماعيل ختن وله من العمر ثلاث عشرة سنة (تك ١٧ : ٢٥) كما أنه لم يكن دخيلا على اليهودية تمت فيه عملية الختان وهو فى سن الرجولة . إنه هنا يريد أن يبرز حقيقة ولادته من بيت يهودى صميم . وكان له أكبر نصيب من الإمتيازات اليهودية . وقد مارس كل طقوسها منذ نعومة أظفاره .

٢ — والامتياز الثانى هو أنه من جنس إسرائيل . وإذا أراد اليهودى أن يظهر علاقته الخاصة بالله فى معناها الممتاز الفريد ، كان كافياً أن يقول إنه إسرائيلى . كان إسرائيل هو الإسم الجديد الذى أعطاه الله ليعقوب بعد مصارعته مع الله (تك ٣٤ : ٢٨) ونسبوا تراثهم القومى بأبرز المعانى إلى إسرائيل . وفى الحقيقة يستطيع الإسماعيليون أن ينتسبوا إلى إبراهيم لأن إسماعيل هو أيضاً ابن إبراهيم من هاجر . كما أن الأدوميين كان فى ميسورهم أن ينتسبوا إلى إسحق لأن عيسو مؤسس الأمة الآدومية هو ابن إسحق . لكن الإسرائيليين فقط هم وحدهم الذين ينتسبون إلى يعقوب الذى أعطاه الله إسم إسرائيل . وعندما يدعو بولس نفسه إسرائيلياً يريد أن يؤكد النقاوة الكاملة لجنسه وسلالته .

٣ — والامتياز الثالث أنه كان من سبط بنيامين . يريد بولس أن يقول إنه ليس إسرائيلياً وحسب بل إنه ينتمى إلى الصفوة الممتازة فى إسرائيل . إن سبط بنيامين كانت له مكانة خاصة فى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة فى إسرائيل ومعروف لنا أن بنيامين كان إبن راحيل الزوجة المحبوبة ليعقوب . ومن بين الآباء الإثنى عشر كان هو الوحيد الذى ولد فى أرض الموعد (تك ٣٥ : ١٧ ، ١٨) ومن سبط بنيامين خرج أول ملك لإسرائيل وهو شاول (١ صم : ٩ : ١ ، ٢) . وبلاشك أعطى بولس اسمه الاول تشبهاً بالإسم الملكى . وعندما انقسمت المملكة فى زمن رحبعام وانضم إليه عشر أسباط . بقى وسبط بنيامين وحده على ولائه مع يهوذا (١ مل ١٢ : ٢١) وعندما عادت الأمة من السبى ، تكونت الأمة العائدة من سبطى بنيامين ويهوذا (عزرا ٤ : ١) وكان لسبط بنيامين مكان الشرف والكرامة فى الحروب حتى كانت صيحة الحروب فى إسرائيل هكذا . وراءك يا بنيامين «(قضاة ٥ : ١٤ ، هو ٥ : ٨) وعيد الفيوريم الذى يحتفل به بفرح عظيم تذكاراً لقصة نجاتهم من مؤامرة هامان كما ذكرت القصة بالتفصيل فى سفر أستير ، كان مردخاى الشخصية البارزة فى هذه القصة . ومردخاى كان من سبط بنيامين . وعندما جاهر بولس أنه من سبط بنيامين لم يقصد أن يقول إنه مجرد إنسان إسرائيلى ، لكنه كان ينتمى إلى أعلى طبقة فى إسرائيل .

وهكذا يقرر بولس أنه من مولده يهودى يخاف الله ويحفظ الناموس ، وأن سلسلة أبائه وأجداده نقية ومن أنقى ما يمكن أن يكون عليه النسب اليهودى الأصيل وأن الدم الملكى يجرى فى عروقه ، كانت هذه امتيازات مولده — وهى الامتيازات التى نشأ وترعرع فيها .

إنجازات بولس

فيلبى ٣ : ٤ — ٧ (تابع)

فيما مضى كان بولس يعدد الامتيازات التى جاءت إليه بمولده . أما الآن فهو يذكر الإنجازات التى أنجزها والأهداف التى حققها بمحض اختياره فى الإيمان اليهودى

١ — كان عبرانياً مولوداً من أبوين عبرانيين . وهذا ليس مرادفاً لقوله إنه إسرائيلي لا غش فيه . الفكرة التي يريد الرسول أن يلفت الأنظار إليها هي أن تاريخ اليهود قد شتتهم في كل بقاع الأرض . فكان اليهود في كل قطر وفي كل مدينة . وكان عشرات الآلاف منهم في مدينة رومية . وفي الإسكندرية بلغ تعدادهم أكثر من مليون نفس . وفي كل مكان ذهبوا إليه رفضوا في إصرار وعناد أن يندمجوا مع الأمم التي عاشوا في أراضيها ، واحتفظوا بدياناتهم وعاداتهم وقوانينهم . وتكلموا اللغة اليونانية لأنهم عاشوا في بيئة يونانية ولأن ظروف معيشتهم كانت تضطرهم إلى ذلك . وهكذا فعلوا في كل مكان حلّوا به . كانوا فقط يتكلمون بلغة أهله ويعيشون في عزلة عن غيرهم من الناس . وبمرور الزمن نسوا لغتهم الأصلية أما العبراني فقد احتفظ بلغته العبرية في أي مكان ذهب إليه . فهو ليس يهودياً نقي السلالة فقط لكنه بذل مجهوداً شاقاً في التمسك باللسان العبراني ، ويهودي من هذا الطراز كان يتكلم بالطبع لغة البلاد التي عاش فيها لقضاء مصالحه ، لكنه أيضاً تعلم اللغة العبرية ورفض أن ينسى لسان آبائه ، وهذا ما فعله بولس . فهو ليس من دم يهودي نقي وحسب لكنه يهودي تكلم باللسان العبري . نعم ولد في مدينة أممية وهي مدينة طرسوس لكنه جاء إلى أورشليم لكي يتربى عند قدمي غمالائيل (أعمال ٢٢ : ٣) واستطاع أن يتحدث إلى الجماهير الثائرة في أورشليم باللسان العبري فأعطوا [illegible] أحرى (أعمال ٢١ : ٤٠) . ولهذا يضيف بولس إلى امتيازاته التي كسبها بجهده (أنه لم ينس قط اللسان العبري) .

٢ — وهدف ثان حققه بولس وهو أنه تدرب على المذهب الفريسي الأضيق وهذا ما يذكره بولس أكثر من مرة (أعمال ٢٢ : ٣ ، ٢٣ : ٦ ، ٢٦ : ٥) ولم يكن عدد الفريسيين كثيراً إذ لم يزد عددهم أبداً عن ستة آلاف شخص . وكان الفريسيون أبطال الرياضة الروحية في الديانة اليهودية ، وهم « المفروزون » كما يدل عليهم إسمهم . لقد عزلوا أنفسهم من الحياة العامة لكي يجعلوا الواجب الأول والهدف الأوحد من حياتهم حفظ أبسط وأدق تفاصيل الناموس بمنتهى الحرص والعناية . ويقول بولس في هذا الصدد إنه لم يكن فقط يهودياً متمسكاً بدين آبائه لكنه كرس حياته أيضاً لممارسته بغاية التدقيق ولم يعرف إنسان أفضل مما عرفه بولس عملياً ومن الاختبار الشخصي مطالب الديانة اليهودية وتفاصيلها الكثيرة .

٣ — وهدف ثالث حققه بولس وهو الغيرة المتقدة على ديانته ، من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة ، كانت الغيرة بالنسبة لليهودى أعظم السجايا فى الحياة الدينية . فقديماً أنقذ فينحاس الشعب من غضب الله وأعطى كهنوتاً أبدياً لأنه غار غيرة للرب (عد ٢٥ : ١١ — ١٣) . وصرخة داود هى « غيرة بيتك أكلتنى » مز ٢٩ : ٩ — إن الغيرة الملتهبة لمجد الله كانت رمز الشرف والكرامة . وعلامة التمسك بالديانة اليهودية ، وكان بولس يهودياً غيوراً لدرجة أنه حاول جاهداً أن يمحو من الأرض كل أعداء اليهودية . وهذا شيء لم ينسه بولس أبداً وهو يكثر من الحديث عنه مرة (أعمال ٢٢ : ٢ — ٢١ ، ٢٦ : ٤ — ٢٣ ، ١ كو ١٥ : ٨ — ١٠ ، غل ١ : ١٣) إن بولس لم يخجل قط وهو يعترف بخجله ويقول للناس إنه كان يبغض المسيح الذى أحبه الآن ، وطلب يوماً أن يلاشى الكنيسة التى يخدمها الآن بإخلاص وتفان . إن بولس يقول فى هذا البيان إنه عرف الديانة اليهودية فى أضيق مذاهبها وأكثرها تعصباً .

٤ — وهدف رابع حققه بولس وهو من جهة البر الذى طالب به الناموس كان بلا لوم . والكلمة فى أصلها تفيد أنه كان بلا لوم من جهة خطايا الإهمال . وهكذا يقول بولس إنه ما من مطلب من مطالب الناموس إلا وتممه على الوجه الأكمل . وإلى الحد الذى ذهب إليه الناموس كان بولس خالياً من أى لوم . وهكذا يذكر بولس ما استطاع أن يحققه من أهداف وهو فى أحضان الديانة اليهودية . كان يهودياً مخلصاً كل الإخلاص لقوميته فلم ينس أبداً اللغة العبرية ولم يكن يهودياً متديناً فقط لكنه كان عضواً فى أضيق المذاهب وأكثرها تزمتاً ، وكان قلبه يتأجج بالغيرة على ما كان يحسبه مجداً لله ، وكان له فى اليهودية سجل حافل بالمفاخر ، خال من العيوب والمطاعن .

وكل هذه الأشياء كان لبولس أن يفاخر بها ويضعها فى الكفة الراجحة من الميزات لكنه عندما التقى بالمسيح شطبها جميعاً واعتبرها ديوناً ميتة لافيمة لها . والأشياء التى كانوا يعتقد فى قرارة نفسه أنها أمجاد ومحاسن صارت فى عينيه عديمة النفع . كل عمل بشرى يجب أن يطرح جانباً ولا يلتفت إليه فى سبيل الحصول على عطية المسيح المجانية . وكان لزاماً عليه أن يتجرد من كل مطلب للكرامة بغية القبول لرحمة الله فى المسيح يسوع وهو فى منتهى التواضع والتذلل .

وهكذا يبرهن بولس لهؤلاء اليهود أنه كان من حقه أن يتكلم فهو لا يدين اليهودية من الخارج كعابر سبيل ليست له بها معرفة شخصية ، لكنه قد اختبرها في أعلى مراحلها وعرف عن يقين أنها على لا شيء إذا ما قورنت بالسلام والفرح اللذين يعطيهما المسيح . وعرف أن الطريق الوحيد للسلام هو في طرح الأعمال البشرية جانباً بصفة نهائية قاطعة . وقبول طريق النعمة المجانية .

لا فضل للناموس وكل الفضل للمسيح

بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ . وَأُوجَدَ فِيهِ وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ .

(فيلبي ٣ : ٨ ، ٩)

إفتهى بولس من قوله إن كل امتيازاته وإنجازاته لليهودية لم تكن شيئاً إلا خسارة كاملة . ولكن قد يعترض عليه أن قراره كان طارئاً أبن لحظته ولابد سيثوب إلى رشده ويندم على اتخاذه هذا القرار السريع . ولذلك يقول بولس هنا « إني وصلت إلى هذا القرار ولا أزال متمسكا به . فلم أتخذ هذا القرار في لحظة انفعال وتسرع . إنه قرار أخذته بعد الدرس والروية ولا أزال أجاهر به » .

وفي هذا الفصل نجد الكلمة التي هي بمثابة المفتاح له هذه الكلمة هي « بر » . والكلمة في أصلها اليوناني يصعب ترجمتها حرفياً في رسائل بولس . وليست الصعوبة في فهم معناها بل في إيجاد كلمة واحدة مرادفة لها . ولنحاول أن نرى ما يقصده بولس وهو يتكلم عن البر . إن مشكلة الحياة الكبرى هي كيفية الوصول إلى شركة مع الله والوجود في علاقة طيبة معه فلا نتغاضى عنه . ولا ننساه ، ولا نسعى

للهروب منه ولا ترتعد أوصالنا عند ذكره بل نكون معه في سلام دائم وفي صداقة حية وفي شركة حقيقية . والطريق إلى هذه الشركة الدائمة مع الله هو طريق البر — هو نوع الحياة والسلام والروح والقلب والموقف الذي يجب أن نكون عليه كما يريد الله لنا أن نكون . معنى البر إذن هو أن نكون على علاقة طيبة مع الله ولنحتفظ بهذا التعريف في ذاكرتنا ونحن نجتهد أن نفسر هذا الفصل . ولاتنحصر همتنا في أن نرى مايقوله بولس بل بالأكثر ما هو في أعماق فكره وقلبه بشأن موضوع البر .

يقول بولس « لقد قضيت كل أيام حياتي مجتهداً في الوصول إلى علاقة طيبة مع الله . حاولت أن أجدها بالتمسك الشديد بالشريعة اليهودية . وكنت حريصاً على إطاعة الناموس في أبسط وأصغر تفصيلاته أملاً في أن تكون لي علاقة حقيقية مع الله ، وبذلت أقصى جهدي في إرضاء الله بهذه الوسيلة . وقد كانت مني النفس والقلب أن أكون على صلة وثيقة بالله . وبعد كل مابذلت من جهود شاقة ومحاولات مضنية وجدت أن الناموس بكل طرقه يقف عاجزاً العجز كله عن تحقيق هذه الغاية . وجدت أن الناموس بكل مالديه من وصايا ليس أكثر من نفاية عديمة القيمة . فهو لم يساعدني إطلاقا في الوصول إلى علاقة طيبة مع الله . ولذلك عدلت عن فكرة بناء هذه العلاقة مع الله بمجهودي الخاص . وطرحت جانباً محاولة انجاز هذه العلاقة بنفسي . وأتيت إلى الله بإيمان متواضع كما طلب مني يسوع أن أفعل . وأخيراً وجدت الشركة التي تعبت كثيراً في البحث عنها ولكن بدون طائل » .

لقد اكتشف بولس أن العلاقة الصحيحة مع الله ليست مؤسسة على الناموس بل على الإيمان بالمسيح يسوع . إنها ليست إنجازاً بشرياً لكنها منحة إلهية . فلا تكتسب بالأعمال بل تقبل بالثقة والإيمان .

وهكذا يقول بولس « من واقع اختباري أقول لكم إن الطريقة اليهودية غير مجدية ولاتصل بكم إلى الله . ولن يتسنى لكم أن تصلوا إلى علاقة طيبة مع الله بفضل مجهوداتكم الخاصة وبفضل إنجازاتكم العظيمة في حفظ الناموس . وتستطيعون فقط أن تحصلوا على هذه العلاقة بتصديقكم كلام يسوع وقبول ما يقدمه الله نفسه لكم . إن طريق السلام مع الله ليس طريق الأعمال بل طريق النعمة » .

وبناء على هذه الفكرة الأساسية فى هذا الفصل هى أنه لافضل للناموس ، وكل الفضل وكل الكفاية فى معرفة المسيح وقبول نعمة الله المجانية ليكون لك سلام مع الله . وأن اللغة التى يستعملها بولس فى وصف الناموس هى أنه — خسارة ، ونفاية — هذه اللغة ترينا إلى أى حد كان الامتعاض يملأ قلبه من جهة الناموس ، كما أن الفرح الذى يضىء من خلال هذه الكلمات المقدسة يرينا كيف وجد أخيراً نعمة الله وسلامه فى شخص يسوع المسيح .

ما معنى أن تعرف المسيح

لِأَعْرِفَهُ وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ وَشَرِكَةَ آلامِهِ مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ . لَعَلِّى أَبْلُغُ إِلَى قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ .

(فيلبى ٣ : ١٠ ، ١١)

حدثنا الرسول فيما سبق عن فضل معرفة المسيح وعن القيمة الفائقة لهذه المعرفة . وإلى هذا الفكر يعاود الحديث ويوضح بأكثر تدقيق ماذا يقصد من معرفة المسيح .

وجدير بنا أن نتأمل الفعل الذى يستعمله بولس عن المعرفة . إن الكلمة فى أصلها تدل على المعرفة الشخصية المباشرة . فهى ليست مجرد المعرفة العقلية ولا هى معرفة حقائق ونظريات ، ولا حتى معرفة مبادىء . إنها الاختبار الشخصى لشخص آخر ونستطيع أن نقول إن هذه المعرفة تدل على أعمق وأوثق صلة شخصية مع إنسان آخر . فليس هدف بولس إذن أن يعرف شيئاً عن المسيح ولكن رغبته أن يعرف المسيح شخصياً . إن المراد بهذه المعرفة ليس معرفة حقيقة من الحقائق . أو نظرية من النظريات ، أو عقيدة من العقائد اللاهوتية لكنها معرفة شخص المسيح نفسه . معرفة المسيح لها فى ذهن بولس عدة معان .

١ — إن معرفة المسيح معناها معرفة قيامته . وقيامة المسيح لم تكن حدثاً ماضياً طواه التاريخ كما يطوى غيره من الأحداث . فمع روعة القيامة وتفردها لم

تمكن بمجرد شيء حدث ليسوع بالغاً ما بلغت أهمية هذا الحادث له . إنها قوة حية فعالة لها تأثيرها العظيم على حياة كل مسيحي بمفرده . ولا نستطيع أن نستوعب كل شيء قصده بولس من هذا التعبير . لكن قيامة المسيح لها القوة الفعالة فى ثلاثة اتجاهات مختلفة على الأقل .

[ا] إنها الضمان لأهمية هذه الحياة وهذا الجسد الذى نعيش فيه . إن قيامة المسيح كانت بالجسد . وهـــذا هو الجسد الذى يقدسه المسيح بحلوله فيه (١ كو ٦ : ١٣) . إن حقيقة قيامة المسيح بالجسد هى الضمان لأهمية الجسد البشرى وقيمة الحياة الحاضرة التى نحياها .

[ب] إنها ضمان الخلود والحياة الأبدية (رو٨ : ١١ ، ١ كو١٥ : ١٤) وبسبب حياته فنحن أيضاً سنحيا . إن انتصاره هو انتصار لنا وغلبته غلبة لنا .

[حـ] هى الضمان لحضور المسيح المقام معنا فى الحياة والموت وبعد الموت . أنها البرهان على أن وعده بالوجود معنا كل الأيام إلى انقضاء الدهر هو وعد حقيق .

إن قيامة المسيح هى الضمان على أن هذه الحياة تستحق أن نحياها ، وأن هذا الجسد الطبيعى مقدس لله . إنها الضمان على أن الموت ليس نهاية الحياة ، وأن هناك عالماً آخر أفضل من هذا العالم . إنها الضمان على أنه لا شيء فى الحياة أو فى الموت يقدر أن يفصلنا عن المسيح .

٢ ـــ ومعرفة المسيح معناها أيضاً شركة آلامه . ويتحدث الرسول مرات كثيرة فى هذا الشأن . إن المسيحى عندما يقاسى نوعاً ما من أنواع الألم ، فهو بمعنى سرى عميق يشترك فى نفس آلام المسيح ويصل فى آلامه إلى حد تكملة آلام المسيح (٢ كو ١ : ٥ ، ٤ : ١٠ ، ١١ ، غلا ٦ : ١٧ ، كو ١ : ٢٤) وكلما يتألم المسيحى ، وكلما كان له صليب يحمله ، فهو يقتسم آلام المسيح فعلا فى حمل صليب المسيح . إن الألم لأجل الإيمان ليس عقوبة بل هو امتياز لأننا باحتمال الألم بصبر وشكر نشترك فى نفس العمل الذى يقوم به المسيح .

٣ — ومعرفة المسيح لها معنى ثالث . معناها الاتحاد مع المسيح حتى أننا يوماً فيوماً نقترب من مشاركته فى موته وأخيراً نشترك معه فى أمجاد قيامته . إن معرفة المسيح هى أن نصير واحداً معه بحيث نشترك فى كل اختبار شخصى له . معنى معرفة المسيح أن نسير فى الطريق التى سار فيها ، ونحمل الصليب الذى حمله ، ونشترك معه فى الموت الذى ماته ، وأخيراً نشترك معه فى الحياة التى يحياها إلى أبد الآبدين .

إن معرفة المسيح لاتتطلب منا أن نكون مقتدرين فى المعرفةالنظرية أو اللاهوتية. إن معرفة المسيح هى أن نختبره عن قرب وبصفة شخصية ودائمة حتى أننا فى النهاية نكون متحدين معه كما نتحد مع الذين نحبهم على الأرض . وهكذا كما نشترك معهم فى اختباراتهم ، نستطيع أيضاً أن نشترك مع المسيح فى كل اختباراته ولكن بصفة أمتن وأمجد .

التقدم إلى الأمام

لَيسَ أَنِّى قَدْ نِلْتُ أَوْ صِرْتُ كَامِلاً وَلٰكِنِّى أَسْعَى لَعَلِّى أُدْرِكُ الَّذِى لِأَجْلِهِ أَدْرَكَنِى أَيْضًا الْمَسِيحُ يَسُوعُ . أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِى أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ . وَلٰكِنِّى أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ . أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لِأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِى الْمَسِيحِ يَسُوعَ . فَلْيَفْتَكِرْ هٰذَا جَمِيعُ الْكَامِلِينَ مِنَّا وَإِنِ افْتَكَرْتُمْ شَيْئًا بِخِلَافِهِ فَاللهُ سَيُعْلِنُ لَكُمْ هٰذَا أَيْضًا . وَأَمَّا مَا قَدْ أَدْرَكْنَاهُ فَلْنَسْلُكْ بِحَسَبِ ذٰلِكَ الْقَانُونِ عَيْنِهِ وَنَفْتَكِرْ ذٰلِكَ عَيْنَهُ .

(فيلبى ٣ : ١٢ — ١٦)

يتركز هذا الفصل على كلمة وفكرة . أما الكلمة فهى « الكامل » وأما الفكرة فهى المعانى التى يقصدها الرسول من الكمال . جاءت كلمة « كامل » أو « كاملين» مرتين فى هذا الفصل . فى العدد ١٢ يقول « ليس أنى قد نلت أو صرت كاملا » وفى العدد ١٥ « فليفتكر هذا جميع الكاملين منا » .

والكلمة فى أصلها عدة معان متقاربة فهى ليست ما ندعوه الكمال الفلسفى أو الكمال المعنوى . إن المقصود به الكمال الوظيفى بمعنى كفاية الإنسان على تأدية الغرض المعين عليه . لنذكر الآن بعض هذه المعانى المتشابهة للكمال . فهو يستعمل عادة للرجل الكامل النمو تمييزاً له عن الولد القاصر . ويستعمل للناضج فى عقله تفريقاً له عن العقل الفج الذى لم ينضج بعد . وتستعمل للمقتدر الكفء فى موضوع ما بخلاف المبتدىء فى التعلم . ويستعمل أيضاً للذبيحة الخالية من العيب والتى يليق تقدمتها إلى الله .

أما عندما تستعمل للمسيحيين فهى غالباً تعنى الأشخاص المعمدين الذين لهم العضوية الكاملة فى الكنيسة بخلاف أولئك الذين لا يزالون تحت التعليم ولم يؤهلوا بعد إلى عضوية الكنيسة . وفى أيام الكنيسة الأولى كانت كلمة الكمال تعطى وصفاً للشهيد . وكان يقال عن الشهيد إنه كمل بالسيف ويقال عن يوم موته إنه يوم تكميله . والفكرة السائدة عندهم أنه لا يمكن لشهادة المسيحى أن تصل إلى حد أبعد من الاستشهاد .

وهكذا عندما يستعملها بولس فى العدد ١٢ يريد أن يقول إنه ليس مسيحياً كاملا بأى حال من الأحوال لكنه لا يزال على الدوام يتقدم إلى الأمام . ثم يستعمل الرسول صورتين رائعتين لفكرة الكمال .

١ — يقول إنه يحاول جهده أن يدرك الذى لأجله أدركه أيضاً يسوع المسيح . وهذا فكر رائع حقاً . لقد شعر بولس أن يسوع المسيح عندما أوقفه وهو فى طريقه إلى دمشق كان عند المسيح حلم ، ورؤيا ، وغرض من أجله أمسك بولس . وشعر بولس أنه تحت التزام كل أيام حياته بالتقدم المتواصل إلى الأمام لئلا يفشل فى تحقيق أحلام المسيح التى من أجلها أمسك به ودعاه إلى خدمته . إن كل إنسان يمسك به يسوع لغرض معين . وكل إنسان هو حلم من أحلام يسوع . ولهذا ينبغى على كل إنسان أن يسعى جاهداً لكى يحقق أحلام يسوع فى حياته ويتمم الغرض الذى لأجله سعى وراءه المسيح حتى أدركه واصطاده بشبكة الإنجيل .

٢ — وتحقيقاً لهذه الغاية يقول بولس شيئين : إنه ينسى ما هو وراء ، ويمتد إلى ما هو قدام .

كأني به يريد أن يقول إنه لن يفتخر قط بأي عمل من أعماله .

ولن يتخذ من عمل قام به عذراً للتكاسل أو الاسترخاء في المستقبل وبناء على ذلك يقول بولس إن المسيحي يلزمه دائماً أن ينسى كل ما عمله في الماضي ويذكر فقط ما يريد أن يعمله في المستقبل . وفي الحياة المسيحية ليس هناك مكان للفرد أو الكنيسة التي ترغب في الاكتفاء بمفاخرها الماضية . ثم يقول الرسول بعد ذلك إنه يمتد إلى ما هو قدام . والكلمة التي يستعملها للامتداد كلمة معبرة تصف المتسابق في حلبة السباق إذ يجري بكل قوته لكي يصل إلى نهاية الشوط ، وعيناه لا تنظران شيئاً إلا الهدف الموضوع أمامه وذراعاه تكادان تقبضان على الهواء ، وصدره متجه إلى الهدف . وهكذا يقول بولس إن الحياة المسيحية ينبغي أن تنسى كل ما أنجزت من أعمال في الماضي وتذكر فقط الهدف الذي هو على الدوام إلى الأمام . هذا الهدف هو جعالة دعوة الله العليا في المسيح .

وغني عن البيان أن بولس يوجه هذا الكلام إلى جماعة المتحللين من أي قانون ينظم أمورهم في الحياة المسيحية . وكانوا يجاهرون أنهم ما داموا داخل دائرة النعمة فلا يهم والحالة هذه ما يفعلون . إن الله لابد غافر لهم كل إثم . وهم في مأمن من أي عقاب يحل بهم ولا موجب لبذل أي مجهود لضبط النفس . أما بولس فيصر إصراراً جازماً على أن الحياة المسيحية هي حياة رياضي يتقدم نحو هدف هو دائماً إلى الأمام .

ثم يذكر الرسول كلمة « الكاملين » مرة ثانية في العدد ١٥ وهذا ينبغي أن يكون موقف الكاملين . وما قصده بولس من هذه العبارة هو هذا : أن أي إنسان وصل إلى مرحلة النضوج في الإيمان المسيحي ويعرف ما هي المسيحية على حقيقتها يجب أن يشعر نفس الشعور ويجب أن يدرب نفسه على صراع الحياة المسيحية . ولعله يتجه بتفكيره إلى من يخالف هذا الرأي . ولكنه إذا كان أميناً في تفكيره فإن الله سيعلن له الأمر بجلاء ووضوح . إن الحياة المسيحية لا يجب أن تحيا حياة التكاسل في الجهود ، أو تخفيض المثل العليا بل على كل مسيحي أن يسعى دائماً إلى الأمام بلا توقف أو تراجع حتى يلفظ النفس الأخير .

إن المسيحى ليس أقل من رياضى متدرب ومتأهب لطاعة قائد، المجيد الرب يسوع المسيح .

سكان الأرض ومواطنو السماء

كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي مَعًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَلاحِظُوا الَّذِينَ يَسِيرُونَ هٰكَذَا كَمَا نَحْنُ عِنْدَكُمْ قُدْوَةٌ . لأَنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ . الَّذِينَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلاَكُ الَّذِينَ إِلٰهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِمِ الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الأَرْضِيَّاتِ . فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمٰوَاتِ الَّتِي مِنْهَا أَيْضًا نَنْتَظِرُ مُخَلِّصًا هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ . الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ .

(فيلبى ٣ : ١٧ — ٢١)

إن عدداً قليلا من الرعاة والوعاظ يجرؤون على إرسال هذا النداء الذى يبدأ به بولس كلامه فى هذا الفصل . ويترجم «لايتفوت» هذه العبارة بصورة أخرى فيقول «نافسوا بعضكم بعضاً فى الاقتداء بى» إن أغلب الوعاظ يبدأون حياتهم العملية بهذه العقبة الكبرى التى تضطرهم أن يقولوا للإخوة « افعلوا مثلما نقول » ولا يقدرون أن يقولوا « إفعلوا مثلما نفعل » أما بولس فلم يقل فقط « أصغوا إلى أقوالى » لكنه

استطاع أيضاً أن يقول « تمثلوا بي واقتدوا بمثالي » وجدير بالملاحظة أن « بنجل » أحد أعلام التفسير يترجم هذه الآية بصورة مختلفة فيضعها هكذا « تمثلوا بي في تمثلي بيسوع المسيح » . إن بولس كان قادراً أن يدعوا أصدقاءه لا للإصغاء إليه فقط بل للاقتداء به أيضاً » .

ومن كنيسة فيلبي رجال كانت حياتهم عاراً على اسم المسيح ، وبينوا بسلوكهم أنهم أعداء صليب المسيح . ويبدوا أنهم انحرفوا إلى حياة الخمر والفجور . ومن عجب أنهم ادعوا أنهم مسيحيون . ويا إفك ما كانوا يدعون . ومن يكون هؤلاء الناس ياترى ؟ لعلهم جماعة الغنوسيين . وهؤلاء كانوا هراطقة حاولوا أن يدخلوا المسيحية في دائرة العقل، ويجعلوا منها فلسفة كسائر الفلسفات، وبدأوا بإعلان المبدأ القائل إنه من بدء الزمن توجد حقيقتان: الروح والمادة. وقالوا إن الروح كلها خير وصلاح . أما المادة فكلها شر . وبسبب خلق العالم من المادة الشريرة فقد دخلت الخطية إلى العالم . وبما أن المادة كلها شر فإن الجسد كله شر أيضاً . وبما أن الجسد مادة فسيبقى في شره مهما عملت معه . وبناء عليه إفعل بالجسد ما يحلو لك . أشبع شهواته.وهكذا علّم هؤلاء الغنوسيون أن الشراهة والزنى والشذوذ الجنسي والسكر ليس لها خطورة ولا أهمية لأنها تؤثر فقط على الجسد ، والجسد ليس موضع أهمية .

وكانت هناك طائفة أخرى خرجت من هؤلاء الغنوسيين وكان لهم نوع آخر من التعليم . قالوا إن الإنسان لا يقدر أن يدعى كاملا ما لم يختبر كل شيء تقدمه له الحياة سواء كان خيراً أو شراً . وعلى هذا قالوا إن من واجب الإنسان أن يغوص إلى أعماق الخطية كما هو واجب عليه أن يسمو إلى مرتفعات الفضيلة . ولمثل هؤلاء الناس لم تكن الخطية إلا واجباً يتحتم القيام به لكي يصير الإنسان كاملا .

وكان في داخل الكنيسة فريقان من الناس تنطبق عليهم هذه الاتهامات ، كان منهم أناس شوهوا جمال الحرية المسيحية وقالوا إنه لامكان لوجود أي قانون في المسيحية وإن للمسيحي الحرية الكاملة ليفعل ماتسول له نفسه . وبعبارة أخرى حولوا الحرية المسيحية إلى إباحية سافرة وتفاخروا باطلاق العنان لشهواتهم .

وكان فى الكنيسة قوم آخرون شوهوا جمال النعمة المسيحية فقالوا إن باب النعمة مفتوح على مصراعيه لتغطية كل خطية وكل لوثة . وإن محبة الله فيها كل الكفاية لمغفرة أية خطية ولهذا فليرتكب الإنسان ماشاء من الخطايا ولايخشى العقاب من إله كله حب وكله تسامح .

وهكذا يتضح لنا أن هؤلاء الناس الذين هاجمهم بولس كانوا هؤلاء الغنوسيين الذين ابتدعوا الحجج بمهارة لتبرير خطيتهم أو كانوا مسيحيين مخدوعين حولوا أجمل الأشياء إلى تبريرات لارتكاب أقبح الخطايا .

وكيفما كانوا فإن بولس يذكرهم بحق عظيم فيقول لهم « إن سيرتنا هى فى السموات » . وهنا يرسم الرسول لهم بقلمه صورة يستطيع أن يفهمها الفيلبيون بسهولة . كانت فيلبى مستعمرة رومانية وكانت هذه المستعمرات أماكن رائعة . فهنا وهناك فى مواقع حربية استراتيجية بنى الرومان مستعمراتهم . ولم تكن مثل المستعمرات الحديثة المترامية فى البقاع النائية البعيدة عن العمران . وبنوا المراكز الرئيسية التى تتفرع منها الطرق المتسعة والممرات عبر التلال لكى تسير فيها الجيوش وهى تتقدم فى زحفها . فى أماكن كهذه وضع الرومان قواعد مستعمراتهم وكان أغلب مواطنيها من الجنود الذين انتهت مدة خدمتهم وهى واحد وعشرون عاماً وكوفئوا على ذلك بمنحهم الجنسية الرومانية الكاملة . ومن أهم ما امتازت به هذه المستعمرات الرومانية أنهـــا حيثما وجدت كانت أجزاء من مدينة رومية نفسها وارتدى سكانها الزى الرومانى ، وحكم هذه المستعمرات حكام من الرومان ، وخضعوا لأحكام القانون الرومانى ، وساروا بموجب التقاليد والمبادىء الرومانية . ومهما باعدت المسافات بين هذه المستعمرات ومدينة رومية ، احتفظت بالطابع الرومانى الصميم . وعلى هذا القياس يقول بولس للفيلبيين :

« كما تفعل المستعمرات الرومانية إذ لا تنسى أبداً أنها منتمية لمدينة رومية ، هكذا لا تنسوا أبداً أنكم مواطنو السماء . وهكذا يجب أن يتفق سلوككم مع وطنيتكم السماوية » .

أجل ! حيثما يوجد المسيحى يجب أن يبرهن سلوكه على أنه مواطن ملكوت السموات .

وهكذا يختم بولس حديثه بالرجاء المسيحى . إن المسيحى الأمين ينتظر مجىء المسيح الذى عند مجيئه سيتغير كل شىء . ومما يطرأ عليه التغيير أجسادنا المتواضعة . فهى عرضة للتغيير والذبول ، والضعف والمرض والموت . إنها أجساد أناس مائتين . أجساد فى حالة الاتضاع بالمقارنة بالحالة الجيدة التى كان عليها جسد الرب يسوع المقام من الأموات . وهكذا يقول بولس : إن اليوم سيأتى الذى نطرح فيه هذا الجسد الفانى الذى نملكه الآن ، ونصير مثل يسوع المسيح نفسه ، إن رجاء المسيحى هو فى يوم مجىء المسيح المبارك إذ ستتغير أجسادنا المتواضعة ، وتكون شبيهة بجسد المسيح الممجد . ويبدل اتضاع أبناء الموت بالمجد الفائق للحياة الأبدية .. حياة بلا موت .

الأَصْحَاحُ الرَّابِعُ

أشياء عظيمة فى الرب

إِذًا يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ وَالْمُشْتَاقَ إِلَيْهِمْ يَا سُرُورِي وَإِكْلِيلِي اثْبُتُوا هٰكَذَا فِي الرَّبِّ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ .

(فيلبى ٤ : ١)

فى هذه الآية تهب النسمات الدافئة المنعشة لمحبة بولس نحو أصدقائه الفيلبيين . فهو يحبهم ويشتاق إليهم لأنهم سروره وإكليله . هؤلاء الذين أتى بهم إلى المسيح هم أعظم فرح له فى الوقت الذى تخيم فيه الظلال الكثيفة حوله . وكل معلم أو راع يعرف نشوة السرور التى تغمر كيانه عندما يشير إلى شخص ناجح ويقول « هذا واحد من أولادى » .

ولنا صورة حية من وراء الكلمة عندما يقول بولس عن الفيلبيين إنهم إكليله. ولهذه الكلمة معنيان مختلفان . المعنى الأول هو التاج الملكى « ديادِيما » والمعنى الثانى « ستيفانوس » وهو الذى يقصده الرسول فى هذا الكلام . وتستعمل الكلمة فى غرضين (١) كان الإكليل أجمل أحلام اللاعب الرياضى وأعظم أمانيه . وعند فوزه كان يوضع على رأسه إكليل مصنوع من أوراق الزيتون البرى المضفور بالأعشاب الخضراء (٢) وكان الإكليل يتوج به الضيوف فى حفلات الأعياد الكبيرة . وعلى هذا المنوال يقول بولس إن الفيلبيين هم إكليل جهاده وتاج أتعابه . وتمشياً مع المعنى الثانى لكلمة إكليل كأنه يقول إنه فى وليمة الله السماوية الأخيرة سيكون الفيلبيون إكليله الذى يتوج هامته . إنه لا فرح فى العالم يعادل فرح الإتيان بنفسه إلى المسيح .

وفى الأعداد الثلاثة الأولى من هذا الأصحاح يذكر الرسول عبارة « فى الرب » ثلاث مرات . ويطلب بولس ثلاثة مطالب عظيمة « فى الرب » ، والتى لا يمكن إتمامها إلا « فى الرب » .

١ — على الفيلبيين أن يثبتوا فى الرب . وفقط مع يسوع وفى حماه وبالاستناد على تعضيده يستطيع الإنسان أن يقاوم مغريات التجارب وضعفات الجبن والخوف . والكلمة التى يستعملها بولس للثبات هى الكلمة المستعملة للجندى وهو يثبت فى شدة المعركة بينما العدو منقض عليه بخيله ورجله . ونعرف جيداً أننا فى وجودنا مع بعض الناس يسهل علينا الوقوع فى الخطأ . بينما إذا كنا مع أناس آخرين يسهل علينا مقاومة التجارب . وأحياناً تعود بنا الذكريات إلى الأخطاء التى سقطنا فيها ، والحماقات التى ارتكبناها فنقول « لو كان هذا الرجل أو هذه السيدة معنا لما كنا قد فعلنا هذه الأخطاء » . إن أماننا الحقيقى ضد التجارب ، هو فى الرب ، فعلينا دائماً أن نذكره ، وعلينا دائماً أن نسلك معه ، وعلينا دائماً أن نشعر بحضوره حولنا ووقوفه بجانبنا . وعبثاً ترتفع الأمواج الصاخبة ، وعبثاً تقوم الرياح الغاضبة ، فالمدينة الأبدية قائمة بلا أذى يلحق بها لأنها مبنية على صخر الدهور . إن الكنيسة — والمسيحيين على انفراد — يستطيعون فقط أن يثبتوا إن كانوا ثابتين فى الرب .

٢ — ويطلب بولس من أفودية وسنتيخى أن تفتكرا فكراً واحداً فى الرب ولا يمكن أن تكون هناك وحدة بين المؤمنين مالم تكن هذه الوحدة فى الرب . فالناس لا يمكنهم أبداً أن يحبوا بعضهم بعضاً مالم يحبوا المسيح أولا .

وفى شئون الحياة العادية ، يحدث كثيراً أن الناس المختلفين عن بعضهم البعض يتآلفون معاً فى وفاق وانسجام لأنهم جميعاً يدينون بالولاء لقائد عظيم . إن إخلاصهم لبعضهم البعض يعتمد اعتماداً كلياً على إخلاصهم لقائدهم . أبعد القائد عنهم تجدهم تفرقوا وانعزلوا ، بل قد يصل يوم الأمر إلى حد التصادم والقتال مع بعضهم البعض . ولزام علينا أن نقول ونعيد القول إن الناس لا يمكنهم أن يحب أحدهم الآخر محبة حقيقية دائمة مالم يحبوا يسوع المسيح . إن إخوة الناس من رابع المستحيلات بدون رئاسة يسوع المسيح عليهم .

٣ — ويطلب بولس أيضاً من الفيلبيين أن يفرحوا فى الرب . إن الشىء الوحيد

الذى يحتاج جميع الناس أن يتعلموه عن الفرح هو أنه ليس له صلة إطلاقاً بالأمور المادية أو بظروف الإنسان الخارجية . وكم شاهدنا بأعيننا إنساناً يعيش فى أحضان العز والرفاهية لكنه بائس تعس بينما يكون إنسان آخر عائشاً فى أعماق الفقر ولكنه يفيض بالفرح . إنسان لم تنزل عليه الحياة بضرباتها القاسية يعيش حزيناً متجهم الوجه غير قانع بحالته ، بينما إنسان آخر إنهالت عليه الحياة بكل ضربة ممكنة لكنه هادئ متزن يستمتع بالفرح الذى لاينزع منه . ألقى السيد « بارى » خطاباً على طلبة جامعة القديس أندراوس ، واقتبس فى خطابه فقرة من الرسالة الخالدة التى كان قد بعثها إليه الضابط « سكوت » من منطقة القطب الشمالى عندما كانت رعشة الموت تسرى فى أعضاء جثته . وتقول الفقرة « نحن نقيم الآن فى بقعة خالية خلواً تاماً من أى سبب من أسباب الراحة ، وفى حالة تدعو إلى اليأس فعلا ، والأقدام تجمدت من الجليد ، وليس لدينا وقود للتدفئة ، والطعام على مسافة بعيدة منا . لكنه قد يكون نافعاً لك ورائعاً لروحك المعنوية أن تكون معنا فى خيمتنا وأن تسمع أناشيدنا ، وأن تصغى إلى أحاديثنا الضاحكة » والسر فى هذه الروح الفرحانة هو هذا : من قوانين الحياة الأساسية أن السعادة لا تعتمد إطلاقاً على شىء من الأشياء ، ولا على مكان من الأمكنة ، ولا على ظرف من الظروف ، بل تعتمد دائماً على الأشخاص . وإذا كنا فى رفقة الشخص المناسب لايهمنا أى شىء آخر . أما إذا لم نكن مع الشخص المناسب لنا فلا يعوض عن غيابه شىء . وفى حضور يسوع المسيح ، فى الرب ، يكون معنا أعظم صديق وأوفى محب . ولا شىء يفصلنا عن حضوره القدسى . وفيه وبه لايقدر أحد أن ينزع فرحنا منا .

العمل على عودة السلام

أَطْلُبُ إِلَى أَفُودِيَةَ وَأَطْلُبُ إِلَى سِنْتِيخِي أَنْ تَفْتَكِرَا فِكْرًا وَاحِدًا فِي الرَّبِّ . نَعَمْ أَسْأَلُكَ أَنْتَ أَيْضًا يَا شَرِيكِي الْمُخْلِصَ سَاعِدْ هَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَاهَدَتَا مَعِي فِي الإِنْجِيلِ مَعَ أَكْلِيمَنْدُسَ أَيْضًا وَبَاقِي الْعَامِلِينَ مَعِي الَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ .

(فيلبى ٤ : ٢ ، ٣)

لابد أن هناك ماساة محزنة وراء هذه السطور . هناك قلوب قد انكسرت بسبب هذه الخلافات . لكننا نجد من الجانب الآخر أعمالا عظيمة تعمل لإصلاح هذه الخلافات ، وشفاء هذا التصدع وعودة المياه إلى مجاريها . ومن المرجح أن أفودية وسنتيخي كانتا سيدتين بارزتين فى الكنيسة ، وكانت الاجتماعات الدينية تعقد فى بيتهما .

ومن الأمور الممتعة حقاً أن نرى النساء يقمن بدور القيادة فى تدبير الشئون الخاصة بالكنيسة فى بعض الاجتماعات الروحية . وكان مقام المرأة الاجتماعى يختلف من بلد إلى بلد . ففى اليونان كانت النساء متخلفات . وكان من تقاليدهم أن السيدة المحترمة تنظر وتسمع وتسأل أقل قدر ممكن من النظر والسمع والسؤال . ولم يسمح لها أبداً أن تمشى فى الشوارع وحدها ، كما أنه كان لها فى البيت حجرتها الخاصة بها . ولم يكن لها أن تختلط مع أفراد العائلة من الرجال حتى لتناول الطعام . وبطبيعة الحال لم يكن لها شأن فى الحياة العامة . أما فى مقدونية فكانت الأوضاع تختلف . وفيلبى كانت فى مقدونية التى كان لنسائها حرية ومكانة فى المجتمع بعكس ما كانت عليه المرأة فى اليونان . ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فى القصة التى دونها سفر الأعمال عن عمل بولس فى مقدونية . ففى فيلبى كان اتصاله الأول باجتماع للصلاة عند شاطىء النهر ووعظ النساء اللواتى اجتمعن هناك (أعمال ١٦ : ١٣) وكانت ليدية شخصية بارزة فى فيلبى (أعمال ١٦ : ١٤) وفى تسالونيكى آمن عدد كبير من النساء الشريفات بالمسيح ، وهذا ما حدث أيضاً فى بيرية (أعمال ١٧ : ٤ ، ١٢) وشهادة الآثار تثبت مكانة المرأة فى تلك البلاد فالزوجة كانت تبنى مقبرة لنفسها ولزوجها من مكاسبهما المشتركة . . ولابد أنها كانت تمارس أعمالا تتكسب منها . ونجد أيضاً آثاراً تذكارية للنساء العاملات تقيمها لهن الهيئات العامة اعترافاً بخدماتهن وعلى النقيض من ذلك ما كانت عليه المرأة فى كورنثوس . إذ كان عليها أن ترضى بالوجود فى مكان الطاعة والخضوع . ويجدر بنا أن نذكر ذلك عندما ندرس موقف بولس بإزاء النساء فى الكنيسة الأولى حيث كان مقام المرأة الاجتماعى يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر . وكيف كان بولس يعالج كل موقف على حدة بالحكمة الإلهية المعطاة له من الله .

ومن حقنا أن نتساءل : من هو هذا الشريك المخلص الذى يطلب إليه أن يساعد هاتين الأختين ويجمع شملهما معاً ؟ اختلفت الآراء كثيراً فى تحديد هذا الشخص . فمن قائل إنه تيموثاوس ، أو سيلا ، أو راعى كنيسة فيلبى . ومن قائل إن هذا الشريك المخلص اسم علم من الأعلام وجاءت صفاته متطابقة لاسمه فكان إسماً على مسمى . لكن أرجح الآراء وأقربها إلى الصواب أن هذا الشريك المخلص هو أبفرودتس حامل الرسالة إلى الإخـــوة ، وأن بولس لم يأتمنه فقط على تبليغ الرسالة بل على عودة السلام فى كنيسة فيلبى بين هاتين الأختين المجاهدتين اللتين شوهتا جهادهما بالتخاصم والتنابذ .

ويهمنا الآن أن نأخذ درسين عظيمين .

١ ـــ من الأمور الجديرة بالملاحظة أن ترى اهتمام بولس بإعادة العلاقات بين المتخاصمين فى الكنيسة . بمجرد أن سمع بولس أن هناك شقاقاً فى الكنيسة ، حتى جند كل إمكانيات الكنيسة لإصلاحه ، ولم يدخر بولس جهداً فى سبيل الاحتفاظ بسلام الكنيسة . إن الكنيسة المتخاصمة هى كنيسة أخرجت المسيح خارجاً ولم تسمح له بدخولها . ولا يستطيع إنسان أن يكون فى سلام مع الله وهو فى خلاف وخصام مع إخوته .

٢ ـــ إنه شىء محزن أن كل الذى نعرفه عن أفودية وسنتيخى أنهما كانتا تتشاجران معاً . وهذه المشاجرة قد غطت على الجهاد الذى كان لهما فى خدمة الإنجيل . ولنفرض أن حياتنا لخصت فى عبارة واحدة فماذا تكون هذه العبارة يا ترى . ولنفرض أننا سندخل التاريخ بعمل واحد منسوب إلينا فماذا يكون هذا العمل ؟ إن هذا الشريك المخلص قد دخل التاريخ كصانع للسلام . أما أفودية وسنتيخى فقد دخلتا كصانعتين للخصام .

وأى حكم موجز فى عبارة واحدة يمكن أن نلخص به حياتنا فى العالم وفى الكنيسة ؟

من صفات الحياة المسيحية

اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ وَأَقُولُ أَيْضًا افْرَحُوا لِيَكُنْ حِلْمُكُمْ مَعْرُوفًا عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ . الرَّبُّ قَرِيبٌ .

(فيلبى ٤ : ٤ ، ٥)

يضع بولس هنا أمام الفيلبيين صفتين عظيمتين من صفات الحياة المسيحية .

١ — الصفة الأولى هي صفة الفرح الدائم « افرحوا ... وأقول أيضاً افرحوا » كأني بالرسول وهو يقول « افرحوا » ، ارتسمت في ذهنه فجأة صورة ما سيحل به وبهم من أحداث . فهو مقيد في سجنه ، ويكاد الموت المحقق يقترب منه ، والإخوة الفيلبيون وضعوا أقدامهم في طريق الحياة المسيحية ولابد أن الأيام المظلمة من أخطار واضطهادات آتية إليهم لا محالة . ولهذا يقول بولس « أنا أقصد ما أقول . لقد خطر ببالي كل ما يمكن أن يحدث ومع ذلك فلا أزال أقول — افرحوا » إن الفرح المسيحي لا يعتمد على أي شيء أرضي ولا على كل الأشياء مجتمعة معاً لأن الفرح المسيحي يستمد مصدره من الحضور الدائم للرب يسوع . إن المحبين سعداء دائماً عندما يجتمعون معاً بغض النظر عن المكان الذي يجمعهم . وهذا هو السبب الذي لأجله لا يقدر المسيحي أن يفقد فرحه لأنه لايقدر أن يفقد يسوع المسيح .

٢ — والصفة الثانية هي صفة الحلم مع جميع الناس . ويمضي الرسول قائلا ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس . والكلمة في أصلها يصعب جداً وضع ترجمة حرفية لها . ومن الأفضل لنا أن نعرف استعمال كلمة « الحلم » عند اليونان أنفسهم . فكلمة « الحلم » في أصلها معناها « العدالة وشيء آخر أفضل من العدالة » . وقالوا إن هذه الصفة يجب أن تأتي في الحالات التي تكون فيها العدالة الكاملة ظلماً صارخاً بسبب عموميتها . فالقانون قد يكون في حد ذاته في منتهى العدالة ، ولكن هناك حالات تصبح فيها العدالة الكاملة ظلماً وإجحافاً ويتصف الإنسان بالحلم إذا عرف متى يضع القانون جانباً ويستعمل الرحمة . لنأخذ مثلا بسيطاً في ضرورة استعمال الحلم . وهو مثل يواجه العالم كل يوم تقريباً . أمامنا طالبان تصحح أوراق امتحانهما ونطبق عليهما العدالة فنجد أن الأول حصل على ثمانين في المائة بينما الآخر حصل على خمسين في المائة فقط . ومن وجهة نظر العدالة ليس هناك اعتراض على هذه الدرجات . ولكن لنذهب قليلا إلى أبعد من ذلك نجد أن الطالب الذي حصل على ثمانين درجة كان موفقاً في كل ظروفه ، فعنده المكتب ، وعنده الفراغ ، وعنده الهدوء للدرس ، وعنده الحجرة المستقلة وليس لديه مشاغل أو اضطرابات فكرية . وكل الظروف كانت مؤاتية له . ثم نجد أن الطالب الذي حصل على خمسين في المائة فقط يأتي من بيت فقير وليس له من معدات الراحة إلا المتاع الضئيل . أو ربما كان مريضاً

أو يعانى ألماً دفيناً أو لعلة كان يحوز أحزاناً ثقيلة أو ضغطت عليه ظروف قاهرة . وبالإجمال قد كانت الأحوال مضادة له . وبموجب العدالة لا يستحق هذا الطالب أكثر مما أخذ من درجات . ولكن عندما نمضى إلى ما هو أبعد من العدالة نرى أنه يستحق أكثر جداً مما أعطى له . وهذا هو الحلم وهو أن نعرف متى لا نأخذ بحرفية القانون .

وقد يجلس مجلس الكنيسة وأمامه كتاب سياسة الكنيسة . وكل قرار يتخذه المجلس قد يكون مستنداً على مادة من مواد القانون . ولكننا نعرف بالبديهة الحالات الكثيرة التى تخص الأفراد والكنيسة بوجه عام والتى يحسن فيها تنحية كتاب سياسة الكنيسة فلا يجب أن يعتبر دائماً صاحب الكلمة الأخيرة الفاصلة فى كل موضوع .

إن المسيحى — كما يعلمنا الوحى — هو الإنسان الذى يعرف أن هناك شيئاً آخر أبعد من العدالة وأفضل منها بمراحل .

وعندما جاءوا إلى يسوع بالمرأة التى أمسكت فى زنى ، كان ميسوراً ليسوع أن يطبق القانون بحذافيره على تلك المرأة ويأمر برجمها بالحجارة طبقاً لأحكام القانون الموسوى. ولكن يسوع ذهب إلى ماهو أبعد من العدالة . وكان حليماً معها وقال لها « اذهبى ولا تخطئى أيضاً » وبموجب العدالة ليس فينا من يستحق إلا الدينونة الإلهية الرهيبة العتيدة أن تكون . ولكن الله فى رحمته الواسعة ذهب معنا إلى ماهو أبعد من العدالة . ويعاملنا الله لا بموجب العدالة ولكن بحسب رحمته الكثيرة . إن الرسول بولس يقرر أن علامة المسيحى فى صلاته الشخصية مع إخوته يجب أن يعرف متى يطبق القانون ومتى يضع القوانين جانباً ، ويجب أن يذكر دائماً أن هناك شيئاً أفضل من العدالة . وهذا هو الشيء الذى يجعل الإنسان متمثلا بالله .

ولماذا يجب على المسيحى أن يتصف بالحلم ؟ ولماذا يتحلى المسيحى بصفة الفرح الدائم فى كل حين ، وبصفة الحلم مع جميع الناس ؟ السبب فى ذلك هو لأن الرب قريب . وإذا كنا نذكر دائماً النصرة النهائية للمسيح فلن يمكننا أن نفقد فرحنا أو رجاءنا . وإذا كنا نذكر أن هذه الحياة قصيرة ونهايتها قريبة فلن نتمسك بحرفية

القانون الذى كثيراً ما يفصل الناس عن بعضهم البعض ، بل نعامل الناس بالمحبة ، كما نرجو أن يعاملنا الله هكذا بالمحبة .

إن العدالة صفة بشرية لكن الحلم صفة إلهية .

سلام الصلاة المؤمنة

لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلٰوةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ . وَسَلَامُ اللهِ الَّذِى يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ .

(فيلبى ٤ : ٦ ، ٧)

كانت الحياة أمام الإخوة الفيلبيين مليئة بالمشاغل والاهتمامات من كل جانب ، وفضلا عن الاهتمامات الأخرى التى يتعرض لها كل إنسان بشرى ، أضيفت اليهم اهتمامات الحياة المسيحية . كان المسيحى العادى يضع حياته كل يوم فى يديه . والحل الوحيد الذى وضعه بولس للاهتمام هو الصلاة لأن السلام هو ثمرة الصلاة المؤمنة . وفى هذا الفصل نجد فى كلمات موجزة الفلسفة المسيحية الكاملة للصلاة .

١ — يؤكد بولس أن كل شيء يهمنا هو موضع اهتمام الله . قال أحدهم فأحسن القول « إنه لاشيء أعظم من أن تمتد اليه يد الله القادرة على كل شيء ، كما أنه لا شيء أصغر من أن تصل اليه عناية الله الأبوية » . إن الطفل يستطيع أن يخبر أبويه بكل صغير أو كبير إنه يوقن تماماً أن كل شيء يحدث له سيلقى من أبويه العناية الكاملة . إن فوزه الصغير وفشله الصغير ، وجروحه وصدماته العابرة ، والأشياء الكثيرة التى يحبها يستطيع ان يخبر والديه بها ولا يتطرق اليه الشك فى إصغاء والديه له . يجب ان نكون هكذا تماماً مع الله .

٢ — وبما ان الله يعاملنا هذه المعاملة الأبوية ، نستطيع إذن بالإيمان الواثق المطمئن أن نأتى بصلواتنا وأدعيتنا والتماساتنا إلى الله .

نستطيع أن نصلى لأجل أنفسنا . يمكننا أن نصلى من أجل غفران الماضى ، ومن أجل احتياجات الزمن الحاضر ، ومن أجل العون والإرشاد فى المستقبل . نستطيع أن نأخذ معنا ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا بكل خجلنا وبكل احتياجاتنا وبكل مخاوفنا إلى محضر الله .

ونستطيع أيضاً أن نصلى لأجل الآخرين . وفى ميسورنا أن نستودع بين يدى الله أحباءنا القريبين والبعيدين الذين لاتغيب اسماؤهم عن ذاكرتنا وعن قلوبنا .

٣ — ويذكر لنا بولس أيضاً أن الشكر ينبغى أن يكون ملازماً دائماً للصلاة . اعتقاد بولس الجازم أن كل صلاة ينبغى أن تحتوى على عنصر الشكر ، إن المسيحى يجب أن يشعر أن حياته كلها مغمورة بحسنات الله كما لو كانت معلقة بين بركات ماضيه وبركات حاضره . وكل صلاة ينبغى أن تتضمن بالتأكيد تشكرات كثيرة لأجل امتيازات الصلاة . ولا يجب علينا أن ننسى أبداً أفضال هذا الامتياز العظيم الذى يؤهلنا للمثول أمام عرش النعمة والإتيان بكل شىء إلى الله فى الصلاة . ويؤكد بولس أننا يجب أن نشكر الله فى كل شىء فى الضحك والدموع ، فى الأحزان والمسرات على حد سواء . وهذا الشكر يتضمن شيئين . يتضمن أولا العرفان بالجميل ويتضمن ثانياً الخضوع الكامل لإرادة الله . وعندما نقتنع تماماً أن الله يعمل كل الأشياء لخيرنا ، نستطيع والحالة هذه أن نشعر شعوراً حقيقياً بوجوب الشكر الدائم لله . وهذا ما تطالبنا به الصلاة المؤمنة الواثقة بالله .

وعند ما نصلى يجب أن نذكر دائماً ثلاثة أشياء . يجب أن نذكر محبة الله التى تطلب وترغب دائماً أفضل الأشياء لنا . كذلك يجب أن نذكر أن حكمة الله التى تعرف وحدها ما هى أفضل الأشياء لنا . ويجب علينا أيضاً أن نذكر قوة الله التى تستطيع وحدها أن تتمم أفضل الأشياء لنا .

وما هى نتيجة الصلاة المؤمنة الواثقة بالله ؟

إن نتيجة الصلاة المؤمنة أن سلام الله يحفظ قلوبنا وأفكارنا فى المسيح يسوع . والكلمة التى يستعملها لحفظ القلوب والأفكار كلمة حربية معناها « وقوف الجندى للحراسة » . إن سلام الله يقف كحارس مكلف بحراسة قلوبنا ويزجر أى شىء يشوه

جمال حضور المسيح . وهذا السلام الإلهى العجيب يفوق كل عقل . وليس المعنى المقصود هنا هو أن سلام الله سر عميق لايستطيع الإنسان أن يفهمه ، ولو أن هذا أيضاً هو الحق . إنما المعنى الذى يهدف إليه الرسول هو أن سلام الله ثمين جداً بحيث أن عقل الإنسان بكل حذقه ومهارته لا يستطيع أن يجده أو يصنعه . إن الإنسان يقف مكتوف اليدين ويعجز عجزاً تاماً عن الحصول عليه بنفسه . وهذا السلام لا يمكن أبداً أن يكون من اختراع إنسان . إنه فقط عطية الله .

إن الطريق إلى السلام هو أن نأتى بنفوسنا ، وبكل من تعزهم نفوسنا ، ونضع أحباءنا ، ونضع حياتنا جملة وتفصيلا فى الصلاة الواثقة المطمئنة بين يدى الله .

المجالات الحقيقية للفكر المسيحى

أَخِيرًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ كُلُّ مَا صِيتُهُ حَسَنٌ إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ فَفِي هٰذِهِ افْتَكِرُوا . وَمَا تَعَلَّمْتُمُوهُ وَتَسَلَّمْتُمُوهُ وَسَمِعْتُمُوهُ وَرَأَيْتُمُوهُ فِيَّ فَهٰذَا افْعَلُوا وَإِلٰهُ السَّلَامِ يَكُونُ مَعَكُمْ .

(فيلبى ٤ : ٨ ، ٩)

إن العقل البشرى يندفع دائماً بطبيعته للتفكير فى شىء ما . ولذلك أراد بولس أن يفكر الفيلبيون فى الأشياء الطيبة . وهذه النصيحة على أكبر جانب من الأهمية لأن من قوانين الحياة أن الإنسان إذا فكر فى شىء ما مدة طويلة من الزمن يصل إلى مرحلة لايقدر فيها أن يتوقف عن التفكير فى هذا الشىء . وتكون أفكاره فى حصار ضيق كما لو كانت فى أخاديد مستطيلة لا يستطيع أن يتخلص منها . لذلك كان من أول الواجبات على الإنسان أن يدفع أفكاره فى طريق الأشياء اللائقة . ولذلك يضع الرسول بياناً بالأمور الطيبة التى يجب أن تنشغل بها أفكار المؤمنين .

١ ـــ أول مجال من مجالات الفكر المسيحى هو الحق . وما أكثر الأشياء الخادعة والمضللة فى هذا العالم . فهى تعد بما لاتستطيع أن توفى به . وتلوح للإنسان بسلام عظيم وسعادة كاملة لكنها لاتستطيع أن تعطى مالوحت به . وعلى الإنسان أن يشغل أفكاره دائماً بالأشياء التى لاتخيب انتظاره ولا تكسر قلبه .

٢ ـــ والمجال الثانى للفكر المسيحى هو الجلال . والكلمة فى أصلها تقال للآلهة ولهياكل الآلهة أو للإنسان وهو ينتقل من مكان إلى مكان فى هذا العالم الواسع كما لو كان العالم كله هيكلا لله . إن الكلمة فى حقيقتها تصف الشىء الذى تكون عليه مسحة من جلال للقداسة ووقارها . وفى العالم أشياء تخلب النظر ببريقها ولكنها أشياء رخيصة تافهة لكن المسيحى يجب أن يفكر دائماً فى الأشياء الجادة المتزنة ذات الوقار والمهابة .

٣ ـــ والمجال الثالث للفكر المسيحى هو العدل . عرف اليونان الرجل العادل بأنه ذلك الإنسان الذى يعطى ما للآلهة للآلهة وما للناس للناس . ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى إن العادل هو الذى يواجه الواجب ويقوم بالواجب . وكثيرون من الناس لايفكرون إلا فى اللهو والمجون ، والأشياء السهلة والطرق السهلة . أما أفكار المسيحى فتسير دائماً فى طريق الواجب نحو الله والواجب نحو الناس .

٤ ـــ والمجال الرابع للفكر المسيحى هو مجال الطهارة . والكلمة فى أصلها تحمل معنى الطهارة الأدبية الخالية من كل ما يشينها . وعندما تستعمل فى الطقوس الدينية تفيد التقدمات النظيفة اللائقة بتقريبها إلى الله والصالحة لخدمة الله . وهذا العالم ملىء بالأشياء الخسيسة القذرة الفاجرة ، وكم من إنسان دفع عقله ، للتفكير فى مثل هذه الأشياء ولوث كل شىء خطر بباله . أما العقل المسيحى فهو ينتقل بتفكيره فى مملكة الطهارة . أفكاره دائماً نظيفة كأنها دائماً أمام عينى الله الفاحصتين اللتين تخترقان أستار الظلام .

٥ ـــ والمجال الخامس من مجالات الفكر المسيحى هو مجال الأشياء المسرة والكلمة فى أصلها تعنى عمل الأشياء التى تجلب المحبة . وهناك كثيرون لايفكرون إلا فى الانتقام والتشفى وهؤلاء ينظر إليهم الناس بمرارة وخوف . وهناك كثيرون لايفكرون إلا فى انتقاد الناس وذمهم وتقريعهم ولذلك ينفر منهم الآخرون .

ولا يستريحون إليهم . أما فكر المسيحى فينشغل دائماً بكل ما هو مسر كالشفقة ، والعطف ، والاحتمال ، والمحبة . ولذلك فلا غرابة إذا كان المسيحى شخصاً جذاباً وكل من يراه يحبه .

٦ — ومجال سادس من مجالات الفكر المسيحى هو مجال الصيت الحسن . والكلمة فى أصلها مرتبطة بالصمت المقدس عند بدء تقديم الذبيحة فى محضر الآلهة . ولا نذهب بالمعنى بعيداً إذا قلنا إنها تصف الكلام اللائق بالله أن يسمعه منا . والعالم ممتلىء بالكلمات القبيحة ، والكلمات الزائفة ، والكلمات النجسة . ولكن على شفتى المسيحى وفى فكره لا تكون إلا الكلمات التى تليق بالله ان يسمعها .

٧ — والمجال السابع من مجالات الفكر المسيحى هو مجال الفضيلة . ولعل الرسول يشير إلى الفضائل التى كانت فى العالم الوثنى . ومع أن فى العالم انحطاطاً ، ونجاسة ، لكن فيه أيضاً نبل وبطولة ، وتضحية ، وإيثار . وكأن الرسول يقول لأحبائه وفكروا فى حياتكم الماضية فى أحسن حالاتها لتأخذوا منها حافزاً يعينكم على السير فى المرتفعات الجديدة للحياة المسيحية . إن الفضائل — أينما وجدت — يجب أن يتجه إليها الفكر المسيحى .

٨ — والمجال الثامن من مجالات الفكر المسيحى هو مجال المدح . إن المسيحى لا يجب ان يسعى إلى اكتساب المديح من الناس . ولكن من الجانب الآخر لا يسعنا إلا أن نقول ان المسيحى ينتعش وترتفع روحه المعنوية عند سماعه المديح من الأبرار والمخلصين ذوى النيات الحسنة . ولذلك يقول بولس ان المسيحى يجب أن يحيا بكيفية لا تجعله يتهافت على المديح الذى تطلبه الكبرياء والإعجاب بالنفس ، ولا تجعله أيضاً يحتقر بغباوة مديح الناس الذين يركن إليهم ويعوّل على مديحهم .

التعليم الحقيق والإله الحقيق

فيلبى ٤ : ٨ ، ٩ (تابع)

فى هذا الفصل يرسم بولس لنا الطريق للتعليم الحقيق . وهذا التعليم الصحيح يأتى إلينا بواسطة التعلم ، والتسلم .

وهو يتحدث إلى الفيلبيين عن الأشياء التى سبق لهم أنهم تعلموها منه شخصياً .

وهى تتضمن تفسير الإنجيل وتوضيح الحق الذى بشرهم به بولس . وهو يتحدث إليهم أيضاً عن الأشياء التى تسلموها ، أى عقيدة الكنيسة التى سلمها لهم بولس . وإذا أردنا أن نعلم أو نعظ علينا أن نعرف العقيدة التى قبلتها الكنيسة ، وبعد ان تتشبع بها عقولنا وافكارنا ، علينا أن نسلمها للآخرين فى بساطتها وفى قوتها وبالوضوح الكافى الذى جاء نتيجة تفكيرنا واختبارنا .

لكن بولس يمضى إلى أبعد من ذلك . فهو يطلب من الفيلبيين أن يفعلوا ما سمعوه منه وما رأوه فيه . ومن المؤسف حقاً أن قلة ضئيلة من المعلمين والوعاظ يقدرون أن يقولوا مثل هذا القول . ولكن لا يختلف اثنان فى أن المثال الشخصى عنصر جوهرى من عناصر التعليم والوعظ . وعلى المعلم أن يمارس عملياً التعاليم التى ينادى بها ، ويجب أن يفعل الحق بحياته قبل أن يقوله بلسانه .

وأخيراً يقول بولس لأصدقائه الفيلبيين . إنهم إذا فعلوا كل هذا بأمانة ، فإن إله السلام سيكون معهم . ومن الأمور الممتعة حقاً أن ندرس ألقاب الله كما ذكرها بولس فى رسائله .

١ — الله هو إله السلام . وهذا هو اللقب الإلهى المفضل عند بولس (رو ١٦ : ٢٠ و ١ كو ١٤ : ٣٣ و ١ تس ٥ : ٢٣ وفى ٤ : ٩) ولم يكن السلام أبداً عند اليهودى شيئاً سلبياً . إنه ليس أبداً الخلو من المتاعب . السلام هو كل شيء يصل بالإنسان إلى الخير الأسمى . وعن طريق صداقة الله فقط يستطيع الإنسان أن يجد الحياة كما قصد الله بالحياة أن تكون . وكذلك للسلام معنى آخر عند اليهودى وهو قدرته على إيجاد العلاقات الطيبة . ومن طريق نعمة الله فقط يمكننا أن ندخل فى علاقات طيبة مع الله والناس . إن إله السلام هو القادر وحده أن يحقق الهدف من حياتنا وذلك عندما يعطينا القدرة على الحياة فى سلام معه ومع اخوتنا من الناس .

٢ — الله هو إله الرجاء (رو ١٥ : ١٣) . إن الإيمان بالله هو الشيء الوحيد الذى يحفظ الإنسان من اليأس . إن الإحساس بنعمة الله يقدر أن يحفظ الإنسان من اليأس من نفسه ، كما أن الإحساس بعناية الله الشاملة يقدر أن يحفظ الإنسان من اليأس من العالم المحيط به .

وكان المرنم القديم ينشد بروح الرجاء قائلا : «لماذا أنت منحنية يانفسى ؟ ترجى الله لأنى بعد أحمده خلاص وجهى وإلهى » (مزمور ٤٢ : ١١ و ٤٣ : ٥) .

الحق هو الحق ما دام الله هو الله

ولابد أن ينتصر الحق يوماً ما

إن الشك فى ذلك ما هو إلا خيانة

والتذبذب ما هو إلا خطية

إن الرجاء المسيحى هو رجاء لا يقهر ولا يتلاشى لأنه مؤسس على الإله السرمدى .

٣ ـــ الله هو إله الصبر والتعزية (رو ١٥ : ٥ و ٢ كو ١ : ٣) وعندنا الآن كلمتان عظيمتان : الصبر والتعزية .

والصبر لا يعنى أبداً مجرد الجلوس واحتمال الأشياء . إن المقصود به هو النهوض والانتصار على الأشياء . ليس معناه قبول الأوضاع ببساطة كما هى بل معناه قبولها وتغييرها إلى مجد . إن الله هو الذى يعطينا القـــدرة على الانتفاع بأى اختبار والاستفادة من أى وقت فى الحياة لكى يضفى عظمة ومجداً على الحياة . الله هو الذى يعلمنا أن نتنفع بالفرح وبالحزن ، بالنجاح وبالفشل ، بإنجاز الأعمال أو بالإخفاق فى الأعمال على حد سواء ، فتزداد الحياة غنى ونبلا من كل هذه الاختبارات . إن القصد الإلهى من هذه الاختبارات هو أن نكون أكثر نفعاً الآخرين ، وأكثر تقرباً إلى الله .

أما التعزية فهى كلمة « باركليسيس » اليونانية . وهى أبعد بكثير عن مجرد العطف والمواساة . إنما هى التعضيد والتشجيع . إنها المعونة الصادقة التى لا تكتفى بتطويق الإنسان بذراع الحنان ؛ لكنها تؤيده وتعضده لمواجهة المواقف الصعبة فى هذه الحياة . إنها لا تجفف الدموع من عينيه الباكيتين فقط لكنها تشد أزره على مواجهة العالم بعينين ثابتتين . إن كلمة « باركليسيس » هى التعزية والتقوية

بجتمعتين معاً . إن الله هو الإله الذى فيه و به نجد القوة للسير بشجاعة و بطولة عندما تتجهم الأيام فى وجوهنا .

٤ — الله هو إله المحبة والسلام (٢ كو ١٣ : ١١) ها قد جئنا الآن إلى اللب والجوهر . فمن وراء كل شيء تقف محبة الله. وهى المحبة التى لا تتخلى عنا قط . هى المحبة التى تتأنى علينا محتملة خطايانا . إنها المحبة التى لا تخرجنا خارجاً بأى حال من الأحوال . هى المحبة التى لا تضعفنا وتوهن قوانا بل تمدنا بالقوة العجيبة للكفاح والنضال فى هذه الحياة .

السلام ، والرجاء ، والصبر ، والتعزية ، والمحبة — هذه هى الألقاب العظيمة التى وجدها بولس فى الله . حقاً إن « كفايتنا هى من الله » (٢ كو ٣ : ٥).

سر الإكتفاء الحقيقى

ثُمَّ إِنِّى فَرِحْتُ بِالرَّبِّ جِدًّا لِأَنَّكُمُ الآنَ قَدْ أَزْهَرَ أَيْضًا مَرَّةً اعْتِنَاؤُكُمْ بِي الَّذِى كُنْتُمْ تَعْتَنُونَهُ وَلٰكِنْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ فُرْصَةٌ . لَيْسَ أَنِّي أَقُولُ مِنْ جِهَةِ احْتِيَاجٍ فَإِنِّى قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَكُونَ مُكْتَفِيًا بِمَا أَنَا فِيهِ . أَعْرِفُ أَنْ أَتَّضِعَ وَأَعْرِفُ أَيْضاً أَنْ أَسْتَفْضِلَ . فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ قَدْ تَدَرَّبْتُ أَنْ أَشْبَعَ وَأَنْ أَجُوعَ وَأَنْ أَسْتَفْضِلَ وَأَنْ أَنْقُصَ . أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِى يُقَوِّينِى .

(فيلبى ٤ : ١٠ — ١٣)

إذ تدنو الرسالة من نهايتها يعبر الرسول عن لمنانه للفيلبيين على الهدية التى أرسلوها إليه . وهو يعلم أنه كان دائماً فى أفكارهم وقلوبهم لكن الظروف لم تسمح لهم قبل الآن لإظهار اعتنائهم به .

ولم يكن شكره وفرحه بالهدية منبعثين من عدم رضاه بحالته الحاضرة ، لأنه كان قد درب نفسه على نعمة الإكتفاء . وهنا يستعمل الرسول للاكتفاء كلمة عظيمة فى الآداب الوثنية ومعناها الإكتفاء الذاتى الكامل . وكان الإكتفاء الذاتى عند الفلاسفة الرواقيين أسمى ما تصبو إليه نفوسهم . وكانوا يقصدون بالإكتفاء حالة عقلية يكون فيها الإنسان مستقلا استقلالا تاماً ومطلقاً عن كل الناس وعن كل الأشياء . وكان الرواقى يصل إلى حد الإكتفاء بواسطة أسلوب عقلى معين يروض نفسه عليه . وهذه هى خطوات المنهاج العقلى عند الرواقى .

١ — كان يجتهد أن يتخلص من كل رغبة فلا يميل إلى أى شىء . كان الرواقى يعتقد أن الإكتفاء ليس عن طريق امتلاك الكثير بل هو فى الحاجة إلى القليل . وكانوا يقولون « إذا أردت أن تجعل إنساناً سعيداً فلا تزد من ممتلكاته بل انقص من رغباته » . سئل مرة سقراط « من هو أغنى الناس » ؟ فأجاب « هو المكتفى بأقل الأشياء ، لأن الإكتفاء هو ثروة الطبيعة » . كان الرواقى يؤمن أن الطريق الوحيد للإكتفاء هو فى إلغاء كل رغبة حتى يصل الإنسان إلى مرحلة يرى فيها أنه لا إنسان من الناس ولا شىء من الأشياء لازم له .

٢ — ثم يدخل الرواقى بعد ذلك إلى مرحلة أخرى . كان يجتهد أن يتخلص من كل عاطفة ومن كل شعور حتى يصل فى النهاية إلى حالة لايبالى فيها إطلاقاً بما يحدث له أو بما يحدث لغيره . ويقول « أبيكتيتوس » « إبدأ بفنجان أو بأية أداة من الأدوات المنزلية . فإذا انكسرت قل « لا أبالى » . ثم مارس هذه العادة مع حصان لك أو كلب عزيز لديك . فاذا حدث له حادث ، قل « لايهمنى أمره » . وأخيراً تعال إلى نفسك . فإذا جرحت أو أصابك أذى ، فاكظم غيظك وقل « هذا أيضاً لا يهمنى » وإذا مارست هذه العادة مدة طويلة ، وجاهدت فى التدرب عليها ستأتى إلى المرحلة التى لاتبالى فيها بموت أعز الناس لديك » . كان هدف الرواقى أن يميت كل العواطف ويقتل كل المشاعر فى نفسه .

٣ — وكيف كان فى ميسوره أن يصل إلى هذا الهدف ؟ كان يحقق هذا الهدف بعمل إيجابى للإرادة ، إذ كان يرى فى كل شىء إرادة الله . كان الرواقى يؤمن إيماناً حرفياً أنه لا يحدث شىء له أو لغيره إلا بإرادة الله . وكيفما كان الحادث مؤلماً أو قاتلا فهو إرادة الله . فكان إذن من العبث محاربة الإرادة الإلهية . وما على الإنسان إلا أن يريد ما يريده الله . وليس فى طاقته أن يتقى شراً أو يعالج مشكلة ما دام كل شىء بإرادة الله .

وفى سبيل الوصول إلى الإكتفاء ، قضى الرواقى على كل الرغبات ، وأبطل كل العواطف ، ونزع جذور المحبة انتزاعا من الحياة ، وامتنع عن الاعتناء بالآخرين امتناعاً باتاً . وفى هذا الصدد يقول « كلوفر » جعل الرواقى من القلب صحراء مجدبة ودعاها سلاماً .

ونستطيع أن نرى لأول وهلة الفرق الواضح بين الرواقيين وبين مسلك بولس فى أمر الاكتفاء . قال الرواقى « سأتعلم الاكتفاء بعمل حاسم وتصميم جازم بإرادتى أستطيع كل شىء بإرادتى » أما بولس فيقول « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » كان الإكتفاء عند الرواقى عملا بشرياً ، أما الإكتفاء عند المسيحى فهو هبة إلهية . كان الرواقى مكتفياً بذاته ، أما المسيحى فهو مكتف بالله . فشلت الرواقية لأنها منافية للإنسانية ، ونجحت المسيحية لأنها تغذى وترقى العواطف الإنسانية وفى نفس الوقت فإن جذورها متأصلة فى الله . استطاع بولس أن يواجه بشجاعة وثبات أى موقف فى الحياة . استطاع أن يواجه الحياة فى حالتى العسر واليسر. وسيان عنده كلا الحالتين لأنه فى كل موقف كان المسيح يسوع له واتخذ الرب نصيبه . إن الإنسان الذى يسير مع المسيح ويحيا فى المسيح يستطيع أن يكافح أى شىء يواجهه فى الحياة وينتصر .

قيمة الهدية

غَيْرَ أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ حَسَنًا إِذِ اشْتَرَكْتُمْ فِي ضِيقَتِي . وَأَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْفِيلِبِّيُّونَ أَنَّهُ فِي بَدَاءَةِ الإِنْجِيلِ لَمَّا خَرَجْتُ

مِنْ مَكِدُونِيَّةَ لَمْ تُشَارِكْنِي كَنِيسَةٌ وَاحِدَةٌ فِي حِسَابِ الْعَطَاءِ وَالأَخْذِ إِلَّا أَنْتُمْ وَحْدَكُمْ . فَإِنَّكُمْ فِي تَسَالُونِيكِي أَيْضاً أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ لِحَاجَتِي . لَيْسَ أَنِّي أَطْلُبُ الْعَطِيَّةَ بَلْ أَطْلُبُ الثَّمَرَ الْمُتَكَاثِرَ لِحِسَابِكُمْ . وَلَكِنِّي قَدِ اسْتَوْفَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَاسْتَفْضَلْتُ . قَدِ امْتَلأْتُ إِذْ قَبِلْتُ مِنْ أَبَفْرُودِتُسَ الأَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ عِنْدِكُمْ نَسِيمَ رَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ ذَبِيحَةً مَقْبُولَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ . فَيَمْلأُ إِلَهِي كُلَّ احْتِيَاجِكُمْ بِحَسَبِ غِنَاهُ فِي الْمَجْدِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ . وَلِلَّهِ وَأَبِينَا الْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدَّاهِرِينَ . آمِينَ .

(فيلبي ٤ : ١٤ — ٢٠)

كان لكرم كنيسة فيلبي مع بولس تاريخ طويل . ونحن نقرأ في أعمال ١٦:١٧ كيف كرز بولس بالانجيل في فيلبي ثم انتقل إلى تسالونيكي وبيريه . ومنذ ذلك التاريخ وكنيسة فيلبي تقدم البرهان العملي لمحبتها الدائمة لبولس . وكان لبولس مع كنيسة فيلبي علاقة تمتاز عن علاقته بأية كنيسة أخرى . إذ لم يقبل من أية كنيسة هدية أو مساعدة وكان هذا الموقف هو الذي هيج وأزعج كنيسة كورنثوس (٢ كو ١١ : ٧ — ١٢) كانت بينه وبينهم رابطة لم تكن بينه وبين كنيسة أخرى .

ثم يقول بولس بشأن الشكر على عطيتهم قولا جميلا . يقول « إن ماأرغبه ليس العطية المرسلة منكم إلىّ . من أن عطيتكم قد أثلجت صدرى ولمست شغاف قلبي . وفي الواقع أنا لست في حاجة إلى شيء لأن عندى الكفاية وما فوق الكفاية . ولكني مسرور لأنكم أعطيتموني عطية تضاف لحسابكم عند الله . إن شفقتكم وعنايتكم وكرمكم سيكافئكم الله عليه خير المكافأة » . إن كرمهم قد سره كثيراً لا لمصلحته

الشخصية ولكن لمصلحتهم الزمنية والأبدية . ثم يستعمل الرسول كلمات جميلة تتحول بها عطية الفيلبيين من هدية لبولس إلى ذبيحة لله . فهو يدعوها «نسيم رائحة طيبة ، ذبيحة مقبولة مرضية عند الله» . وهذا هو التعبير الذى كانت توصف به فى العهد القديم الذبيحة التى تحظى بالقبول عند الله ، كما لو كانت للذبيحة رائحة سرور للرب (تك ٨ : ٢١ ولا ١ : ٩، ١٣، ١٧) ولم يكن سرور بولس بالعطية فيما فعلته له ولكن فيما فعلت لله ، ليس لأنه لم يقدر العطية فى حد ذاتها ، ولا لأنه لم يقدرها بالنسبة لما أسعفته به ، ولكن فرحه الأعظم هو أن عطية كنيسة فيلبى له ، والمحبة التى وقفت من ورائها ، كانتا غاليتين جداً فى نظر الله .

وأخيراً يختم بولس هذا الفصل بعبارة مليئة بالتشجيع فيقول : «فيملأ إلهى كل احتياجكم بحسب غناه فى المجد فى المسيح يسوع» إن بولس يريد أن يقرر أن العطية الأمينة السخية لا تجعل صاحبها فقيراً . إن ثروة الله تكون فى متناول الذين يحبون الله ويحبون إخوتهم . إن المعطى المسرور لا يزداد فقراً بل هو فى الواقع يزداد غنى ، لأن عطيته تفتح له الطريق إلى عطايا الله وتمهد له السبيل إلى غنى المسيح الذى لا يستقصى .

التحيات الختامية

سَلِّمُوا عَلَى كُلِّ قِدِّيسٍ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ . يُسَلِّمُ عَلَيْكُمُ الإِخْوَةُ الَّذِينَ مَعِي . يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ جَمِيعُ الْقِدِّيسِينَ وَلاَ سِيَّمَا الَّذِينَ مِنْ بَيْتِ قَيْصَرَ . نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِكُمْ . آمِين .

(فيلبى ٤ : ٢١ — ٢٣)

هكذا تصل الرسالة إلى نهايتها بالتحيات القلبية . وفى هذا الفصل الختامى يذكر بولس عبارة جميلة ممتعة . إنه يرسل التحيات الخاصة من الإخوة المسيحيين الذين هم

من بيت قيصر. ومن الأهمية أن نفهم هذه العبارة على حقيقتها . إنها لاتعنى أفراداً من عائلة قيصر أو من ذوى قرباه . إن بيت قيصر كان التعبير المألوف لما يمكن أن يسمى اليوم برجال الحكومة . فموظفو القصر ، ورجال السكرتارية ، والمكلفون بالإشراف على أموال الإمبراطورية ، والمسئولون عن الإدارة المحلية ، وحراس الأمن ، كل هؤلاء الموظفين الكثيرى العدد كان يطلق عليهم جميعاً « بيت قيصر » . ومن الممتع حقاً أن نعرف أن المسيحية حتى فى أيامها الأولى استطاعت أن تشق طريقها إلى مركز الحكومة الرومانية . ومن بين هؤلاء الذين كانت لهم السلطة والنفوذ فى الإمبراطورية المتسعة الأرجاء ، كان للمسيحية أتباع مخلصون . ولعلنا لانجد عبارة أكثر من هذه العبارة التى ترينا كيف دخلت المسيحية إلى أعظم مناصب الإمبراطورية . وكان هذا قبل أن تصير المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بمدة ثلثمائة سنة . ولكن من هذه العبارة نرى بوادر الانتصار النهائى للمسيح قد بدأت فى الظهور . إن النجار الجليلى المصلوب قد بدأ يحكم الذين كانوا يحكمون أعظم إمبراطورية فى العالم .

وتختم الرسالة بالقول « نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم » كان الفيلبيون قد أرسلوا عطيتهم لبولس — ولم يكن لدى بولس إلا عطية واحدة يرسلها لهم — هى بركته لهم باسم الرب . ولكن أية عطية يمكننا أن نقدمها لأى إنسان أعظم من أن نذكره فى صلواتنا ، ونطلب له البركة من إله كل بركة ومصدر كل نعمة ؟

رسالة كولوسي

مقدمة رسالة كولوسى

١ — مدن وادى نهر ليكوس

على بعد مائة ميل من مدينة أفسس ، فى وادى نهر ليكوس ، وبالقرب من التقائه بنهر مياندر ، كانت تقع قديماً ثلاث مدن مهمة وهى لاودكية وهيرابوليس وكولوسى . وكانت هذه المدن قديماً تابعة لإقليم فريجية ولكنها الآن صارت جزءاً من ولاية آسيا الرومانية . وكانت تقرب إحداها من الأخرى على مدى النظر . وكانت مدينتا هيرابوليس ولاودكية على كلا الجانبين من وادى نهر ليكوس وهو يشق طريقه بينهما . ولم تزد المسافة بينهما عن ستة أميال . وكان يتاح لكل مدينة أن ترى الأخرى رؤية كاملة . أما المدينة الثالثة وهى كولوسى فقد ابتعدت عن النهر مسافة اثنى عشر ميلا .

وكان لوادى نهر ليكوس خاصيتان كبيرتان :

١ — كان مشهوراً بالزلازل . وصف المؤرخ الرومانى سترابو « أرضه بأنها تربة صالحة للزلازل » وكانت لاودكية عرضة لتدمير الزلزلة لها أكثر من مرة . ولكنها كانت من الغنى والاستقلال بحيث استطاعت أن تنهض من الخرائب من غير حاجة من المعونة المالية التى قدمتها لها الحكومة الرومانية . وكما كتب يوحنا عنها فى سفر الرؤيا ، كانت فى عينيها غنية وليست بها حاجة إلى شىء (رؤيا ٣ : ١٧) .

٢ — كانت مياه نهر ليكوس وفروعه مشبعة بالطباشير الذى تجمع على امتداد الإقليم فكون منظراً من أعجب المناظر الطبيعية . ويكتب « لا يتفوت »

وصفاً لهذا الإقليم فيقول « إن الآثار القديمة مدفونة فى جوف الرمال ، والأرض الخصبة مغطاة بطبقة من الطباشير ، وإن مجارى الأنهار خنقتها هذه الرواسب وغيرت اتجاهها ، وتكونت المساقط المائية والأفواس الحجرية بفعل هذه القوة العجيبة — الخالقة والهادمة فى آن واحد — والتى تعمل فى صمت على مدى العصور والأجيال . وتنتشر هذه القشور فوق الأرض وتلفها كأنها أكفان الموتى فتقتل الخضروات ، وتجذب مناظرها الخلابة عين المسافر من على بعد عشرين ميلا .

٢ — اقليم واسع الثراء

وبالرغم من هذه العوامل ، فإن الإقليم كان غنياً . واشتهر بصناعتين مرتبطتين معاً ارتباطاً كاملا . وليس فى الأمر غرابة فإن الأرض البركانية هى أرض خصبة دائماً . وفضلا عن ذلك فإن المساحات التى لم تغطها القشرة الطباشيرية كانت أرض مراع فى غاية الخصوبة ، وعلى هذه المراعى ارتعت قطعان كبيرة من الأغنام ، وكان الإقليم كله يعد من أعظم المراكز الصناعية للصوف فى كل العالم . وكانت لاودكية بنوع خاص ذات شهرة ذائعة فى صناعة الملابس الفاخرة . وكانت الصناعة المرتبطة بها هى الصباغة ، وكان فى تلك المياه الطباشيرية خاصية تناسب صبغ الملابس ، وكانت مدينة كولوسى ذات شهرة فائقة فى تلك الصناعة ، وكان نوع معين من هذه الأصباغ يحمل اسمها ولأجل هذه الأسباب ، قامت تلك المدن الثلاث فى إقليم يتدين بأهمية جغرافية معينة وبرخاء تجارى كبير .

٣ — المدينة الخاملة الذكر

كان لهذه المدن الثلاث فى بادىء الأمر أهمية متساوية ، ولكن على مر السنين افترقت كل مدينة عن الأخرى ، فصارت لاودكية المركز السياسى والمالى لكل الإقليم وكانت ذات ثراء عريض . وصارت هيرابوليس مركزاً صناعياً عظيماً وينبوعاً مشهوراً للمياه المعدنية ، وفى تلك المساحة البركانية نشأت فجوات تدفقت منها الينابيع والأبخرة الساخنة التى اشتهرت بخواصها الطبية . وهرع الناس أفواجاً إلى هيرابوليس يستحموا فيها ويشربوا من مياهها .

وكانت مدينة كولوسى فى وقت من الأوقات على قدم المساواة مع المدينتين الآخريين وقامت من خلفها سلسلة كدموسى الجبلية وابتدت منها الطرق المتسعة إلى الممرات الجبلية . وكان أحشويرش وكورش كلاهما يتوقفان بجيوشهما الغازية هناك . وقد دعاها « هيرودتس » مدينة فريجية العظيمة ، ولكن لسبب أو لآخر زال عنها المجد . ويمكننا أن نتصور إلى أى مدى زال هذا المجد من أن هيرابوليس ولاودكية تتميزان بالأطلال العظيمة التى لا تزال قائمة إلى اليوم . ولكن على النقيض من ذلك ليس هناك حجر واحد يدل على موقع مدينة كولوسى ، ولا يستدل على مكانها إلا بالحدس والتخمين . وحتى عندما كتب بولس رسالته إليها كانت مدينة صغيرة . ويقول عنها « لايتفوت » إنها أصغر مدينة كتب لها بولس الرسول رسالة. ولكن تظل الحقيقة باقية وهى أن مدينة كولوسى هذه قامت ضلالة لو سمح لها بالإنتشار لكان من المحتمل أن تهدم الإيمان المسيحى وتقلبه رأساً على عقب .

٤ — اليهود فى فريجية

هناك حقيقة أخرى يجب إضافتها لتكون لدينا صورة كاملة للموقف . قامت هذه المدن فى مساحة كثر فيها عدد اليهود بين السكان بشكل ملحوظ . وقبل هذا التاريخ بسنين عديدة نقل أنطوخيوس الكبير « ألفى عائلة يهودية من بابل وما بين النهرين إلى إقليمى ليديه وفريجية . واستقر اليهود هناك وحصلوا على قسط كبير من الثراء . وكما يحدث عادة فى حالات مماثلة جاء عدد كبير من مواطنيهم ليشاركوهم هذا الثراء . وقد ازداد عدد اليهود المهاجرين من فلسطين إلى الحد الذى نعى فيه غلاة اليهود على هؤلاء التاركين أرض آبائهم سعياً وراء « خمور وحمامات فريجية » .

وفى ميسورنا أن نقدر عدد اليهود الذين نزحوا إلى هناك من الحادثة التاريخية التالية. كانت لاودكية كما ذكرنا آنفاً المركز الإدارى للإقليم. وفى عام ٦٢ ق . م كان الحاكم الرومانى « فلاشيوس » مقيماً هناك وأراد أن يوقف نشاط اليهود فى إرسال الأموال خارج فريجية كضريبة للهيكل. وأصدر قراراً بمنع إرسال نقود خارج الإقليم . وفى القطاع الذى كان يحكمه ، استطاع أن يضع يده على الأموال المهربة إلى أورشليم ولم تكن أقل من عشرين جنيهاً ذهباً . وهذا المبلغ كان يمثل ضريبة الهيكل لأحد عشر ألفاً من اليهود . وبما أن النساء والأطفال كانوا معفين من الضريبة ، ولا يستبعد أن يهوداً كثيرين أمكنهم أن يهربوا أموالهم فيكون عدد السكان اليهود حوالى خمسين ألف شخص .

٥ — الكنيسة فى كولوسى

لم تكن الكنيسة المسيحية فى كولوسى من الكنائس التى أسسها بولس ولم يقم بزيارة واحدة لها . وهو يضع أهل كولوسى ولاودكية فى قائمة الأشخاص الذين لم يروا وجهه بالجسد (٢ : ١) ولكن بلا شك كان تأسيس الكنيسة بتوجيه من بولس وفى أثناء الثلاث السنوات التى أقامها بولس فى أفسس ، بشر كل إقليم آسيا بالإنجيل حتى سمع كل السكان من يهود ويونانيين كلمة الرب (أعمال ١٩ : ١٠) . وكما رأينا سابقاً كانت كولوسى تقع على بعد مائة ميل من أفسس . وحدث فى تلك الحملة التبشيرية لامتداد الإنجيل أن كنيسة كولوسى تأسست . ولا نعرف من كان مؤسس الكنيسة فى كولوسى ولكن يرجح أن يكون أبفراس الذى يوصف بأنه شريك بولس والخادم الأمين للكنيسة فى كولوسى والذى يرتبط إسمه فيما بعد بالعمل فى هيرابوليس ولاودكية (١ : ٧ ، ٤ : ١٢ ، ١٣) وإذا لم يكن أبفراس مؤسس الكنيسة المسيحية هناك ، فبالتأكيد كان هو الخادم المسئول فى تلك المنطقة .

٦ — كنيسة أممية

وواضح أن كنيسة كولوسى كانت غالباً من الأمم . وأن التعبير « غرباء وأعداء فى الفكر » (١ : ٢١) كان هو نفس التعبير الذى اعتاد بولس أن يطلقه على أولئك الذين كانوا غرباء عن عهود الموعد . وفى كولوسى ١ : ٢١ يتكلم عن سر المسيح الذى صار معروفاً بين الأمم ، كانت الإشارة واضحة إلى أهل كولوسى أنفسهم وفى ٣ : ٥ — ٧ يذكر قائمة بخطاياهم قبل أن يصيروا مسيحيين ، أن نستنتج أن الكنيسة فى كولوسى كان معظمها من الأمم .

٧ — خطر يهدد الكنيسة

ولابد أن يكون أبفراس الذى حمل إلى بولس وهو سجين فى رومية أنباء الموقف الذى كان يزداد انتشاراً فى كولوسى وكانت معظم الأخبار التى حملها أبفراس طيبة وسارة ، مما أوجب على بولس أن يشكر الله من أجل إيمانهم فى المسيح ومحبتهم للقديسين (١ : ٤) وهو يفرح لأجل الثمر المسيحى الذى يظهرونه (١ : ٦) ولقد جاء أبفراس إليه بأخبار محبتهم فى الروح (١ : ٨) وهو يغتبط لسماعه بترتيبهم ومتانة إيمانهم (٢ : ٥) ولكن كانت هناك متاعب فى كنيسة كولوسى ، وإن لم تأخذ هذه المتاعب بعد شكلا وبائياً . كان هناك خطر يهدد الكنيسة، وإذا لم يبادروا

بمقاومته قد يصل إلى حد التخريب والتدمير . وكان اعتقاد بولس أن الوقاية خير من العلاج وفى هذه الرسالة يضع بولس يده على الشر قبل أن يستفحل خطره وينتشر ضرره .

٨ — الضلالة فى كولوسى

ما هى هذه الضلالة التى كانت تهدد حياة الكنيسة فى كولوسى ؟ إن أحد لايستطيع أن يحدد ماهية هذه الضلالة . إنها إحدى المشاكل الكبرى عند علماء العهد الجديد . وكل ما نستطيع أن نفعله هو الرجوع إلى الرسالة نفسها والبحث عن الدلائل التى تشير إليها . وسنضع قائمة بهذه الخصائص التى تميزت بها الرسالة ولعلنا نستطيع أن نضع أيدينا على جذور تلك الضلالة .

١ — لابد أن الضلالة هاجمت الكفاية الكلية والتفوق الفريد للمسيح . وليس فى أى رسالة أخرى من رسائل بولس ما لهذه الرسالة من التقدير الأعظم ليسوع المسيح والتمسك الشديد بكماله المطلق وأن كلمته هى الكلمة الأخيرة والختامية . إن يسوع المسيح هو صورة الله غير المنظور الذى فيه يحل كل الملء (١ : ١٥ ، ١٩) وهو مذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم (٢ : ٢) وفيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (٢ : ٩) وليست هناك دعاوى نسبت إلى المسيح بحق أعظم مما جاءت به هذه الرسالة .

٢ — ولابد لنا أن نلاحظ أيضاً أن بولس يخرج عن طريقه المألوف لكى يعلق أهمية كبرى على الدور الذى قام به المسيح كخالق للخليقة ، إذ أن به قد خلقت كل الأشياء (١ : ١٦) وفيه تقوم كل الأشياء (١ : ١٧) كان الإبن أداة الآب فى خلق الكون .

٣ — ومع ذلك فإن بولس يخرج عن أسلوبه المعتاد أيضاً ليؤكد ناسوت المسيح الحقيقى — فى جسده ودمه البشريين الحقيقيين . وفى جسم بشريته تم عمله الفدائى (١ : ٢٢) إن ملء اللاهوت يحل فيه جسدياً (٢ : ٩) وفى كل لاهوته كان ليسوع المسيح جسده البشرى الحقيقى .

٤ — ويبدو أن هذه الضلالة كانت تشتمل على عنصر من عناصر التنجيم . ففي العدد الثامن من الأصحاح الثاني يقول إنهم كانوا يسلكون بحسب أركان هذا العالم . ويقول أيضاً في العدد العشرين من الأصحاح نفسه إنهم كان ينبغي أن يموتوا عن أركان هذا العالم . ولهذه الكلمة « أركان » في أصلها اليوناني معنيان (أ) المعنى الأساسي هو صف من الأشياء ويمكن استعمالها مثلا لطابور من الجنود أو الحروف الأبجدية الموضوعة بالترتيب كأنها صف منتظم ومن هذا المعنى خرج معنى الأركان أو الخطوات الأولى لأي موضوع . وبهذا المعنى يريد بولس أن يقول إن أهل كولوسي يتراجعون إلى العناصر الأولى للمسيحية بينما كان يجب أن يتقدموا إلى النضوج (ب) لكننا نظن أن المعنى الثاني هو الأقرب إلى الصواب ويقصد به الأرواح العنصرية للعالم وخصوصاً أرواح النجوم والكواكب وكان يسيطر على العالم القديم الاعتقاد بتأثير النجوم . اعتقد العالم القديم أن الناس والأشياء في قبضة اليد الحديدية للقضاء والقدر ، هذه اليد التي تتحكم فيها النجوم وترسم مصائر الناس . وكان علم التنجيم يدعي أنه يزود الناس بكلمات السر التي تنجيهم من الاستعباد لأرواح العالم العنصرية . ومن المحتمل جداً أن أهل كولوسي تمسكوا بهؤلاء المعلمين الكذبة الذين كانوا يعلمونهم عن حاجتهم إلى شيء آخر غير المسيح ليخلصهم من العبودية لأرواح العالم العنصرية وللنجوم .

٥ — ونادت هذه الضلالة بقوات الأرواح الشيطانية . وفي الرسالة إشارات كثيرة عن الرئاسات والسلاطين وهي الأسماء التي استخدمها بولس لهذه الأرواح (١:١٦و٢:١٠و٢:١٥) وكان الاعتقاد بالقوات الشيطانية عند الناس قديماً بصورة لا يداخلها ريب . وكان الهواء مليئاً بهذه الأرواح . وكل قوات الطبيعة كالريح والرعد ، والبرق ، والمطر ، كان لها رئيس من الشياطين . وكان لكل مكان ، ولكل نهر ، ولكل بحيرة الروح المشرف والمسيطر عليها . وكان الجو مشبعاً بتلك الأرواح .

وكانت هذه الأرواح — بمعنى من المعاني — وسائط تقرب الناس إلى الله . وكانت — بمعنى آخر — تحول دون الوصول إلى الله لأن الأغلبية الساحقة لتلك الأرواح في عداء مع الناس . وعاش العالم القديم في كون « مسكون » بالأرواح الشريرة . وكان معلمو كولوسي المضلون يقولون للناس بمنتهى الوضوح إنهم محتاجون إلى شيء أكثر من يسوع المسيح ليهزم قوات الشياطين ، وإن يسوع المسيح ليس

كفؤاً لمواجهتهم بنفسه بل يحتاج إلى معونة حليف آخر له قوة ونفوذ .

٦ — وكان واضحاً أن هذه الضلالة تحوى عنصراً فلسفياً . وخرج المضلون فى جرأة غريبة لإفساد عقول الناس بالفلسفة وبالغرور الباطل (٢ : ٨) وجاهر هؤلاء الهراطقة الكولوسيون بأن بساطة الإنجيل تحتاج أن يضاف إليها معرفة أكثر توسعاً وأكثر غموضاً وتعقيداً .

وكان لهذه الضلالة اتجاه إلى وجوب ممارسة طقوس معينة فى أيام خاصة كالأعياد والأهلة والسبوت (٢ : ١٦) وكانت هذه الطقوس وما يلازمها من ممارسات محفوظة لمحة من ملامح هذا التعليم الفاسد .

٨ — وواضح أن هذه الضلالة كانت تحمل عنصر الزهد والتقشف ؛ فوضعت قوانين للطعام والشراب (٢ : ١٦) وكانت شعاراتها «لاتذق ولاتمس ولا تجس» (٢ : ٢١) . لقد جاهرت هذه الضلالة بتقييد الحرية المسيحية بهذه الأنواع من الممارسات والتنظيمات والقوانين .

٩ — ومع التقشف والتزهد، كانت هذه الضلالة تشير من طرف خفى إلى الإباحية أحياناً وشجعت الناس على عدم المبالاة بالطهارة التى كان لزاماً على المسيحى أن يتحلى بها ، وجعلته يستخف بالخطايا الجسدية (٣ : ٥ — ٨) .

١٠ — ويبدو أن هذه الضلالة أعطت مكاناً — إلى حد ما — لعبادة الملائكة (٢ : ١٨) وفضلا عن وساطة الشياطين فقد أدخلت الملائكة كوسطاء بين الإنسان والله .

١١ — ويظهر أن هؤلاء المضللين كانوا يدعون الترفع العقلي والروحى على غيرهم من الناس . ففى (١ : ٢٨) يحدد بولس هدفه وهو أن يحذر كل إنسان، ويعلم كل إنسان بكل حكمة ، ويحضر كل إنسان كاملا فى يسوع المسيح . ونرى كيف يكرر الرسول ويعيد عبارة «كل إنسان» وكيف أن هدفه أن يجعل كل إنسان كاملا فى كل حكمة . والدلالة الواضحة من استعمال بولس لهذه العبارة مرات كثيرة أن هؤلاء الهراطقة وضعوا حدوداً لعمومية الإنجيل وحصروه فى نطاق ضيق لايدخله إلا عدد قليل من المختارين ، وأدخلوا أرستقراطية روحية وعقلية إلى الإيمان المسيحى الذى يرحب بجميع الناس .

٩ ــ الضلالة الغنوسية (الأدرية)

هل كانت هناك اتجاهات فكرية مضللة أثرت على العقيدة والحياة فى كنيسة كولوسى ؟
نعم لقد كان هناك نوع من التفكير يطلق عليه إسم الغنوسية وهي التى بدأت بافتراضين أساسيين حول المادة . الافتراض الأول أن الروح فقط هى الصالحة . أما المادة فكلها شر فى جوهرها وأساسها . والافتراض الثانى أن المادة أزلية وأن الكون لم يخلق من العدم ــ وهذه هى العقيدة القديمة ــ وأن هذه المادة الفاسدة هى التى خلق منها العالم كله . وكان لهذه الضلالة عواقب منطقية لامفر منها .

١ ــ كان لها تأثيرها على عقيدة الكون . إذ كان الله روحاً فإن الله صالح وتبعاً لذلك فإن الله لا يقدر أن يلمس المادة ، أو يعمل شيئاً ما من هذه المادة الشريرة ، ولهذا فإن الله ليس هو الخالق للعالم . فما الذى حدث إذن ؟ قال هؤلاء « العارفون » إن الله وضع سلسلة كاملة من الانبثاقات . وكل انبثاق كان يبعد قليلا عن الله إلى أن جاءت الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة فكان الانبثاق البعيد كل البعد عن الله ، والذى يستطيع أن يلمس المادة ويشكلها فى القالب الذى يريده . وهذا الانبثاق الأخير هو الذى خلق العالم . لكن هؤلاء « العارفين » ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، وقالوا بما أن كل انبثاق يزداد بعداً عن الله ، فإن كل انبثاق يكون أكثر جهلا بالله من سابقه . ومن هذا الجهل قامت العداوة بين هذه الإنبثاقات وبين الله . والإنبثاقات الأكثر بعداً عن الله هى أكثر جهلا به وأشدها عداء له . ومن ثم فإن الله الذى خلق العالم يجهل الله الحقيقى جهلا تاماً وهو فى عداء مستحكم معه . ولكى يجابه بولس هذا التعليم المضل عن الخالق قال فى الحاح وإصرار إن الذى كان به كل شيء لم يكن قوة جاهلة أو معادية بل هو الإبن الممجد الذى يعرف الله الآب معرفة كاملة ، ويحبه محبة كاملة .

ولهذه الضلالة تأثيرها أيضاً على الاعتقاد فى شخص يسوع المسيح . وإذا كانت المادة كلها شراً ، وإذا كان يسوع هو ابن الله ، وأن يسوع لا يقدر أن يتخذ جسداً بشرياً ــ هكذا حاجج الغنوسيون ــ ولابد أن يكون للمسيح نوع من الخيال الروحى الوهمى . ولابد أن يبدو للناس أن له جسداً وهو ليس جسداً على الإطلاق . وهكذا قال أصحاب هذه البدعة إن المسيح عندما كان يمشى ، لم يترك أثراً لقدميه على الأرض ، لأنه لم يكن له جسد يترك أثراً وراءه ، وهذا الاعتقاد الخاطىء

يمحو بالطبع ناسوت يسوع محواً تاماً ، ويجعل من المستحيل عليه أن يكون مخلص الناس . ولكي يفند بولس هذه الضلالة الغنوسية كان عليه أن ينبر على أن ليسوع جسداً من لحم ودم ، وأن يسوع خلص الناس فى جسم بشريته .

٣ — ولهذه الضلالة تأثيرها كذلك على الأخلاق . وإذا كانت المادة شراً كما يقولون فينتج عن ذلك أن أجسادنا شر ، وإذا كانت أجسادنا شراً فيتبع ذلك عاقبة من عاقبتين .

[ا] إما أن نجوع أجسادنا ونضربها وننكر وجودها . وفى هذه الحالة يجب أن نمارس نوعاً خشناً من التقشف حتى تكون لنا السيادة على أجسادنا ونرفض لها كل احتياج أو رغبة . إذا كان الجسد شراً فلا ينبغى أن تجاب له رغبة ، بل ينظر إليه نظرة ازدراء واحتقار .

[ب] ولكن إذا كان الجسد شراً فلا بأس أن يكون لنا معه شأن آخر يختلف تماماً عن الموقف السابق . إذا كان الجسد شراً فيعمل الإنسان بجسده كما يحلو له . إن الروح هى التى تهم. أما الجسد فليس له أهمية . ويباح للإنسان أن يلتهم الطعام إلتهاماً ، ويطلق العنان لشهوات الجسد ونزواته . ولا فرق عندهم بين المتعفف والمستبيح لأن ما نفعله بالجسد — حسب زعمهم — ليس بذات أهمية .

وفى إمكان الغنوسية — والحالة هذه — أن تساير أصحاب التقشف بكل القوانين الصارمة الخاصة بالطعام ، أو تذهب مذهب الإباحيين الذين يستبيحون كل أنواع الفجور . ومع أن كلا الاتجاهين على طرفى نقيض ولكننا نستطيع أن نراهما بوضوح فى تعليم هؤلاء المعلمين الزائفين فى مدينة كولوسى .

٤ — ومن كل ما رأينا نستطيع أن نخرج بشىء واحد وهو أن الغنوسية طريق للمعرفة وليس طريقاً للإيمان . وهناك السلسلة الطويلة من الانبثاقات بين الإنسان والله . وعلى الإنسان أن يشق طريقه صاعداً على هذه السلم الطويلة حتى يصل إلى الله . وفى سبيل ذلك يحتاج إلى معرفة كل أنواع الأسرار والتعاليم الباطنية ، وكلمات السر الخفية . ويحتاج إلى التوسع فى المعرفة

السرية المعقدة حتى يمكنه الوصول إلى الله . وإذا أراد أن يمارس حياة التقشف وخشونة العيش فعليه أن يلم إلماماً كاملا بكل هذه القواعد ، وسيكون تقشفه من الخشونة بحيث يستحيل عليه أن يباشر النشاط العادى للحياة . وكان هؤلاء « العارفون » يجاهرون بأن الآفاق العليا للدين ليست فى متناول كل الناس بل هى وقف واحتكار للقلة المختارة من الناس ، وأن الأغلبية العظمى من الناس ليس فى ميسورهم أن يصلوا إلى هذه الآفاق بأى حال من الأحوال . وهذا الاعتقاد الحازم بضرورة الانتماء إلى أرستقراطية دينية وعقلية كان يلائم الموقف فى كولوسى كل الملاءمة .

٥ — ويبقى بعد ذلك شىء آخر يتفق مع هذه الصورة . فمن الواضح جداً أن عنصراً يهودياً سرى إلى هذا التعليم الزائف الذى كان يهدد كيان الكنيسة فى كولوسى . إن الأعياد ، والأهلة ، والسبوت كانت من خصائص الديانة اليهودية . كما أن القوانين الخاصة بالطعام والشراب — فى جوهرها — قوانين يهودية لاوية . وإنه لأمر غريب أن يهوداً كثيرين كانوا يعطفون على الغنوسية . وقد استمد الغنوسيون من اليهودية معرفة كل شىء عن الملائكة والشياطين والأرواح . وقالوا فى تحديد موقفهم : « نحن على يقين تام أن الأمر يحتاج إلى معرفة خاصة فى سبيل الوصول إلى الله ونعلم تماماً أن يسوع وإنجيله هما من البساطة بحيث لا يمكنهما أن يوصلانا إلى هذا الغرض ، وأن هذه المعرفة الخاصة لن نجدها إلا فى الشرائع اليهودية . وإننا فى حاجة إلى معرفة القوانين الطقسية التى نستعين بها للوصول إلى الله . ولهذا السبب نشأ اتحاد غريب بين الغنوسية واليهودية . وهذا هو الاتحاد عينه الذى نجده فى كولوسى حيث كان يقطن بها عدد كبير من اليهود كما ذكرنا آنفاً .

ويتضح لنا إذن أن المعلمين الكذبة الذين نشروا آراءهم المسمومة فى كولوسى قد اصطبغوا بالضلالة الغنوسية . وكانوا يحاولون جهدهم لتحويل المسيحية إلى فلسفة وتصوف . ولو كانوا قد أصابوا نجاحاً ، لكان فى ميسورهم أن يقضوا على المسيحية القضاء المبرم .

١٠ — كاتب الرسالة

بقى أمامنا سؤال واحد . إن كثيرين من علماء الكتاب المقدس

لا يعتقدون إطلاقاً أن بولس هو الكاتب لهذه الرسالة . ويوردون ثلاثة أسباب لذلك .

[ا] يقولون إن الرسالة إلى كولوسي تتضمن كلمات وعبارات كثيرة ليس لها ذكر فى أى رسالة من رسائل بولس . وهذا صحيح ولكنه لا يؤخذ حجة ضد كتابة بولس للرسالة . فليس من الإنصاف أن نطالب كاتباً أن يكتب بأسلوب معين لا يحيد عنه ، ويستعمل ألفاظاً معينة مهما اختلفت الظروف وتباينت المناسبات . وفى رسالة كولوسى وجد بولس أمامه أموراً خاصة يحتاج إلى معالجتها ، فاتخذ طرقاً جديدة للتعبير عنها .

[ب] ويقولون إن انتشار الفكر الغنوسى كان فى الواقع بعد زمن بولس بكثير . وإذا كانت الضلالة الكولوسية مرتبطة بالتعاليم الغنوسية فلابد أن تكون رسالة كولوسى قد كتبت بعد زمن بولس ، ولكن فكرة العالمين ، والفكرة القائلة إن المادة شر ، والفكرة التى تنادى بأن الجسم قبر وأن اللحم والدم هما شر — هذه كلها أفكار متأصلة ولها جذور عميقة فى الفكر اليهودى وفى الثقافة اليونانية . أما الأنظمة الغنوسية فقد رتبت ونسقت فيما بعد .

[ح] ويقولون أيضاً إن مقام المسيح فى رسالة كولوسى أعظم بكثير من مقامه فى رسائل بولس الأخرى ، وأن الفكرة القائلة إن المسيح خالق وأن فيه قد حل كل ملء اللاهوت هى الفكرة التى جاء بها إنجيل يوحنا بعد ذلك بأربعين عاماً . ولنا إجابتان على هذا الاعتراض :

أولا — إن بولس يتكلم دائماً عن غنى المسيح الذى لا يستقصى . وفى كولوسى التقى بولس بموقف جديد ، فلجأ إلى هذا الغنى الذى لا يستقصى ، ونهل من هذا الينبوع ما يعينه على مجابهة هذا الموقف . صحيح أن الكلام عن عظمة المسيح يفوق أى كلام آخر فى رسائل بولس الأخرى . ولكن هذا لا ينفى أبداً أن بولس هو الكاتب لهذه الرسالة إلا إذا جاز لنا أن نقول إن آراء بولس بقيت كما هى فى ركود مستمر ولو لم تتغير أبداً لمواجهة طارىء جديد . ومن الحق أن يقال إن الإنسان يخرج كل ما فى جعبته لإعلان إيمانه عند ما تضطره الظروف أن يفعل ذلك . وفى

مواجهة مجموعة جديدة من الظروف الطارئة، كان على بولس أن يجاهر بجوانب جديدة لشخصية المسيح .

ثانياً — إن كل أفكار بولس عن المسيح نجد لها فى الواقع أصلا فى رسائله . ففى ١ كورنثوس ٨ : ٦ يقول « ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به » وفى هذه العبارة كل ما يريد بولس أن يقوله فى رسالة كولوسى . إن البذرة كانت فى عقل بولس مستعدة لأن تزهر بمجرد أن طقساً جديداً وظروفاً جديدة تدعوها إلى النمو .

ولسنا فى حاجة إذن إلى التردد فى الاعتقاد أن بولس هو الكاتب لرسالة كولوسى .

١١ — الرسالة العظيمة

وتبقى بعد ذلك حقيقة غريبة وعجيبة . إنه كتب الرسالة التى تحوى أعظم الأفكار عن المسيح إلى مدينة كولوسى الخاملة الذكر ، ولكنه برسالته هذه أوقف تياراً جارفاً لو سمح له بالامتداد لكان قد لاشى المسيحية فى آسيا من الوجود ، ولكان قد أصاب الإيمان فى الكنيسة كلها بأضرار جسيمة ليس فى الإمكان علاجها .

الأصحاح الأول

التحيات المسيحية

بُولُسُ رَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَتِيمُوثَاوُسُ الأَخُ
إِلَى الْقِدِّيسِينَ فِي كُولُوسِّي وَالإِخْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَسِيحِ .

(كولوسي ١ : ١ ، ٢)

إن المسيحى الحقيقى لا يستطيع أن يكتب عبارة واحدة دون أن يوضح العقائد الكبرى التى تملأ كل تفكيره . ولم يذهب بولس أبداً إلى كولوسى ، ولذلك كان عليه أن يبدأ رسالته مبيناً بأى حق يكتب رسالته إلى أهل كولوسى . وهو يفعل ذلك فى كلمة واحدة . إنه رسول أى سفير مختار من الله . والمعنى الحرفى لكلمة « رسول » هو الشخص المرسل . وبولس يكتب بهذا الحق وهو أنه مرسل من الله ليكون سفير الله إلى الأمم . لكن بولس يضيف شيئاً آخر فيقول إنه رسول يسوع المسيح بمشيئة الله . إن وظيفة الرسول ليست شيئاً اكتسبه بمقدرته أو حصل عليه باجتهاده الشخصى . إنها شىء أعطى له من الله . إنها ليست شيئاً وضع يده عليه لكنها شىء منحه الله إياه قال يسوع بهذا الصدد « لستم أنتم الذين اخترتمونى بل أنا اخترتكم » (يوحنا ١٥ : ١٦) وهنا ، فى مفتتح الرسالة ، نرى كل عقيدة النعمة . فالإنسان ليس هو الذى يصنع نفسه بل هو ما صنعه ، وليس هناك فى دائرة النعمة أناس صنعوا أنفسهم بل هناك فقط أناس صنعهم الله ، وأناس آخرون رفضوا السماح لله أن يصنعهم .

ويضم بولس معه تيموثاوس ويعطيه لقباً جميلاً فيدعوه « الأخ » . وهذا اللقب أعطى أيضاً لكوارتس (رومية ١٦ : ٢٣) ولسوستانيس (١ كورنثوس ١ : ١) ولأبلوس (١ كورنثوس ١٦ : ١٢) . إن الضرورة الأساسية لنجاح

الخدمة المسيحية ليست شيئاً آخر سوى انتشار الروح الأخوية بين المؤمنين . ويحدثنا « برمانانده » ذلك الهندى المسيحى الشريف المحتد الذى صار مسيحياً فى ترجمة حياته عن مرسل إنجليزى فى كلكتا يدعى إ . ا . براون فيقول عنه إنه كان صديق الجميع ولكنه بصفة خاصة كان صديقاً لسائقى « العربات » ، وعمال الترام ، وحاملى الأمتعة ومئات من صبية الشوارع . وكان برمانانده يجول فى أنحاء الهند ويلتقى بأناس كانوا يسكنون فى كلكتا فيسألونه عن « براون » قائلين « هل ذلك الصديق لأبناء شوارع كلكتا لا يزال على قيد الحياة ؟ لقد كان يسير أحياناً مع الفقير متأبطاً ذراعه » . وبهذه الروح الأخوية استطاع ذلك المرسل أن يجتذب الكثيرين إلى سيده يسوع المسيح ويروى السرهنرى لن كيف اعتاد أبوه أن يصف جده فيقول عنـــه « كان صديقاً للفقراء بلا تعال عليهم ، وكان صديقاً للأغنياء بلا تذلل لهم » . وبحسب التعبير الحديث نقول إن الضرورة الأولى للخدمة المسيحية هى المقدرة على مسايرة كل فئات الناس . إن تيموثاوس لا يلقب بالواعظ ، أو المعلم ، أو اللاهوتى ، أو المدبر الناجح بل الأخ . إن الذى يترفع عن الناس ويعتزلهم لا يقـــدر أبداً أن يكون خادماً ليسوع المسيح .

وهناك حقيقة أخرى فى مطلع هذه الرسالة ولها روعتها وأهميتها . إن الرسالة موجهة إلى « القديسين والإخوة المؤمنين » وهذه الكلمات الإفتتاحية ليست مما ألفناه فى رسائل بولس السابقة . فهو فى رسائله إلى ١ ، ٢ تسالونيكى ، ١ ، ٢ كورنثوس يوجه الخطاب إلى الكنيسة المقيمة فى ذلك المكان . ولكن إبتداء من رسالة رومية يوجه كل رسائله إلى القديسين فى تلك المدينة كما نرى ذلك واضحاً فى رومية ، وكولوسى ، وفيلبى ، وأفسس . وكلما كان بولس يتقدم فى الأيام ويتعمق فى الاختبار كان يرى أن الأفراد على جانب كبير من الأهمية . وما الكنيسة إلا أفراد الشعب ، وليست الكنيسة مجرد شخصية معنوية غامضة . إنها الأفراد من الرجال والنساء والأطفال . وعلى مر السنين أخـــذ تفكير بولس عن الكنيسة يتضاءل باعتبارها كتلة ، وأخذ تفكيره عن الكنيسة يتزايد باعتبارها الأفراد من الرجال والنساء والأطفال . وهكذا نجد فى ختام الرسالة أنه يرسل تحياته ، لا إلى نوع من المجتمع المعنوى الذى يدعى الكنيسة بل بالأحرى إلى الأفراد من الرجال والنساء الذين تتكون منهم الكنيسة دائماً .

ويختتم بولس تحياته الإفتتاحية بوضعه أمرين فى غاية الأهمية جنباً إلى جنب . إنه يكتب إلى المسيحيين الذين فى كولوسى والذين هم أيضاً فى المسيح فى نفس الوقت .

إن المسيحى يتحرك دائماً فى دائرتين . فهو فى المدينة ، فى المجتمع الذى يتفق له أن يقيم فيه فى هذا العالم ، ولكنه أيضاً فى المسيح .

المسيحى يعيش فى بعدين . هو يعيش فى العالم ، ولا يمارس واجباته وعلاقاته بالعالم باستخفاف . هو يتمم كل التزاماته نحو العالم على الوجه الأكمل . ولكنه فوق ذلك ومن وراء ذلك يعيش فى المسيح . إنه ينتقل فى هذا العالم من مكان إلى مكان فهو الآن فى مكان وبعد قليل يكون فى مكان آخر ولكنه حيثما وجد هو المسيح . ولأجل هذا السبب لا تغير الظروف الخارجية من حياته . فسعادته وسلامه وفرحه لا تعتمد على هذه الظروف التى قد تتغير ولكن حقيقة وجوده فى المسيح لا تتغير قط . ولأجل هذا السبب يستطيع المسيحى أن يقوم بأى عمل بكل قلبه ، فقد يكون هذا العمل حقيراً ، أو كريهاً ، أو مؤلماً ، أو مغموراً ولا يجنى من وراء عمله أجراً أو شكراً ولكنه بالرغم من هذا كله يؤديه باجتهاد وفرح وبدون تذمر لأنه فى المسيح ويقوم بكل شىء بالنسبة لعلاقته بالرب . ونحن جميعاً نعيش فى مدينتنا أو فى قريتنا ولكن كيفما كان المكان الذى نعيش فيه فنحن فى المسيح . والمسيح هو الذى يضع اللحن الموسيقى الجميل لحياتنا .

الإلتزام المزدوج

نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ .

نَشْكُرُ اللهَ وَأَبَا رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ مُصَلِّينَ لأَجْلِكُمْ . إِذْ سَمِعْنَا إِيمَانَكُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ وَمَحَبَّتَكُمْ لِجَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ . مِنْ أَجْلِ الرَّجَاءِ الْمَوْضُوعِ لَكُمْ فِي السَّمٰوَاتِ الَّذِي سَمِعْتُمْ بِهِ قَبْلاً فِي كَلِمَةِ حَقِّ الإِنْجِيلِ . الَّذِي قَدْ حَضَرَ إِلَيْكُمْ كَمَا فِي كُلِّ الْعَالَمِ أَيْضًا وَهُوَ مُثْمِرٌ كَمَا فِيكُمْ أَيْضًا مُنْذُ يَوْمِ سَمِعْتُمْ وَعَرَفْتُمْ نِعْمَةَ اللهِ بِالْحَقِيقَةِ . كَمَا تَعَلَّمْتُمْ أَيْضًا مِنْ

أَبفْرَاسَ الْعَبْدِ الْحَبِيبِ مَعَنَا الَّذِى هُوَ خَادِمٌ أَمِينٌ لِلْمَسِيحِ لِأَجْلِكُمْ . الَّذِى أَخْبَرَنَا أَيْضاً بِمَحَبَّتِكُمْ فِى الرُّوحِ .

(كولوسى ١ : ٢ — ٨)

تقدم لنا هذه الفقرة جوهر الحياة المسيحية . إن الحقيقة التى يبتهج لها قلب بولس ، والتى يشكر الله من أجلها أن أخباراً سارة وصلت اليه عن أهل كولوسى أنهم يظهرون صفتين عظيمتين فى حياتهم . إنهم يظهرون الإيمان بالمسيح ، والمحبة لإخوتهم . وهذان هما الجانبان للحياة المسيحية . إن الحياة المسيحية يجب أن تعلن ولاءها للمسيح ومحبتها للناس . وبكل تأكيد يجب على المسيحى أن يتصف بصفة الإيمان ويجب أن يعرف ما يؤمن به . وليس كافياً أن يكون له إيمان فقط لأنه قد تكون العقيدة القوية خالية من المحبة ، وقد يكون هناك صلاح ولكن بلا محبة . وليس كافياً أن تكون للإنسان محبة لإخوته لأنه مالم يكن عنده أساس من الإيمان الحقيقى تصبح هذه المحبة مجرد تظاهر بالعواطف ورقة الإحساس . إن على المسيحى ولاء مزدوجاً ، ولاء للمسيح وولاء للناس . وفى عنقه إلتزام مزدوج ، إلتزام نحو يسوع المسيح مخلصه ، والتزام نحو إخوته فى الإيمان . إن الإيمان المسيحى ليس مجرد اعتقاد عقلى ، بل هو أيضاً إنسكاب القلب . وليس هو مجرد الفكر الصحيح بل هو السلوك المحب . إن الإيمان بالمسيح والمحبة للناس هما العامودان اللذان يقوم عليهما هيكل الحياة المسيحية .

وذلك الإيمان وتلك المحبة يعتمدان على الرجاء الموضوع فى السماء . وما الذى يقصده بولس بالضبط من هذا التعبير ؟ هل يطلب من أولئك الإخوة أن يظهروا إيمانهم للمسيح ومحبتهم للناس أملا فى الحصول على مكافأة تهبط عليهم من السماء يوماً ما؟ وهل هو طالب منهم أن يكونوا صالحين رغبة فى نوال الأجر على صلاحهم ؟ وهل هذا ما يقصده التعبير العصرى الدارج « فطيرة فى الجو » ؟ إن هناك شيئاً أعمق بكثير من ذلك . فكروا فى هذا الأمر بهذه الطريقة . إن الولاء للمسيح قد يدفع الإنسان إلى كل صنوف الخسارة والألم والإحتمال وعدم القبول لدى الجمهور . ولكى يحتفظ الإنسان بولائه للمسيح يرى أحياناً أن يودع أشياء كثيرة الوداع الأخير وهو غير

آسف عليها . إن طريق المحبة قد تبدو لعيون كثيرين أنها طريق الحق فيتساءلون فى دهشة : لماذا تطلبون أن تخدموا الآخرين ؟ ولماذا تسامحون من يسىء إليكم ؟ ولماذا تقضون حياتكم فى خدمة بلا منفعة شخصية . ولماذا لا تنتفعون بحياتكم فى التقدم إلى الأمام كما يحسب الناس التقدم ؟ ولماذا لاترمون بالأخ الضعيف بعيداً عن طريقكم ؟ ولماذا لا تأخذون مكانكم فى التسابق والتنافس الذى لا يبقى فيه إلا الأقوى والأصلح ؟ الجواب هو — من أجل الرجاء الموضوع أمامنا . ويقول « مول » عن هذا الرجاء إنه اليقين بأنه بالرغم من طرق العالم ومقاييس العالم فإن طريق المحبة الإلهية هذه الكلمة الأخيرة . أو كما قال الشاعر « جيمس رسل لويل » فى قصيدته « الأزمة الحاضرة » « إن الرجاء هو أن الحق وحده هو القوى بالرغم من نجاح قضية الشر . ومع أن الحق يكون دائماً معلقاً على المشنقة ، وأن الباطل يجلس دائماً على العرش ، ومع ذلك فإن هذه المشنقة هى التى تحكم فى المستقبل وأن من وراء المجهول المبطن بالظلام يقف الله فى الظل حارساً أتقياءه » .

إن الرجاء المسيحى هو أن طريق الله أفضل الطرق ، وأن السعادة الوحيدة ، والسلام الوحيد ، والفرح الوحيد ، والجزاء الدائم والحقيقى الوحيد هو ما نجده فى طريق الله . إن الولاء للمسيح قد يجلب معه المتاعب لكن هذه ليست الكلمة الأخيرة . إن العالم قد يضحك هازئاً بجهالة طريق المحبة ولكن جهالة الله أحكم من حكمة الناس . إن الرجاء المسيحى هو اليقين بأن المغامرة بالحياة مع الله أفضل من الثقة بالعالم .

جوهر الإنجيل

كولوسى ١ : ٢ — ٨ (تابع)

لنا هنا فى الأعداد من ٦ — ٨ خلاصة موجزة عن الإنجيل وما يستطيع أن يفعله للناس . ولدى بولس الكثير ليقوله عن الرجاء الذى جاء إلى أهل كولوسى ، والذى كانوا قد أصغوا إليه وقبلوه .

١ — إن الإنجيل هو الأخبار السارة « إن أفضل تعريف للإنجيل هو « أخبار الله السارة » إن رسالة الإنجيل هى رسالة الله الصديق والمحب لنفوس الناس، فأولا وقبل كل شىء أن الإنجيل يضعنا فى علاقة طيبة مع الله .

٢ — والإنجيل هو الحق . وكل الأديان السابقة يمكن أن يقال عنها بأنها: تخمينات عن الله ، أما الإنجيل المسيحي فلا يعطي الإنسان تخمينات بل تأكيدات ويقينيات عن الله » .

٣ — الإنجيل هو لجميع الناس . إنه ليس منحصراً في قبيلة خاصة أو أمة معينة ولا تحتكره طبقة بمفردها لنفسها . وهناك أشياء قليلة جداً يباح لجميع الناس أن يستمتعوا بها بلا تفريق أو استثناء . إن المقدرة العقلية للإنسان تحدد نوع الدراسات التي يستطيع أن يقوم بها . والطبقة الاجتماعية للإنسان تقرر الدائرة التي يتحرك فيها . والثروة المادية للإنسان تعين المقتنيات المادية التي يستطيع أن يمتلكها . والمواهب الخاصة للإنسان تقرر الأمور التي يستطيع أن يتقنها . أما رسالة الإنجيل فرح وسلام الإنجيل — هذه كلها مقدمة كعطية من الله لجميع الناس بلا استثناء .

٤ — الإنجيل منتج ومثمر . إنه يأتي بثمر متكاثر . إنها حقيقة ساطعة من حقائق التاريخ والاختبار أن للإنجيل قوة على تغيير حياة الناس الشخصية . وتغيير المجتمع الذي يعيشون فيه . إن قوة الإنجيل تستطيع أن تغير الخاطىء إلى إنسان صالح ، وأن قوة الإنجيل تستطيع أن تنتزع الأثرة والقسوة من مجتمعنا ، وتعطي جميع الناس الفرص المتكافئة التي يريد الله أن يقدمها لكل إنسان .

٥ — الإنجيل يخبرنا عن النعمة . الإنجيل ليس هو الرسالة التي تحمل مطالب الله بل عطايا الله . وهو لا يحدثنا عما يطلبه الله من الإنسان بل عما يقدمه الله للإنسان . الإنجيل لم يأت ليضع علينا أحمالا إضافية بل جاء لكي يرفع عنا حمل الخطية الثقيل .

٦ — الإنجيل يذاع بوسائط بشرية . لقد كان أبفراس الذي حمل الإنجيل إلى أهل كولوسي . ولا بد أن تكون هناك قناة بشرية يصل من خلالها الإنجيل للناس . ومن هنا ندرك مسئوليتنا . إن وصول أخبار الإنجيل السارة إلينا يحمل معه التزامنا لمشاركة الآخرين فيه . وما أعطي لنا إلهياً يجب أن يسلم للآخرين بشرياً . إن يسوع المسيح يحتاج إلينا لنكون الأيدي والأقدام والشفاة التي تحمل الإنجيل إلى الذين لم يسمعوه من قبل . ونحن الذين حصلنا على امتياز الإنجيل قد تلقينا أيضاً المسئولية لتوصيله للآخرين .

جوهر الطلب فى الصلاة

مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ نَحْنُ أَيْضًا مُنْذُ يَوْمِ سَمِعْنَا لَمْ نَزَلْ مُصَلِّينَ وَطَالِبِينَ لِأَجْلِكُمْ أَنْ تَمْتَلِئُوا مِنْ مَعْرِفَةِ مَشِيئَتِهِ فِى كُلِّ حِكْمَةٍ وَفَهْمٍ رُوحِيٍّ . لِتَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلرَّبِّ فِى كُلِّ رِضًى مُثْمِرِينَ فِى كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَنَامِينَ فِى مَعْرِفَةِ اللّٰهِ . مُتَقَوِّينَ بِكُلِّ قُوَّةٍ بِحَسَبِ قُدْرَةِ مَجْدِهِ لِكُلِّ صَبْرٍ وَطُولِ أَنَاةٍ بِفَرَحٍ .

(كولوسى ١ : ٩ ــ ١١)

إنه شيء قيم جداً أن نصغى إلى قديس وهو يصلى لأجل أصدقائه . وهذا ما نسمعه فى هذه العبارة ، ويمكننا أن نقول إن هذه العبارة تعلمنا عن جوهر الصلاة الطالبة أكثر مما نتعلمه عن الصلاة فى أى جزء آخر من العهد الجديد . ومنها نتعلم ــ كما قال « مول » ــ إن الصلاة تركز طلباتها فى أمرين عظيمين . فهى تطلب تمييزاً لمعرفة إرادة الله ، ثم تطلب قوة لإتمام هذه الإرادة .

١ ــ تبدأ الصلاة بطلب الإمتلاء من المعرفة النامية لإرادة الله . إن غرض الصلاة العظيم هو معرفة إرادة الله . ونحن لا نحاول كثيراً فى الصلاة أن نجعل الله يصغى إلينا ، بقدر ما نحاول أن نجعل أنفسنا تصغى إلى الله . وفى الصلاة لا نحاول أن نستميل الله ليعمل ما نريده ، بل نحن نحاول أن نعرف ماذا يريد الله منا أن نعمله . وكثيراً ما يحدث لنا فى الصلاة أننا نريد أن نقول « لتتغير مشيئتك » بينما ينبغى لنا أن نقول « لتكن مشيئتك » . إن الغرض الأول للصلاة لا أن نكلم الله بل أن نصغى إلى الله .

٢ ــ وهذه المعرفة لإرادة الله يجب أن تترجم إلى مواقف حياتنا البشرية

الخاصة . نحن نصلى لأجل الحكمة والفهم الروحى . وما الفرق بين الحكمة والفهم ؟ الحكمة فى معناها الأصلى (صوفيا) هى معرفة المبادىء الأولى ، أما الفهم فهو مايطلق عليه الإغريق بالمعرفة التطبيقية ويقصدون بها المقدرة على تطبيق المبادىء الأولى على أى موقف قد ينشأ فى الحياة . وهكذا عندما يصلى بولس طالباً لأصدقائه الحكمة والفهم الروحى ، يريد أن يطلب لهم الحكمة لمعرفة الحقائق العظمى للمسيحية ، ولكى يكونوا قادرين على تطبيق هذه الحقائق على القرارات الهامة التى تقابلهم فى حياتهم اليومية . إن الإنسان قد يصل بسهولة إلى مراكز الأستاذية فى علوم اللاهوت ولكنه فى نفس الوقت قد يفشل فى حياته اليومية . وقد يكون مقتدراً فى الكتابة والحديث عن الحقائق الأزلية العظمى ، ويعجز عجزاً تاما فى تطبيق هذه الحقائق على المواقف العملية فى حيـــاته اليومية . أما المسيحى الحقيقى فيجب أن يعرف ماهو المقصود بالمسيحية . فهى ليست أنبوبة مفرغة من الهواء بل هى قوة دافعة فى حياته العملية من يوم إلى يوم .

٣ ـــ هذه المعرفة لإرادة الله ، وهذه الحكمة والفهم الروحى يجب أن تظهر نتائجها فى السلوك المستقيم . إن بولس يصلى لكى يسلك أصدقاؤه المسلك الذى يرضى الله . إنه لاشىء على فى هذا العالم مثل الصلاة . ليست الصلاة هروباً من الحقيقة والواقع . ليست الصلاة تأملا منعزلا فى الله وشركة انفرادية معه . إن الصلاة والعمل يسيران معاً جنباً إلى جنب . ونحن نصلى « لا لكى نهرب من الحياة ، ولكن لكى نكون أكثر اقتداراً على مواجهة الحياة . نحن نصلى ، لا لكى ننسحب من الحياة ولكن لكى نحيا حياتنا فى عالم الناس كما ينبغى لنا أن نحياها .

٤ ـــ ولكى نحيا هذه الحياة نحتاج إلى القوة . ولأجل ذلك يصلى بولس لكى يتقوى أصدقاؤه بقوة الله . إن المشكلة الكبرى فى الحياة ليست فى معرفة مانعمل بل فى عمل ما نعرف . وفى معظم الأحيان نكون عارفين ما يجب علينا أن نعمله فى أى موقف من مواقف الحياة . ولكن المشكلة الكبرى هى فى تحويل هذه المعرفة إلى عمل . وما نحتاج إليه هو القوة ، وما نناله فى الصلاة هو القوة . ولو اكتفى الله بإعلان مشيئته لنا ، لكان فى ذلك تحطيم وتعذيب لنفوسنا . ولكن الله لم يعلن فقط مشيئته لكنه يقدرنا أيضاً على إتمامها .

« ليست المعرفة هى التى نطلبها منك ياربنا ، فأنت قد تفضلت علينا بها .

ولكن ما نطلبه هو الإرادة القوية التي نستطيع بها أن نشيد الأعمال الصالحة فوق النيات الحسنة » .

وعن طريق الصلاة نحصل على أعظم هبة فى كل العالم ، المعرفة مضافاً إليها القوة .

العطايا الثلاث العظيمة

كولوسى ١ : ٩ — ١١ (تابع)

يختم بولس طلباته فيصلى إلى الله لكي يمنح الأحياء ثلاث صفات عظيمة . إنه يصلى لكي يمتلك أصدقاؤه كل صبر وطول أناة وفرح . والصبر وطول الأناة كلمتان عظيمتان فى اللغة اليونانية وهما دائماً متلازمتان لكن هناك فـــرق بين الكلمتين وليس صحيحاً ما يقال إن اليونانيين يلاحظون الفرق بين الكلمتين ولكن عندما تأتى الكلمتان معاً فلابد لنا من التمييز بينهما . والكلمة الأصلية المترجمة « صبر » لاتحمل أبداً معنى الجلوس مكتوفى الأيدى ، وتحمل البلايا وإحناء الرأس والسماح لمجرى الحوادث أن يعبر على رؤوسنا دون أن نبدى حراكاً . إنها لاتعنى فقط المقدرة على احتمال الأشياء . بل تعنى المقدرة على احتمالها وتحويلها إلى مجـــد . إنها الصبر الظافر . إن الصبر فى معناه الحقيقى هو الروح التى لا يستطيع أى ظرف فى الحياة أن يهزمها ، ولا يقدر أى حادث أن يتغلب عليها . الصبر هو القدرة على المواجهة المنتصرة لكل ما تستطيع الحياة أن تفعله معنا .

أما المعنى الأساسى لطول الأناة فهو الصبر مع الناس . هى صفة العقل والقلب التى تقدر الإنسان أن يحتمل الناس بحيث لا تستطيع كراهيتهم وشرهم وقسوتهم أن تحوله إلى مرارة وحقد ، كما لاتستطيع غباوتهم وعدم قابليتهم للتعليم أن تدفعه إلى اليأس ، وأن عدم محبتهم له لن تستطيع أن تغير محبته لهم . طول الأناة هى الروح التى لاتفقد أبداً الصبر مع الناس ، والإيمان بهم ، والرجاء فيهم .

وهكذا يصلى بولس طالباً لأصدقائه هاتين الصفتين العظيمتين — الصبر وطول الأناة — الصبر الذى لا تستطيع مواقف الحياة وأحداثها أن تهزمه ، وطول الأناة التى لا يستطيع أى إنسان أن يغلبها . إنه يصلى لكى يتقوى المسيحى حتى لا تنهزم قوته أمام أصعب الظروف ، ولكى لا يستطيع كائن بشرى أن يهزم عزيمته هو يصلى لكى يمتلىء أصدقاؤه بهذه الروح التى لا تيأس من أى موقف ولا من أى شخص ، والتى ترفض أن تفقد الرجاء فى الظروف أو فى الناس . إن صبر المسيحى فى الأحداث وطول أناته مع الناس لاينبغى أن يفنيهما شىء مهما بلغ من الشدة ، ولا أى إنسان كائناً من كان .

وفضلا عن الصبر وطول الأناة يصلى بولس طالباً لهم الفرح . إن الصبر مع الأحداث ، وطول الأناة مع الناس لا ينبغى أن يتم ونحن متجهمون مقطبو الجباه بل بالفرح ، وهذا هو الموقف الملىء بإشعاع الشمس وضيائها بإزاء الحياة . ويقول « مول » « إذا لم يكن الفرح متأصلا فى تربة الألم فهو فرح سطحى لافيدة له » وهذا حق لأنه من السهل أن نكون فرحين عندما تكون الظروف معنا على ما يرام لكن الإشعاع المسيحى لا تستطيع كل ظلال الحياة أن تطفئه .

وهكذا تكون الصلاة المسيحية « يارب اجعلنى منتصراً على كل ظرف ، واجعلنى طويل الأناة مع كل إنسان . ومع الصبر وطول الأناة أعطنى الفرح الذى لا يستطيع أى ظرف أو أى إنسان أن ينزعه منى » .

الشكر العظيم فى الصلاة

شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِى أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِى النُّورِ الَّذِى أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ . الَّذِى لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا .

(كولوسى ١ : ١٢ — ١٤)

ينتقل بولس الآن إلى تقديم الشكر القلبي العميق لله لأجل البركات التى حصل عليها المسيحيون . وفى هذه العبارة نجد فكرتين رئيسيتين .

١ — إن الفكرة الأساسية الأولى هى أن الله قد أعطى الكلوسيين نصيباً فى ميراث القديسين . وتلتقى هذه العبارة إلتقاء كلياً بالعبارة التى قالها بولس أمام أغريباس عندما أخبره بولس بالمهمة التى كلفه الله بها . هذه المهمة هى « لتفتح عيونهم كى يرجعوا من ظلمات إلى نور ، ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بى غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين » (أعمال ٢٦ : ١٨) . إن الإمتياز الأول الذى أعطى للأمم هو أنه قد صار لهم نصيب مع شعب الله المختار . كان اليهود قديماً شعب الله المختار الذين اتخذهم الله لخاصته ، ولكن الآن قد انفتح الباب على مصراعيه لقبول الأمم ولجميع الناس ، وليس فقط اليهود بل إن كل الناس فى كل الأمم قد دخلوا إلى ميراث شعب الله .

٢ — والفكرة الأساسية الثانية هى أن الله قد نقلنا إلى ملكوت ابن محبته . والكلمة التى يستعملها بولس الآن للإنتقال تحمل معها صورة للعالم القديم . فحينما كانت مملكة تتغلب على أخرى كان المتبع أن ينقل سكان المملكة المغلوبة إلى أرض أخرى يعينها لهم الملك الظافر ، كما حدث فى تاريخ بنى إسرائيل ، إذ نقل سكان المملكة الشمالية إلى أشور ، ونقل سكان المملكة الجنوبية إلى بابل . وهذا الانتقال لكل السكان كان خاصية من خواص العالم القديم . وهكذا يقول بولس إن الله نقل المسيحيين إلى مملكته الخاصة . إنه نقلهم من الدائرة التى اعتادوا الحياة فيها إلى ملكوته وإلى سلطانه . وهذا الإنتقال الذى صنعه الله معنا ليس مجرد انتقال بل هو إنقاذ ونجاة . إنه يعنى أربعة أشياء عظيمة :

(١) معناه الأول هو الإنتقال من الظلمة إلى النور . وبدون الله يتلمس الناس الطريق ويعثرون فيها ، كما يحدث للناس الذين يسيرون فى الظلام ، فهم لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولا يعرفون إلى أين يذهبون . إن البعيدين عن الله يحيون فى ظلال الشك وفى ظلال الجهل . لما قرأ « بانى » الشهيد أن يسوع المسيح جاء إلى العالم ليخلص الخطاة ، قال إن مجيئه شبيه بالفجر وهو يبدد غياهب الدجى . فى يسوع المسيح أعطانا الله نوراً نعيش به ونموت به .

(٢) والانتقال يعنى أيضاً انتقالا من العبودية إلى الحرية . وهو الفداء، وهذه هى الكلمة التى تستعمل لتحرير العبد وإرجاع شيء ما كان فى حوزة شخص آخر . وبدون الله يعيش الناس عبيداً لمخاوفهم وعبيداً لخطاياهم وعبيداً لعجزهم ونقصاتهم . أما فى يسوع المسيح فيأتى التحرير الذى به يهرب الخوف والفشل .

(٣) والمعنى الثالث هو انتقال من الدينونة إلى الغفران . إن الإنسان فى خطيته لا يستحق شيئاً إلا الدينونة من الله . ولكن بفضل عمل يسوع المسيح يكتشف الإنسان محبة الله وغفران الله ، ويعرف أنه ليس بعد الآن مجرماً محكوماً عليه بالموت الأبدى أمام عرش دينونة الله بل هو ابن ضال ، وأن طريق العودة إلى بيت أبيه مفتوح له دائماً .

(٤) والمعنى الرابع هو انتقال من سلطان الشيطان إلى سلطان الله . وبواسطة يسوع المسيح يتحرر الإنسان من قبضة الشيطان ، ويقدر أن يصير مواطناً فى مملكة الله ، كما نقل الملك المنتصر مواطنى الأرض التى غلبها إلى مملكة جديدة وأرض جديدة . وهكذا الله فى محبته المنتصرة ينقل الناس من مملكة الخطية والظلام إلى مملكة القداسة والنور والمحبة .

الكفاية المطلقة ليسوع المسيح

الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ . فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلَاطِينَ . الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ . الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ . وَهُوَ رَأْسُ الْجَسَدِ الْكَنِيسَةِ . الَّذِي هُوَ الْبَدَاءَةُ بِكْرٌ مِنَ الأَمْوَاتِ لِكَيْ يَكُونَ هُوَ مُتَقَدِّماً فِي كُلِّ شَيْءٍ . لِأَنَّهُ

فِيهِ سُرَّ أَنْ يَحُلَّ كُلُّ الْمِلْءِ . وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ عَامِلًا الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ بِوَاسِطَتِهِ سَوَاءٌ كَانَ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ . وَأَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً أَجْنَبِيِّينَ وَأَعْدَاءً فِي الْفِكْرِ فِي الْأَعْمَالِ الشِّرِّيرَةِ قَدْ صَالَحَكُمُ الْآنَ . فِي جِسْمِ بَشَرِيَّتِهِ بِالْمَوْتِ لِيُحْضِرَكُمْ قِدِّيسِينَ وَبِلَا لَوْمٍ وَلَا شَكْوَى أَمَامَهُ . إِنْ ثَبَتُّمْ عَلَى الْإِيمَانِ مُتَأَسِّسِينَ وَرَاسِخِينَ وَغَيْرَ مُنْتَقِلِينَ عَنْ رَجَاءِ الْإِنْجِيلِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ الْمَكْرُوزِ بِهِ فِي كُلِّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي تَحْتَ السَّمَاءِ الَّذِي صِرْتُ أَنَا بُولُسَ خَادِمًا لَهُ .

(كولوسى ١ : ١٥ — ٢٣)

هذا الفصل الكتابى من الصعوبة والأهمية فى آن واحد ، بحيث نرى من اللازم أن نطيل التأمل فيه لكى نجتاز غوامضه ونصل إلى عمق معانيه . وسنقسم ما نقوله إلى عدة أقسام ، نبدأ بتحليل الموقف الذى أدى إلى هذا الكلام ، ثم نلقى نظرة شاملة للمسيح ، كما يضعها أمامنا بولس فى هذه الرسالة . فما هى عقيدة هؤلاء المفكرين المخطئين الذين حاربهم بولس ؟

من حقائق العقل البشرى أن الإنسان يفكر فقط فى الأمور التى تحتاج منه إلى التفكير . وفى معظم الأحيان يحتاج الإنسان إلى شيء ما ليفكر فيه . وعندما يرى أن إيمانه معرض للتهجمات والافتراءات ، يبدأ فعلا فى التفكير فيما يشتمل عليه إيمانه . وعندما تجابه الكنيسة بضلالة خطيرة ، تبدأ فى التأكد من غنى وعجائب الإيمان القويم . ومن خواص المسيحية أن بها معيناً لا ينضب من الغنى الروحى ، وتستطيع دائماً أن تخرج من ينبوعها غنى جديداً لمواجهة أى موقف جديد .

وعندما كتب بولس رسالته إلى أهل كولوسى ، لم يكتب لمجرد تمضية الفراغ ،

لكنه كان يكتب — كما رأينا فى المقدمة — ليواجه موقفاً محدداً . كان اتجاه الفكر فى الكنيسة الأولى يسير مع مذهب الغنوسية وكان أتباع هذا المذهب يدعون الغنوسيين أو العارفين . ولم يكتف هؤلاء العارفون بما اعتبروه البساطة الكاملة للديانة المسيحية ، وأرادوا أن يحوّلوا المسيحية إلى فلسفة تسير على قدم المساواة مع الفلسفات الأخرى التى اشتهرت فى ذلك الوقت . وبدأ هؤلاء الغنوسيون بافتراض أساسى . وهذا الافتراض هو أن المادة كلها شر، وأن الروح كلها خير . ثم امتدوا فى تفكيرهم إلى الاعتقاد بأن المادة أزلية ، وأنه من هذه المادة التى كلها شر قد خلق العالم . وغنى عن البيان أن المسيحى يعتقد أن العالم خلق من العدم ؛ أما الغنوسى فيعتقد أن العالم خلق من هذه المادة التى كلها شر .

وإذا كان الله روحاً — والروح كلها خير كما أن المادة كلها شر — فيستتبع ذلك ، كما يرى الغنوسيون ، أن الله الحقيقى لا يقدر أن يلمس المادة . وبما أن الله كله خير وأن المادة كلها شر فلا يقدر الله أن يقوم بعملية الخلق بنفسه . وهكذا اعتقد الغنوسيون أن الله أوجد سلسلة من القوات ، أو الأيونات ، أو الانبثاقات . وكل انبثاق كان يبعد قليلا عن الله . وكانت سلسلة هذه الإنبثاقات طويلة بلا حدود حتى جاء أخيراً انبثاق بعيد كل البعد عن الله ، واستطاع هذا الانبثاق الأخير أن يمسك المادة ويشكلها كما أراد ، ويخلق العالم من المادة . وينتج من هذه الفلسفة أن الله لم يخلق العالم ولكن الخالق له هو هذا الانبثاق الأخير والبعيد كل البعد عن الله .

ولكن الغنوسيين ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا بما أن هذه الانبثاقات تمادت فى البعد عن الله فقد ازدادت أيضاً جهلا بالله . ولم تكن هذه الانبثاقات على جهل بالله فقط ولكنها كانت فى عداوة مع الله . وهكذا وصل الغنوسيون إلى هذه النتيجة وهى أن الانبثاق الذى خلق العالم كان جهلا بالله الحقيقى وعدواً له . وذهبت بعض الفرق الغنوسية إلى القول بأن ذلك الانبثاق البعيد والجاهل بالله والعدو له هو إله العهد القديم بينما الإله الحقيقى هو إله العهد الجديد .

ونشأ من هذا التخبط نتائج حتمية لامفر منها .

١ — كما تراءى للغنوسيين أن الله الخالق للعالم ليس هو الله الحقيقى ، وأن الإله

الخالق فى جهل وعداوة بالإله الحقيق ، وأن العالم شر فى جوهره ، وأن العالم ليس عالم الله . إنه عالم قوة معادية لله . وهذا ما دعا بولس أن يقول مؤكداً أن الله هو الذى خلق العالم ، وأن المفوض المطلق فى الخلق لم يكن جاهلا بالله أو عدواً له بل هو يسوع المسيح ابن الله نفسه (كولوسى ١ : ١٦) وأن العقيدة المسيحية القائلة بتفويض المسيح للقيام بعملية الخلق قد صرح بها جهاراً لمبارزة الضلالة الغنوسية التى كانت تنادى بأن الإله الخالق فى جهل وعداء بالإله الحقيق .

٢ — وكما ارتأى الغنوسيون أن يسوع المسيح لم يكن فريداً وحيداً لا مثيل له . وقد رأينا كيف ادعى الغنوسيون بسلسلة طويلة من الانبثاقات بين العالم والله ، وأن كل انبثاق يأتى من سابقه فيزداد جهلا بالله وعداء له ، وأصروا على أن يسوع المسيح لم يكن إلا مجرد انبثاق من هذه الانبثاقات العديدة ، وما هو إلا واحد من الوسطاء العديدين بين الله والانبثاق . وقد يقف عالياً فى هذه السلسلة وقد يكون فى قمة هذه الانبثاقات ، ولكنه لم يكن فريداً لأنه كان واحداً من هذه الانبثاقات الكثيرة . ويواجه بولس هذا التهجم على المسيح فيقول فى إصرار وتصميم إن المسيح يحل كل الملء (كولوسى ١ : ٩) وأن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسى ٢ : ٩) ومن أسمى أغراض بولس إثبات أن يسوع ليس واحداً من سلسلة ، ولا هو واحد بين كثيرين ، ولاهو الإعلان الجزئى لله ، بل هو المتفرد تفرداً كاملا وأن فيه يحل كل الله — ملء الله .

٣ — وكما زعم الغنوسيون ، وصل بهم تفكيرهم عن المسيح إلى نتيجة أخرى . إذا كانت المادة شراً كلها فيتبع ذلك أن الجسد كله شر ، وأن الشخص الذى أعلن الله لا يمكن أن يكون له جسد حقيقى ، ولم يكن أكثر من ظاهرة روحية فى صورة بشرية . أنكر الغنوسيون إنكاراً كاملا الناسوت الحقيقى ليسوع ، وفى تقديرهم لم يكن يسوع إلا روحاً اتخذ شكلا خيالياً بشرياً . وكانوا يقولون فى كتاباتهم مثلا إن يسوع عندما كان يمشى على الأرض لم يترك آثاراً لقدميه لأنه لم يكن له جسد حقيقى من لحم ودم حتى يطبع هذه الآثار على الأرض . وهذا هو الذى حدا ببولس أن يستعمل العبارات المذهلة فى رسالته إلى كولوسى فيقول عن يسوع وهو يصالح الإنسان بالله « فى جسم بشريته » (كولوسى ١ : ٢٢) ويقول عنه أيضاً إن ملء اللاهوت حل فيه جسدياً ، وفى مقاومته للغنوسيين وفكرتهم عن يسوع الصورى لا الحقيقى ، نرى بولس يصرّ على بشرية ابن الله بلحمه ودمه .

٤ — وواجب الإنسان هو أن يجد طريقه إلى الله . ولكن الغنوسيين يقولون إن الطريق إلى الله تعترضه عقبات وعوائق . وبين العالم والله تقوم هذه السلسلة الطويلة من الانبثاقات . وقبل أن تنهض النفس إلى الله عليها أن تتسلق هذه السلم الطويلة من الانبثاقات . وعند كل درجة من درجات هذه السلم تقف قوة تعترض النفس فى طريقها إلى الله . ولكى تتخطى النفس كل حاجز عليها أن يكون لها إلمام بمعرفة خاصة وتنطق بكلمات السر المعينة . وتحتاج النفس إلى إعداد هائل من المعرفة وإلى مجموعة ضخمة من كلمات السر حتى يتسنى لها أن تصعد إلى الله الأزلى ، وادعى هؤلاء العارفون أنهم على استعداد أن يلقنوا المعرفة وكلمات السر لمن يريد ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى أمرين وهما:

[ا] أن الخلاص هو المعرفة العقلية . ولكى يحارب بولس هذه البدعة ، نادى بجاهرة أن الخلاص ليس هو المعرفة العقلية بل هو الفـــداء وغفران الخطايا . كان الغنوسيون يقولون إن حقائق الإنجيل البسيطة لاتكفى وحدها للخلاص ، والأمر يتطلب معرفة شاملة وكلمات سر خاصة ، وأن الغنوسية وحدها عندها الإلمام الكافى بهذه المعرفة وبهذه الكلمات السرية . ولذلك يصر بولس أن المسيحية ليست المعرفة بل هى الفداء ، وليس الإنسان فى حاجة إلى أكثر من الحقائق الخلاصية لإنجيل يسوع المسيح .

[ب] ويجب أن يكون واضحاً أنه إذا كان الخلاص يعتمد على هذه المعرفة الواسعة فليس الخلاص ميسوراً لكل إنسان . وهكذا قسم الغنوسيون الجنس البشرى إلى قسمين هما الروحى والأرضى ، وأن الروحى فقط هو الذى يستطيع أن يخلص ، وأن الخلاص الكامل أعلى من أن يصل إليه الإنسان العادى . قامت الغنوسية على أرستقراطية عقلية طرد منها عامة الشعب . وبهذا الفكر كتب بولس هذه الآية العظيمة الواردة فى كولوسى ١ : ١٨ لقد كان هدف بولس أن ينذر كل إنسان ويعلم كل إنسان لكى يحضر كل إنسان كاملا فى المسيح يسوع ، وفى وجه هذا الخلاص الميسور فقط للأقلية المحدودة من أصحاب العقول الكبيرة ، يقدم بولس الإنجيل لكل إنسان سواء كان بسيطاً وأمياً أو كان حكيماً ومثقفاً . إن الغنوسيين بشروا بخلاص لطبقة معينة دون غيرها ، أما بولس فبشر بالخلاص لكل إنسان .

كانت هذه إذن العقائد الرئيسية للغنوسية وطالما نحن ندرس هذا الفصل من

الرسالة ، وبالأحرى طالما نحن ندرس هذه الرسالة كلها فلا يجب أن تغيب عن أذهاننا هذه العقائد الضالة والمضلة لأننا فى مواجهة هذه العقائد نجد لغة بولس الصريحة التى جاءت فى وقتها المناسب .

يسوع المسيح فى شخصه الممجد

كولوسى ١ : ١٥ — ٢٣ (تابع)

يحدثنا بولس فى هذا الفصـــل عن أمرين عظيمين يتعلقان بيسوع ، هذان الأمران هما أن يسوع هو صورة الله وفيه قد حل كل ملء بالله . وكلا الأمرين رد على تهجمات الغنوسيين ، قال الغنوسيون إن يسوع ما هو إلا واحد بين عـــديد من الوسطاء ، وأنه — مهما بلغ من المكانة العظيمة — لم يكن إلا إعلاناً جزئياً عن الله .

[١] ويقول بولس رداً على هذه الفرية إن يسوع المسيح هو صورة الله غير المنظور (كولوسى ١ : ١٥) وهنا يستعمل بولس كلمة معبرة توقظ كل أنواع الذكريات عند عقول السامعين لها . هذه الكلمة هى فى اليونانية « إيكون » ومعناها الصحيح « صورة طبق الأصل » وعندما يستعمل بولس هذه الكلمة يريد أن يقرر أن يسوع أظهر للإنسان ما لا يظهر فى الله الآب ، ولكى نعرف ماهو الله على حقيقته يجب أن ننظر إلى يسوع « إن يسوع يظهر الله إظهاراً كاملا للناس فى صورة يستطيعون بها أن يروا الله ويعرفوه ويفهموه . ولكن ما وراء هذه الكلمة من معان هو ما يسترعى انتباهنا .

[١] إن أسفار العهد القديم وكتب ما بين العهدين تحوى قدراً كبيراً عن « الحكمة » ففى سفر الأمثال نجد الفصلين العظيمين عن الحكمة فى الأصحاحين الثانى والثامن « تقول الحكمة فى هذين الفصلين « منذ الأزل مسحت منذ أوائل الأرض . . . كنت عنده صانعاً وكنت كل يوم لذته فرحة دائماً قدامه » . وكذلك نقرأ فى سفر «حكمة سليمان » ٧ : ٢٦ أن هذه الكلمة ، ذاتها تستعمل عن الحكمة « الحكمة هى صورة صلاح الله » كأنى ببولس التفت إلى اليهود وقال لهم « لقد كنتم طول حياتكم تفكرون وتحلمون وتكتبون عن هذه الحكمة ، هذه الحكمة الإلهية « هذه الحكمة القديمة العهد لله »

هذه الحكمة التى صنعت العالم ، هذه الحكمة التى وهبت الحكمة للناس. وفى شخص يسوع المسيح قد جاءت هذه الحكمة إلى الناس التى وهبت الحكمة للناس . فى صورة بشرية لكى يراها الجميع . إن يسوع المسيح هو تحقيق أحلام الفكر اليهودى .

[ب] وقد أكثر الإغريق من ترديد كلمة « لوجوس » أى الكلمة أو كلمة الله أو عقل الله . وهذه الكلمة هى التى خلقت العالم ، ونظمت الكون ، وأبدعته ، وحفظت النجوم فى مسيرها ، وعينت للفصول موعداً محدداً لها . هذه الكلمة هى التى صنعت عالماً معتمداً عليه وموثوقاً به ، وهى التى وضعت العقل المفكر فى الإنسان . وهذا اللفظ عينه « إيكون » هو الذى استعمله « فيلو » الفيلسوف اليونانى مراراً كثيرة للتعبير به عن « اللوجوس » أو كلمة الله .

وكأنى ببولس يتجه إلى اليونانيين ويقول لهم «لقد كنتم طوال الستمائة سنة الأخيرة تحلمون وتفكرون وتكتبون عن عقل الله أو كلمة الله وتدعونه صورة الله . والآن قد جاء يسوع الكلمة متجسداً لكى يراه جميع الناس . وكل أحلامكم وفلسفاتكم قد تحققت جميعها فى المسيح » .

[حـ] فى كل ما سبق ، كانت لنا جولات حول الكلمة اليونانية « إيكون » فى آفاق الفكر العالية وهى الآفاق المألوفة عند الفلاسفة . لكن هناك معنيان للكلمة أبسط مما ذكرناه ، وهما يخطران حالا بعقول الذين سمعوا أو قرأوا هذه الكلمة لأول مرة . إن القصة القديمة تخبرنا عن العمل الختامى الذى تتوجت به الخليقة « وقال الله لصنع الإنسان على صورتنا ، وخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه» (تكوين ١ : ٢٦ ، ٢٧) وهنا نرى ضوءاً كافياً ينير لنا معنى هذه الكلمة . خلق الله الإنسان بحيث لايكون أقل من صورة الله ، لأن الكلمة المستعملة للصورة هى نفس الكلمة « إيكون » الواردة هنا . هذا ما قصد الله للإنسان أن يكون . لكن الخطية دخلت وشوهت الصورة الإلهية ، ومضت الأمور فى مأساة محزنة ، ولم يحقق الإنسان مصيره الذى رسمه له الله . وإذ يستعمل بولس هذه الكلمة ذاتها عن يسوع يريد أن يقول لجميع الناس « أنظروا إلى يسوع . إنه لا يريكم فقط ما هو الله على حقيقته بل يريكم أيضاً ماذا اراد الله بالإنسان أن يكون . وفى المسيح نجد الإنسانية كما أرادها الله . إن يسوع هو الإعلان الكامل لله . وهو فى نفس الوقت الإعلان الكامل للإنسان » وهنا مايمكننا أن نسميه الإعلان المزدوج ليسوع المسيح — إعلان اللاهوت وإعلان الناسوت .

[ى] ونأتى أخيراً إلى شىء أبسط جداً من كل ما قلناه ، وهو بلاشك ماخطر بأذهان قراء بولس البسطاء . ولو لم يكونوا قد عرفوا شيئاً عن أسفار الحكمة ، أو عن كتابات فيلو ، أو عن قصة الخليقة ، فى ميسورهم أن يفهموا هذا الفكر . إن الكلمة « إيكون » هى تصغير للكلمة «إيكوميوم» ومعناها الصورة أو الرسم للمنظر أو للإنسان . واحتفظت لنا أوراق البردى بخطاب أرسله جندى يدعى « أبيون » لأبيه «أبياخوس» وفى نهاية الخطاب يقول « تجدون فى الخطاب صورة لى «إيكوميام» رسمها الفنان « يوكتيمون » وهذه الكلمة « إيكوميام » هى أقرب مترادف للكلمة العصرية « فوتوغرافيا » وكان لهذه الكلمة أيضاً استعمال آخر . إذا أخذت صورة لوثيقة قانونية ، كان يدون فى إيصال الإستلام الخواص الرئيسية والعلامات المميزة للطرفين المتعاقدين خوفاً من التحايل أو وقوع الخطأ . والكلمة اليونانية لهــذه الأوصاف هى « إيكون » وهى نوع من الخلاصة الموجزة للصفات الشخصية والعلامات المميزة للإنسان . وهكذا يقول بولس لأبسط الناس وأقلهم علماً : « أنتم تعرفون أنكم إذا تعاقدتم على شىء ما ، يكتب فى الوثيقة القانونية وصف لكم يدل عليكم ، ويسوع أيضاً صورة الله . وفى يسوع المسيح لاتجدون أقل من الخصائص الشخصية والعلامات المميزة لله . وإذا أردتم أن تروا الله فانظروا إلى يسوع » .

٢ ــ فى كل ما سبق رأينا المعانى التى تحملها لنا كلمة « صورة » والآن نأتى إلى الكلمة الثانية ، وهى المكملة للكلمة الأولى . هذه الكلمة هى « بليروما » ومعناها الملء أو الكمال . ويسوع ليس فقط صورة تقريبية لله ولا هو خلاصة موجزة عن الله . هو أكثر من صورة جامدة بلاحياة عن الله . هو ملء الله وكماله . هو الإعلان الكامل والنهائى عن الله . ولسنا فى حاجة إلى أكثر من ذلك .

يسوع المسيح بالنسبة للخليقة

كولوسى ١ : ١٥ ــ ٢٣ (تابع)

قال الغنوسيون إن عمل الخليقة قام به إله أقل مرتبة من الإله الحقيقى وهو فى نفس الوقت جاهل به وعدو له . وانبرى لهم بولس مفنداً مزاعمهم فقال بصريح العبارة إن مندوب الله فى الخلق هو الإبن بالنسبة للخليقة .

١ — هو بكر كل خليقة (كولوسى ١ : ١٥) ويجب أن نكون فى منتهى الحرص لمعرفة معنى هذا التعبير . وقد يتبادر الذهن لأول وهلة أن المعنى المقصود هو أن الإبن كان جزءاً من الخليقة ، وأنه كان أول من خلق ، وأنه الإنتاج الأول لخليقة الله . ولكننا نلاحظ أن الفكر اليهودى واليونانى قلما يعطى « البكر » معنى زمنياً إلا بطريق غير مباشر . ولكن البكر فى أغلب الأحيان لقب للكرامة . فمثلا اسرائيل — كأمة — هو الإبن البكر لله (خروج ٤ : ٢٢) ومعنى هذا التعبير هو أن أمة اسرائيل هى الأمة المختارة ، الإبن المكرم والمحبوب من الله . والمعنى الثانى هو أن البكر لقب المسيا ففى مزمور ٨٩ : ٢٧ — كما فسره اليهود أنفسهم — أن الوعد الخاص بالمسيا هو « أجعله لى بكراً . أعلى من ملوك الأرض » فكلمة « البكر » إذن لا تحمل معنى الزمن ولكنها لقب للشرف والكرامة . وعندما يقول بولس عن الإبن إنه بكر كل خليقة يقصد أن يقول إن أعظم مجد تناله الخليقة منسوب للإبن . وللإبن قد أعطى الله مجداً وكرامة لم ينلهما أحد سواه .

٢ — إنه بواسطة الإبن خلق كل شىء (عد ١٦) وهذا ينطبق على الأشياء التى فى السماء ، والأشياء التى على الأرض ، ما يرى وما لا يرى . وعند اليهود كما هو عند الغنوسيين نظام كبير للملائكة — عروش وسيادات ورياسات وسلاطين — كانت كل هذه درجات ورتباً متفاوتة بين الملائكة ، ولهم أمكنتهم المحددة فى الدوائر المختلفة فى السموات السبع . أما بولس فيضرب صفحاً عنهم جميعاً ولا يقيم لهم وزناً ويقول لهؤلاء الغنوسيين « إنكم تعطون مكاناً كبيراً فى تفكيركم للملائكة ، وتعتبرون يسوع المسيح واحداً من هؤلاء الملائكة أو القوات السماوية . ولكن يسوع قد خلق الملائكة جميعاً ، وهو أعلى مقاماً منهم كما يعلو الخالق فوق خليقته . وهكذا يقرر بولس أن المفوض من قبل الله فى الخلق ليس أقل مرتبة من الإله الحى الحقيقى ، ولا هو جاهل به أو عدو له بل هو الإبن الحبيب نفسه الذى به قد سر الآب .

٣ — إنه لأجل الإبن خلقت جميع الأشياء (عد ١٧) إن الإبن ليس فقط الخالق بل هو أيضاً الهدف والغاية من الخليقة . وهذا معناه أن الخليقة خلقت لكى تكون له ولكى تعطيه المجد . إن الخليقة خلقت بواسطة الإبن ، وخلقت لكى تكون أخيراً ملكاً له ، وفى عبادتها ومحبتها له يستطيع أن يجد كرامته ومسرة قلبه . إن العالم قد خلق لكى يصير فى النهاية ملكاً للمسيح .

٤ — يستعمل بولس تعبيراً جميلا إذ يقول « وفيه يقوم الكل » وهذا معناه أن الإبن هو الوكيل المفوض فى الخلق من البداءة ، وهو هدف الخليقة فى النهاية ، وبين البداية والنهاية يمسك الإبن بالعالم ويجعله متماسكا معاً . أى أن كل النواميس التى تجعل العالم يسير بانتظام لا فوضى فيه ، هى تعبير عن عقل الإبن . وقانون الجاذبية وسائر القوانين الأخرى التى يقال إنها قوانين علمية ليست قوانين علمية فقط بل قوانين إلهية . إنها القوانين التى تجعل للكون معنى جميلا هى القوانين التى تجعل العالم موثوقاً به ومعتمداً عليه . وكل قوانين العلم والطبيعة هى ش الواقع تعبير عن فكر الله . وبفضل هذه القوانين ، وبفضل عقل الله يرتبط هذا الكون معاً ، ويسير فى اتساق وانتظام ولا يدع مجالا للفوضى لكى تحطمه وتلاشيه .

وإذن ، فالإبن الممجد الرب يسوع المسيح هو بداية الخليقة أى مبدعها ومنشئها ، وهو غاية الخليقة ، وهو القوة التى تربط الخليقة معاً . هذا الخالق ، وهو الحافظ والمعتنى ، وهو الهدف النهائى للعالم .

يسوع المسيح بالنسبة للكنيسة

كولوسى ١ : ١٥ — ٢٣ (تابع)

يضع بولس أمامنا فى العدد الثامن عشر مقام يسوع المسيح بالنسبة للكنيسة وفى هذا العدد يبرز بولس أربع حقائق عظيمة عن يسوع المسيح فى صلته بالكنيسة .

١ — هو رأس الجسد ، أى الكنيسة . إن الكنيسة هى جسد المسيح بمعنى أن الكنيسة هى الكائن الحى الذى يعمل المسيح بواسطته ، والذى يشارك المسيح فى كل اختباراته . لكننا نقول بشرياً إن الجسد هو خادم الرأس والعقل والمخ . الجسد يتحرك بأمر الرأس ، والجسد فى حد ذاته لا قوة له وهو ميت بدون الرأس. وهكذا يسوع هو الروح المرشد ، والموجه ، والمسيطر على الكنيسة ، وكل كلمة أو عمل للكنيسة يجب أن يكون بإرشاد وسلطان المسيح ، وطوعاً لأمره يجب أن تحيا الكنيسة وتتحرك هنا وهناك . وبدونه لا تستطيع الكنيسة أن تفكر التفكير الحق ، كما أنها بدونه لا تستطيع أن تعمل العمل الصحيح ، وبدونه لا تستطيع أن تقرر الاتجاه الصائب . إن يسوع المسيح هو الذى يحكم الكنيسة ، ويرشدها ، ويوجهها

إلى كل فكر وإلى كل عمل . وهنا يبدو لنا أمران ممتزجان معاً . فنحن أمام امتياز كبير . وإنه امتياز كبير بلا شك أن تكون الكنيسة الأداة التي يعمل المسيح بها . ونحن كذلك أمام تحذير كبير . إذا أهمل الإنسان جسده ، أو أساء إليه بجعله غير صالح لخدمة العقل في مشروعاته الكبيرة وأغراضه العظيمة . وهكذا بالحياة المهملة الغير المدققة ، تفقد الكنيسة صلاحيتها كأداة في يد المسيح الذي هو رأسها المفكر وعقلها المدبر .

٢ — هو بداءة الكنيسة . والكلمة اليونانية تعني البداءة بمعنى مزدوج فهي لا تعني فقط البداءة من حيث الزمن كالحرف « ا » هو بداءة الحروف الأبجدية ، والرقم «١» هو بداءة الأرقام العددية . ولكنها تعني أيضاً البداءة من حيث القوة المولدة والخالقة . ونرى فكر بولس بوضوح أكثر عندما نذكر ما قاله عن العالم باعتباره خليقة المسيح . والكنيسة بوصفها الخليقة الجديدة للمسيح « هي خليقته الجديدة بالماء والكلمة » وهكذا نرى أن يسوع المسيح هو ينبوع حياة الكنيسة وكيانها ، والموجه للنشاط المستمر والمتواصل الذي تقوم به الكنيسة .

٣ — هو البكر بين الأموات . وهنا يعود بولس إلى الحادث التاريخي العظيم الذي كان مركز تفكير واعتقاد واختبار الكنيسة الأولى — حادث القيامة . إن المسيح ليس شخصاً عاش ومات ونقرأ عنه ونتعلم من سيرته . هو شخص قام من بين الأموات ، وهو حي إلى أبد الآبدين ، والذي نلتقي به ونختبر حضوره معنا دائماً ، المسيح ليس بطلا ميتاً ولا هو مؤسس مضى زمانه ولكنه حي فينا وحاضر معنا .

٤ — ونتيجة كل هذا أن له التقدم والتفوق على كل شيء ، إن قيامة المسيح هي عنوان تفوقه وسيادته ، وبفضل قيامته قد أظهر انتصاره على كل عدو ، وعلى كل قوة معادية له ، وإنه لا شيء في الحياة أو في الموت يستطيع أن يقيده أو يصده عن طريقه . إن النصرة النهائية لقيامة المسيح قد أعطته الحق الكامل ليكون رباً على الكل .

وهكذا تبدو لنا الحقائق الأربع العظيمة عن يسوع المسيح في علاقته بالكنيسة. وهذه هي الحقائق الساطعة : هو الإله الحي ، وهو أصل ومصدر الكنيسة ، وهو الموجه الدائم للكنيسة ، وهو رب الجميع بفضل انتصاره على الموت .

يسوع المسيح بالنسبة لكل شيء

كولوسى ١ : ١٥ — ٢٣ (تابع)

يقدم لنا بولس فى العددين التاسع عشر والعشرين بعض الحقائق الجليلة عن عمل يسوع المسيح للكون بأسره .

١ — إن الغرض من مجيئه هو المصالحة ، جاء لكى يقف فى الثغرة ويملأ الفجوة الكبيرة الكائنة بين الله والإنسان . ويجب أن نلاحظ هنا شيئاً بغاية الوضوح ، وأن نحتفظ به عالقاً فى ذاكرتنا . إن المبادرة فى المصالحة كانت من الله . إن العهد الجديد لايتحدث أبداً عن مصالحة الله بالإنسان ، بل يتكلم دائماً عن مصالحة الإنسان بالله ، موقف الله بإزاء الإنسان كان ولا يزال موقف المحبة ، ولم يكن شيئاً آخر إلا المحبة . أحياناً نسمع بعض اللاهوتيين يشيرون بأن ما فعله يسوع قد غير اتجاه الله من نحونا ، وأن الله أراد الانتقام من الناس لولا العمل الذى قام به المسيح فحول به غضب الله إلى محبة . ولا يوجد فى العهد الجديد كله ما يبرر هذا الاعتقاد . إن الله هو الذى بدأ بعملية الخلاص والمصالحة ، وبفضل محبة الله للعالم ، أرسل ابنه . وغرضه الوحيد من بذله إبنه للعالم هو لكى يستميله إليه ، كما يقول بولس ، لكى يصالح الكل لنفسه .

٢ — إن واسطة المصالحة كانت دم الصليب . إن القوة المحركة فى المصالحة هى دم يسوع المسيح . وماذا يقصد بولس بهذا القول ؟ يقصد بالضبط ما قاله فى رومية ٨ : ٣٢ « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شىء » ؟ فى موت المسيح يقول لنا الله « إننى أحبكم بهذا المقدار . وأحبكم حباً يجعلنى أرى إبنى يتألم ويموت لأجلكم . وأحبكم لدرجة الرضى بحمل الصليب على قلبى ، إذا كانت هذه المحبة تستطيع أن تردكم ثانية إلى » . الصليب هو البرهان على أنه لا أبعاد ترفض محبة الله أن تصل إليها فى سبيل اكتسابها لقلوبنا . الصليب هو واسطة المصالحة لأن الصليب هو البرهان الأخير على محبة الله وأن محبة كهذه تتطلب منا محبة تستجيب لها . وإذا لم يوقظ الصليب المحبة فى قلوب الناس ، فلن يستطيع شىء آخر أن يحرك هذه القلوب .

٣ — ويجب أن نلاحظ شيئاً آخر عندما يحدثنا بولس عن المصالحة ومداها المتسع . وهو يقول إنه فى المسيح كان الله مصالحاً كل شىء لنفسه . والفكرة هنا أن مصالحة الله تمتد ، ليس فقط إلى كل الناس بل إلى كل الخليقة بما فيها الناطق والجامد . كانت رؤيا بولس أن يصير السكون كله مفدياً ، وأن يعم الفداء جميع الناس وكل الأشياء . وهذا فكر مذهل حقاً ، وهو يعنى أن محبة الله تمد يداً بيضاء إلى كل جزء فى السكون . وليس من شك فى أن بولس كان يفكر هنا فى الغنوسيين . ونحن نذكر أن الغنوسيين اعتبروا المادة كلها شر ولا علاج لشرها ، وبالتالى فإن العالم كله شر . ولكن العالم — كما يراه بولس — ليس شراً . إن العالم هو عالم الله ويأخذ نصيبه فى المصالحة العامة . وهنا لنا درس وتحذير . وكثيراً ما أساءت المسيحية الظن بالعالم وقالت إن الأرض صحراء مخيفة . وكثيراً ما اعتبر المسيحيون العالم شراً . ونحن نذكر الآن قصة واحد من جماعة المطهرين « البيوريتان » . قال له أحد الناس « هذه زهرة جميلة » فأجاب على الفور « لقد تعلمت ألا أقول عن شىء ما إنه جميل فى هذا العالم الخاطىء الضال » . ولقد كان هذا بالفعل موقف الهراطقة الغنوسيين الذين هددوا بضياع الإيمان . ولكن الحقيقة هى أن هذا العالم هو عالم الله ، وهو عالم مفدى بدم المسيح لأنه بطريقة عجيبة كان الله فى المسيح مصالحاً السكون كله بمن فيه من مخلوقات حية ناطقة ، وبما فيه من كائنات صامتة جامدة .

٤ — ويختم بولس هذا الفصل بتعبير صغير وغريب فيقول إن هذه المصالحة لم تشمل فقط كل شىء على الأرض بل امتدت إلى كل شىء فى السماء أيضاً . وكيف كانت المصالحة للأشياء السماوية وللكائنات السماوية ؟ وهذه العبارة شحذ فيها كثير من المفسرين عقولهم وذهبوا فيها مذاهب شتى .

[ا] فمن قائل إنه حتى الأماكن السماوية وحتى الملائكة أنفسهم وقعوا تحت الخطية واحتاجوا إلى الفداء والمصالحة مع الله . ونقرأ فى سفر أيوب هذه الأقوال « لملائكته ينسب حماقة » (أيوب ٤ : ١٨) « والسموات غير طاهرة فى عينيه » (أيوب ١٥ : ١٥) ولهذا كان رأى البعض أنه حتى الملائكة أنفسهم احتاجوا إلى مصالحة الصليب .

[ب] واعتقد أوريجانوس — اللاهوتى المصرى العظيم — أن هذا التعبير الذى استعمله بولس لايشير إطلاقاً إلا إلى إبليس وملائكته . واعتقد أوريجانوس — وهو

واحد من أعظم مفكرى الكنيسة وأكثرهم جرأة وإقداماً — أن فى نهاية العالم سيفدى إبليس وملائكته ويتصالحون مع الله بواسطة عمل يسوع المسيح الكفارى .

[ح] ومن رأى فريق ثالث أن بولس عند ما استعمل هذا التعبير لم يقصد شيئاً معيناً على وجه التحديد . وكل مقصده من هذا التعبير الفخم الرنان أن يظهر كفاية المسيح الكاملة كمالا مطلقاً لا ينقصها شىء إطلاقاً . ويرى القائلون بهذا الرأى أنه من الخطأ محاولة إتخاذ معنى محدد ودقيق لهذا التعبير .

[ى] ومن ألذ الآراء وأطرفها ما قاله ثيودريت وأيده أراسموس . وهو يرى أن المقصود بهذا التعبير ليس مصالحة الملائكة بالله ، بل مصالحة الملائكة بالناس . إن الملائكة غضبوا على الناس لأجل ما فعلوه ضد الله ، واستنكروا ثورة الناس وتمردهم على الخالق ، ورغبوا فى ملاشاة الناس وإفنائهم من الوجود . لكن عمل المسيح الكفارى أزال غضب الملائكة عندما رأوا أن الله لا يزال يحب الناس هذا الحب الفائق الإدراك .

وكيفما كان الأمر ، فإن ما نتيقنه ونؤمن به إيماناً راسخاً هو أن قصد الله الوحيد أن يصالح الناس لنفسه فى يسوع المسيح ، وأن الواسطة فى هذه المصالحة كانت موته على الصليب الذى بين بالبرهان الساطع أن لا حدود ولا أبعاد لمحبته ، وأن هذه المصالحة تمتد إلى كل السكون فى الأرض وفى السماء على حد سواء .

هدف والتزام المصالحة

كولوسى ١ : ١٥ — ٢٣ (تابع)

١ — إن هدف المصالحة هو القداسة . قام المسيح بعمل المصالحة الذى كلفه دمه الثمين لكى يحضرنا إلى الله مقدسين بلا لوم ولا عيب . ومن السهل أن نشوه ونحرف فكرة محبة الله ، من السهل أن نقول : « حسناً ! إذا كان الله يحبنا هكذا ، وإذا كان الله لا يريد منا شيئاً إلا المصالحة معه ، فالخطية ليست بذات أهمية ، ونستطيع أن نعمل ما يحلو لنا ونحن واثقون أن الله لا يزال يحبنا » لكن الحقيقة هى بخلاف ذلك على خط مستقيم . إن حقيقة محبة الله للإنسان لا تعطيه الحرية المطلقة ليفعل ما يشاء . إنها تضع عليه أعظم مسئولية فى العالم ، مسئولية الحياة كما يليق بهذه المحبة وبمعنى من المعانى تجعل محبة الله كل أمر سهلا لأنها تنتزع الخوف من الله . ولا يتصور أننا سنقف أمامه كمجرمين فى يوم الدينونة . ولكننا بمعنى آخر نقول إن محبة الله

تجعل الأمور فى حكم المستحيل علينا أن نقوم بها على الوجه المرضى ، لأنها تثقل هذه المسئولية الضخمة علينا ، مسئولية الحياة الجديدة بمحبة الله .

٢ — وللمصالحة نوع آخر من الإلتزام . إنهـــا تضع علينا التزام الثبات والرسوخ فى الإيمان ، فلا نفقد أبداً الرجاء فى الإنجيل . إن المصالحة تتطلب الولاء لله ، والمصالحة تطلب منا ، سواء كنا فى ضوء الشمس المشرقة أو فى الظلال القاتمة ، أن لانفقد ثقتنا فى محبة الله . ومن عجائب المصالحة أنها تشمر فينا قوة اولاء الذى لا يتزعزع ، وإشعاع الرجاء الذى لا ينهزم .

الإمتياز والخـدمـة

الَّذِي الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ . الَّتِي صِرْتُ أَنَا خَادِمًا لَهَا حَسَبَ تَدْبِيرِ اللهِ الْمُعْطَى لِي لأَجْلِكُمْ لِتَتْمِيمِ كَلِمَةِ اللهِ . السِّرُّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ لَكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ . الَّذِينَ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هٰذَا السِّرِّ فِي الأُمَمِ الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ . الَّذِي نُنَادِي بِهِ مُنْذِرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلاً فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ . الأَمْرُ الَّذِي لأَجْلِهِ أَتْعَبُ أَيْضًا مُجَاهِدًا بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ .

(كولوسى ١ : ٢٤ — ٢٩)

يبدأ بولس هذا الفصل بفكر جرىء . فهو يرى أنه فى سجنه وآلامه مكمل لنقائص شدائد يسوع المسيح نفسه. لقد مات يسوع على الصليب لسكى يخلص كنيسته وقد

خلاصها فعلا بموته . لكن الكنيسة فى حاجة إلى البناء والإمتداد ، ويجب أن تكون قوية ونقية وحقيقية . ولهذا فإن كل إنسان يخدم الكنيسة لتوسيع حدودها ، وتثبيت إيمانها ، وإنقاذها من الأخطاء ، يكون عاملا عمل المسيح . وإن كانت الخدمة التى من هذا القبيل تشتمل على الألم والتضحية ، فإن هذه الآلام تعتبر مكملة لآلام المسيح نفسه . إن الألم فى خدمة المسيح ليس عقوبة . إنه امتياز وشرف لأنه يشترك فى عمل المسيح .

***

وهنا يضع بولس أمامنا جوهر الخدمة التى سلمت له من الرب يسوع . كانت هذه الخدمة أن يقدم للناس اكتشافاً جديداً ، وسراً ظــــل مكتوماً طوال العصور والأجيال ولكنه أعلن الآن فى الوقت المعين . وكان هذا الاكتشاف وهذا السر أن مجد رجاء الإنجيل ليس لليهود فقط بل هو أيضاً لكل إنسان فى كل مكان . وهذه كانت خدمة جليلة أسداها بولس الإيمان المسيحى . إنه قدم المسيح للأمم وهدم إلى الأبد الفكرة القائلة بأن الله ومحبة ورحمة الله ملك لشعب واحد ولأمة واحدة . لقد واجه الناس بهذا الاعتقاد القوى أن المسيح هو للأمم كما هو لليهود. ولأجل هذا يحق لنا أن نعتبر بولس — بمعنى خاص — قديسنا ورسولنا، لأنه لولا بولس لصارت المسيحية نوعاً من اليهودية الجديدة، ولكان محرماً علينا وعلى غيرنا من الأمم قبولها واعتناق مبادئهـا .

***

وهكذا يضع بولس هدفه العظيم أن ينذر كل إنسان ، ويعلم كل إنسان ، ويحضر كل إنسان كاملا فى المسيح . وهو ذات حلم الله . ولقد كان فعلا حلماً جديداً. لم يقبل اليهودى أبداً أن يكون لله أية صلة بأى إنسان آخر غيره . رفض اليهودى كل الرفض الفكرة القائلة بأن الله من نصيب الأمم أيضاً . لقد كان تجديفاً على الله وأمراً لا يصدقه يهودى أن يحتاج الله إلى كل إنسان ، وأن يتاح لكل إنسان أن يقترب من الله . والغنوسيون أيضاً لم يكونوا ليقبلوا أن كل إنسان يمكن إنذاره وتعليمه وإحضاره كاملا إلى الله . وكما رأينا ، كان اعتقاد الغنوسى أن المعرفة اللازمة للخلاص كانت من الصعوبة والشمول بحيث كانت من اختصاص الأرستقراطيـــة

الروحية والصفوة المختارة من أصحاب العقول الكبيرة . قال « والترليمان » فى كتابه « مدخل إلى الآداب » « لم يظهر لغاية الآن معلم كان له من الحكمة بحيث استطاع أن يعلم حكمته للجنس البشرى كله . وفى الحقيقة لم يحاول عظماء المعلمين أن يقوموا بشيء من هذا القبيل . وكانوا يدركون تماماً أن الحصول على الحكمة أمر صعب المنال للأغلبية العظمى من الناس . واعترف هؤلاء المعلمون بمنتهى الصراحة أن الحياة الكاملة هى للأقلية المفضلة من الناس » وهذا هو الحق الذى لا جدال فيه أن الحكمة ليست لكل إنسان . ولكننا من الجانب الآخر نقول إن الشيء الوحيد فى كل العالم الذى يقدم لكل إنسان هو خلاص المسيح . فلم يعط لكل إنسان أن يكون مفكراً وهناك مواهب لم تمنح لكل إنسان ، ولا يستطيع كل إنسان أن يتقن كل حرفة ، أو حتى كل لعبة ، وهناك كثيرون مصابون بعمى الألوان ولا يقدروا أن يروا أى معنى للفن وجماله ، وهناك كثيرون غيرهم مصابون بصمم الألحان وليس لجسد الموسيقى وجود عندهم ، ولا يقدر كل إنسان أن يكون كاتباً ، أو باحثاً ، أو واعظاً أو مغنياً ، أو متكلماً . وحتى المحبة البشرية فى أسمى درجاتها لم توهب لكل الناس إن العطية الوحيدة الموهوبة لكل الناس هى عطية يسوع المسيح . وما أكثر المواهب التى لا يستطيع أبداً كل إنسان أن يمتلكها ، وما أكثر الإمتيازات التى لا يقدر أى إنسان أن يستمتع بها أو يجتلى قيمتها . وهناك مرتفعات فى هذا العالم ليس فى مقدور كل إنسان أن يصعد إليها . ولكن لكل إنسان قد فتح الباب لأخبار الإنجيل السارة، ولمحبة الله فى المسيح يسوع ربنا ، وللقوة المغيرة التى تستطيع أن تعطى القداسة للحياة .

الأصحاح الثانى

جهاد المحبة

فَإِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَىَّ جِهَادٍ لِى لِأَجْلِكُمْ وَلِأَجْلِ الَّذِينَ فِى لَاوُدِكِيَّةَ وَجَمِيعِ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا وَجْهِى فِى الْجَسَدِ .

(كولوسى ٢ : ١)

يرتفع الستار هنا قليلا فنلمح قلب بولس المتوقد بالحب من أجل الإخوة فى كولوسى . إنه يجوز جهاداً عنيفاً من أجل المسيحيين الذين يحبهم وإن لم يكن قد رآهم وجهاً لوجه . ويضم اللاودكيين مع الكولوسيين ويتحدث عن هؤلاء جميعاً الذين لم يروا وجهه . وهو مشغل بفكره فى تلك المجموعة من المدن الثلاث المتقاربة فى وادى ليسكوس وهى لاودكية وهيرابوليس وكولوسى . كانت لاودكية وهيرابوليس قائمتين على شاطىء النهر ، وكانت إحداهما فى مستوى النظر بالنسبة للأخرى . أما كولوسى فكانت تبعد عن النهر مسافة إثنى عشر ميلا . وفى هذه المجموعة من المسيحيين فى المدن الثلاث كان بولس مستغرقاً فى تفكيره وهو يتصورهم أمامه بعين ذهنه . والكلمة التى يستعملها للجهاد لها معنى عميق وهى الكلمة التى يشتق منها الكرب الشديد عند النزع الأخير . إن بولس يحارب معركة حامية لأجل أصدقائه، ويجب أن نذكر أين كان يقيم بولس حين كتب هذه الرسالة . كان بولس سجيناً فى روما متوقعاً المحاكمة التى تنتهى بالموت . فبأية صورة كان جهاده إذن ؟

١ — كان جهاد الصلاة . لابد أن بولس كان مشتاقاً ليذهب إلى كولوسى بنفسه لابد أنه كان تواقاً لمواجهة المعلمين المضلين ، ويرد على حججهم ، ويرى بعينيه الذين كانوا ينخدعون بهذه الأكاذيب وينحرفون عن الحق . لكن بولس كان فى السجن، ومر عليه وقت لم يكن أمامه شىء يعمله إلا الصلاة . والشىء الذى لم يستطع أن يقوم

به بنفسه ، كان يتركه بين يدى الله . ولأجل هذا كان بولس يصارع فى الصلاة بلجاجة لأجل الذين لم يستطع أن يراهم . وعندما يفصلنا الزمن والمسافات والظروف عن الذين نشتاق أن نمد لهم يد المساعدة ، لا يبقى أمامنا إلا طريق واحد لمساعدتهم ، وينبغى أن يكون أول طريق نتخذه ، وذلك بالصراع فى الصلاة لأجلهم .

٢ — وقد يجوز لنا أن نقول إن جهاداً آخر كان فى ذهن بولس . كان بولس إنساناً له مشاكله الطبيعية كأى إنسان آخر . كان بولس فى قيود السجن ينتظر المحاكمة أمام نيرون من وقت لآخر ، ونتيجة المحاكمة لابد أن تسفر عن الموت المؤكد. وقد كان من السهل عليه أن يقوم بدور الجبان فيهرب من الميدان . وكان سهلا عليه أن يتخلى عن الحق حباً فى الأمان ، وكان سهلا عليه أن يخذل يسوع المسيح ويتنحى عن قضيته . ولكن بولس عرف حق المعرفة أن تصرفاً كهذا يجر وراءه نتائج وخيمة العاقبة بالنسبة للإخوة . ولو خذل بولس المسيح وأنكره ، لكان المؤمنون فى تلك الكنائس الحديثة يضعفون . وتنخلع قلوبهم من مكانها ، وتضيع منهم قوة المقاومة . إن جهاد بولس لم يكن لأجل نفسه فقط ، ولكن لأجل من اتجهت عيونهم نحوه ، والذين اعتبروه قائداً وأباً لهم فى الإيمان . ونحن نحسن صنعاً إذ نذكر عند اتخاذ أى موقف لنا فى حياتنا أن هناك أناساً يتطلعون إلينا . إن جهادنا فى الحياة ليس لأنفسنا فقط . بل إن كرامة المسيح هى بين أيدينا . وإيمان الآخرين دائماً تحت رعايتنا .

علامات الكنيسة الأمينة (١)

لِكَيْ تَتَعَزَّى قُلُوبُهُمْ مُقْتَرِنَةً فِي الْمَحَبَّةِ لِكُلِّ غِنَى يَقِينِ الْفَهْمِ لِمَعْرِفَةِ سِرِّ اللهِ الآبِ وَالْمَسِيحِ. الْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . وَإِنَّمَا أَقُولُ هٰذَا لِئَلاَّ يَخْدَعَكُمْ أَحَدٌ بِكَلاَمٍ مَلِقٍ . فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ غَائِباً فِي الْجَسَدِ لٰكِنِّي مَعَكُمْ فِي

الرُّوحِ فَرِحًا وَنَاظِرًا تَرْتِيبَكُمْ وَمَتَانَةَ إِيمَانِكُمْ فِي الْمَسِيحِ. فَكَمَا قَبِلْتُمُ الْمَسِيحَ يَسُوعَ الرَّبَّ اسْلُكُوا فِيهِ. [مُتَأَصِّلِينَ وَمَبْنِيِّينَ فِيهِ وَمُوَطَّدِينَ فِي الإِيمَانِ كَمَا عُلِّمْتُمْ مُتَفَاضِلِينَ فِيهِ بِالشُّكْرِ.

(كولوسى ٢ : ٢ — ٧)

يرفع بولس هنا صلاة لأجل الكنيسة . وفى هـــذه الصلاة نستطيع أن نرى العلامات التى تميز الكنيسة الحية والأمينة :

١ — العلامة الأولى للكنيسة الأمينة هى أن لها قلوباً متشجعة . ويصلى بولس لكى تتشجع أو تتعزى قلوبهم . والكلمة الأصلية « باركلين » تحمل فكرة إسناد إنسان وتقويته على مواجهة موقف صعب بثقة وشجاعة . يستعمل أحد المؤرخين الاغريق هذه الكلمة فى مناسبة رائعة ذات مغزى عظيم . هذه المناسبة هى أن كتيبة يونانية فقدت روحها المعنوية ، وضاعت الشجاعة من الجنود ، فأرسل القائد جندياً باسلا ليعيد الشجاعة إلى قلوبهم ، وأخذ يحدثهم حتى عادت الشجاعة إليهم ، وتحول الجنود الخائفون إلى جنود بواسل . وهذا هو المعنى المقصود بالتعزية أو التشجيع . وكانت صلاة بولس أن تمتلىء قلوب المؤمنين بتلك الشجاعة التى تستطيع أن تواجه أى موقف ببطولة .

٢ — والعلامة الثانية للكنيسة الأمينة هى اقتران الأعضاء معاً بالمحبة . وبدون المحبة لا يمكن أن يكون هناك شيء إسمه كنيسة . إن سياسة الكنيسةوإدارتها ليست بذات أهمية . وفرائض الكنيسة وطقوسها لا قيمة لها . هذه الأشياء قد تتغير من زمن إلى زمن . ومن مكان إلى مكان . أما العلامة الوحيدة التى تمتاز بها الكنيسة الحقيقية فهى المحبة لله والمحبة للإخوة ، وعندما تموت المحبة تموت الكنيسة وعندما توجد المحبة تكون الكنيسة قوية ، لأنه حيث تكون المحبة ، يكون يسوع المسيح ، إله المحبة .

٣ ــ والعلامة الثالثة للكنيسة الأمينة هى أن تكون مجهزة بكل أنواع الحكمة . ويستعمل بولس ثلاث كلمات للحكمة .

[أ] فى العدد الثانى يستعمل كلمة « الفهم » والكلمة فى أصلها تعنى المعرفة التطبيقية ، وهى المقدرة على تطبيق المبادىء الأولية للمسيحية على كل موقف يواجهنا فى الحياة . هى المقدرة المؤكدة على تقدير أى موقف وتقرير المنهج العملى بشأنه . إن الكنيسة الحقيقية هى التى تملك المعرفة العملية التى تستطيع بها أن تواجه أى موقف تدعى إليه .

[ب] ويقول الرسول بولس عن يسوع إنه مذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم . وهاتان الكلمتان ليستا مترادفتين إذ هناك فرق بينهما . العلم هو القدرة على إدراك الحق عندما نراه أو نسمعه أو عندما يبرق أمامنا مثل ومضة خاطفة . لكن الحكمة هى القدرة على الوقوف بجانب الحق وتأييده والدفاع عنه بالحجج المقنعة والبراهين الذكية . العلم هو الوسيلة التى بها يستوعب الإنسان الحق . أما الحكمة فهى التى يستطيع الإنسان بها أن يعطى سبباً للرجاء الذى فيه .

وهكذا يكون لدى الكنيسة الحقيقية الحكمة التى تقدر بها أن تتصرف أحسن تصرف فى كل موقف ، الحكمة الواضحة المعالم البعيدة النظر ، الحكمة التى لا يعميها الجهل والتعصب . وعندها الحكمة الغريزية التى تعرف بها الحق وتتمسك به عندما ترى الحق أو تسمعه . وعندها الحكمة التى تجعل الحق مقبولا لدى أصحاب العقول المفكرة والتى تستطيع أن تقدم الحق الآخرين بالأسلوب الحكيم .

ويقول بولس إن كل هذه الحكمة مذخرة فى المسيح . وباستعماله كلمة « مذخرة » يوجه ضربة قوية الى صدور الغنوسيين . لأن الكلمة فى أصلها تعنى الحكمة المختبئة عن الأنظار ولذلك فإن هــــذه الحكمة هى سر من أسرار المسيح . ولقد رأينا أن الغنوسيين اعتقدوا بلزوم المعرفة الشاملة المتسعة كشرط أساسى للخلاص ، تلك المعرفة التى وضعوها فى كتبهم وقالوا عن هذه الكتب إنها « أبو كريفوس » أى الأسفار المختفية عن عيون عامة الشعب وبسطاء الناس . وكأنى به يقول لهم « أنتم أيها الغنوسيون لكم حكمتكم وهى مخفية عن عيون الناس العاديين . أما نحن فلنا معرفتنا . لكن معرفتنا ليست مخبأة فى كتب لاتفهم ولا تصدق . إنها مخبأة فى المسيح ولذلك

فهى مفتوحة ومعلنة لكل الناس فى كل مكان . إن حق المسيحية ليس سراً محجوباً عن العيون بل هو سر معلن للجميع » .

علامات الكنيسة الأمينة (ب)

كولوسى ٢ : ٢ — ٧ (تابع)

٤ — العلامة الرابعة للكنيسة الأمينة هى أن لها القدرة على مقاومة التعاليم المضلة . ويجب أن تكون هكذا بحيث لا يقدر الناس أن يخدعوها بكلام التملق والمداهنة . وكلمة « التملق » مأخوذة من ساحات المحاكم حيث يستطيع المحامى اللبق أن يضع أردأ الامور فى أحسن صورة ، ويقدر أن يخرج المجرم من يد العدالة . إن الكنيسة الحقيقية يجب أن تتمسك بالحق فلا تصغى إلى الحجج المموهة والأقاويل الخـــادعة .

٥ — العلامة الخامسة للكنيسة الامينة هى أن يكون لها تدريب الجندى . إن بولس فرح لسماعه بترتيب ومتانة إيمان الكولوسيين . وكلا الترتيب والمتانة كلمتان حربيتان . فالكلمة « ترتيب » مأخوذة من الرتبة أو التنظيم المرتب . والكنيسة يجب أن تكون جيشاً منتظماً مرتباً ، رتبة فوق رتبة ، وكل إنسان فى مكانه المعين، راغب ومستعد أن يطيع أوامر القيادة . أما كلمة « المتانة » فهى تعنى حصناً منيعاً وفيلقاً لا يتزعزع أمام هجمات العدو . وفى داخل الكنيسة يجب أن تكون صفوف مرتبة ، ومتانة قوية مثل ترتيب ومتانة الجيش المرتب والمدرب .

٦ — العلامة السادسة للكنيسة الامينة أن حياتها ينبغى أن تكون فى المسيح . أعضاؤها يجب أن يسلكوا فى المسيح ، وحياتهم كلها يجب أن تقضى فى الشعور الدائم بحضور المسيح . يجب أن تكون الحياة متأصلة ومبنية فى المسيح . وأمامنا هنا صورتان . فالكلمة المستعملة للتأصل هى الكلمة التى توصف بها شجرة لهـــا جذورها العميقة فى الأرض . والكلمة المستعملة للبناء هى الكلمة التى يوصف بها بيت مقام على أساس قوى ومتين . وكما تتأصل جذور الشجرة العظيمة على بعد سحيق فى باطن الأرض وتستمد منها غذاءها هكذا ينبغى للمسيحى أن يتأصل فى المسيح فيكون المسيح مصدر حياته وقوتها . وكما يقوم البيت ثابتاً لأنه مبنى على أساس

قوى هكذا الحياة المسيحية قوية ضد أية عاصفة لأنها مؤسسة لا على قوة إنسان بل على قوة المسيح . إن المسيح هو مصدر الحياة المسيحية ، وهو أساس متانة المسيحى .

٧ - العلامة السابعة للكنيسة الأمينة هى تمسكها بالإيمان الذى تسلمته . إنها لا تنسى أبداً التعليم الذى قبلته عن المسيح ، ولا الإيمان الذى تعلمته . ويجب أن يلاحظ جيداً أن هذا التمسك بالإيمان لا يعنى الأرثوذكسية الجامدة التى ترى فى كل تغيير ضلالة وفى كل فكر جرىء هرطقة . ونحن نذكر جيداً أن بولس فى هذه الرسالة يفكر تفكيراً جديّاً عن يسوع المسيح ولكن هناك عقائد معينة تبقى كما هى أساساً لكل اعتقاد فلا يعتريها التغيير على مر الأجيال . إن بولس قد يتخذ فى رحلاته الفكرية طرقاً جديدة ولكنه دائماً يبدأ وينتهى بالحق الذى لا يتغير والذى لا يقبل التغيير وهو أن يسوع المسيح هو الله الذى ظهر فى الجسد .

٨ - العلامة الثامنة للكنيسة الأمينة هى امتلاؤها بروح الشكر المتزايد والمتفاضل . إن تقديم الشكر هو النغمة الأصيلة والدائمة فى لحن الحياة المسيحية . يقول « لا يتفوت » بهذا الصدد « إن تقديم الشكر هو غاية ونهاية كل سلوك بشرى سواء كان تقديم الشكر بالكلام أو بالأعمال . إن الاهتمام الوحيد لدى المسيحى هو أن يعبر عن شكره لله . وعن كل ماصنعه الله فى الطبيعة أو فى النعمة ، وأن يظهر هذا الشكر سواء بكلامه أو بحياته » . لم يكن أبيكتيتوس مسيحياً بل كان ذلك العبد الأعرج العجوز الضئيل الجسم الذى صار واحداً من عظماء معلمى الآداب فى الوثنية وقد قال فى بعض أحاديثه هذه العبارة الجميلة « كيف يتسنى لى ، وأنا رجل عجوز أن أغنى أغانى المديح لله إلا بلسانى ؟ لو كنت بلبلا لصدحت كالبلابل . ولو بجعة لغنيت مثل البجع . ولكننى كائن عاقل لذلك وجب على أن أسبح دائماً بحمد الله . هذا هو عملى الذى أنا قائم به ، ولن أتخلى عن مركزى طالما قد أعطى لى أن أملأه . وإنى أناشدكم أن تضموا أصواتكم معى فى تقديم الحمد والشكر لله » .

وعلى المسيحى أن يجعل من حياته لحناً لا ينقطع ولا يتوقف فى تقديم الحمد والشكر لله على البركات التى يجزلها بغنى وسخاء .

إضافات للمسيح

انظُرُوا أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ حَسَبَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ وَلَيْسَ حَسَبَ الْمَسِيحِ . فَإِنَّهُ فِيهِ يَحُلُّ كُلُّ مِلْءِ اللَّاهُوتِ جَسَدِيًّا . وَأَنْتُمْ مَمْلُوؤُونَ فِيهِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ . وَبِهِ أَيْضًا خُتِنْتُمْ خِتَانًا غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ بِخِتَانِ الْمَسِيحِ . مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ . وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ أَحْيَاكُمْ مَعَهُ مُسَامِحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا . إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ . إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلَاطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ .

فَلَا يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَوْ هِلَالٍ أَوْ سَبْتٍ . الَّتِي هِيَ ظِلُّ الأُمُورِ الْعَتِيدَةِ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَلِلْمَسِيحِ . لَا يُخَسِّرْكُمْ أَحَدٌ الْجَعَالَةَ رَاغِبًا فِي التَّوَاضُعِ وَعِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ مُتَدَاخِلًا فِي مَا لَمْ يَنْظُرْهُ مُنْتَفِخًا بَاطِلًا

مِنْ قِبَلِ ذِهْنِهِ الْجَسَدِى . وَغَيْرَ مُتَمَسِّكٍ بِالرَّأْسِ الَّذِى مِنْهُ كُلُّ الْجَسَدِ بِمَفَاصِلَ وَرُبُطٍ مُتَوَازِرًا وَمُقْتَرِنًا يَنْمُو نُمُوًّا مِنَ اللهِ .

إِذًا إِنْ كُنْتُمْ قَدْ مُتُّمْ مَعَ الْمَسِيحِ عَنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ فَلِمَاذَا كَأَنَّكُمْ عَائِشُونَ فِى الْعَالَمِ تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ لا تَمَسَّ وَلا تَذُقْ وَلا تَجُسَّ . الَّتِى هِىَ جَمِيعُهَا لِلْفَنَاءِ فِى الاِسْتِعْمَالِ . حَسَبَ وَصَايَا وَتَعَالِيمِ النَّاسِ . الَّتِى لَهَا حِكَايَةُ حِكْمَةٍ بِعِبَادَةٍ نَافِلَةٍ وَتَوَاضُعٍ وَقَهْرِ الْجَسَدِ لَيْسَ بِقِيمَةٍ مَا مِنْ جِهَةِ إِشْبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ .

(كولوسى ٢ : ٨ — ٢٣)

ما من شك فى أن هذا الفصل ، بالنسبة لنا ، هو من أصعب الفصول التى كتبها بولس الرسول . ولعله كان واضحاً كل الوضوح عند أهل كولوسى الذين سمعوه أو قرأوه لأول مرة . ووجه الصعوبة فى فهم هذا الفصل هو ازدحامه من البداية إلى النهاية بإشارات إلى التعليم المضل الذى كان يشكل خطراً على حياة الكنيسة فى كولوسى . ونحن لا نعرف بالتحديد والتفصيل ما كان يحوى هذا التعليم . ولأجل هذا فإن الإشارات غامضة لنا ، وليس أمامنا إلا الحدس والتخمين ، أما أهـــل كولوسى فقد فهموه فهماً تاماً بعقولهم وقلوبهم . وسندرس الآن ما يتضمنه هذا الفصل من الأفكار الرئيسية التى كانت تهدد كيان الكنيسة فى كولوسى . وبعد أن نلقى نظرة شاملة عليه ، سندرسه بأكثر إفاضة فى الفصول القصيرة القادمة .

إن الشىء الوحيد الذى يتضح أمامنا هو أن هؤلاء المعلمين الكذبة أرادوا أن يقبل الكولوسيون ما يمكن تسميته « إضافات للمسيح » ، وكانوا يعلمون أن يسوع المسيح وحده ليس كافياً ، فهو ليس المفرد العلم بل كان واحداً بين مظاهر كثيرة

الله ، وأنه كان من الضرورى عبادة وخدمة ومعرفة القوات الملائكية والإلهية الأخرى بالإضافة إليه . ونستطيع أن نرى من خلال هذا الفصل خمس إضافات للمسيح كان هؤلاء المعلمون الكذبة ينادون بها .

١ — أرادوا أن يعلموا الناس فلسفة إضافية (ع ٨) وكان من رأيهم أن الحق البسيط الذى كرز به يسوع ودوّن فى الإنجيل لم يكن كافياً ، ويحتاج إلى ملئه وتكملته بنظام موسع من الفكر الفلسفى الذى كان من أشق الأمور على الإنسان البسيط أن يفهمه ، ولا يستوعبه إلا الراسخون فى العلم .

٢ — أرادوا أن يقبل الناس على دراسة أسرار النجوم (عد ٨) . ونحن لا نعرف بالتدقيق ما هو المقصود بأركان العالم ولكن أغلب الظن أنها الأرواح العنصرية للكون وبالأخص الكواكب والنجوم ، وكان هؤلاء المعلمون يقولون إن للنجوم تأثيراً على الناس ، ولذلك فهم فى حاجة إلى معرفة خاصة فوق ما علّم يسوع ليتحرروا من سلطان النجوم .

٣ — وأرادوا أن يفرضوا ختاناً على المسيحى (عد ١١) فالإيمان لم يكن كافياً . ويجب أن يضاف الختان إليه ، فإن علامة فى الجسد يمكنها أن تحل محل تغيير القلب أو على الأقل تضاف إليه .

٤ — وأرادوا أن يضعوا قوانين وتنظيمات للزهد والتقشف (عد١٦، ٢٠-٢٣) أرادوا أن يضعوا كل أنواع القوانين واللوائح عما يجب أن يؤكل ويشرب ، وعن الأيام الواجب ممارستها فى الأعياد والصيام . ويجب العودة إلى كل القوانين اليهودية القديمة الخاصة بالطعام — مع إضافة أشياء أخرى إليها .

٥ — أرادوا إدخال عبادة الملائكة (عد١٧) كانوا يعلمون أن يسوع ماهو إلا واحد فقط من عدد كبير من المتوسطين بين الله والناس ، ويجب أن تؤدى لجميع هؤلاء الوسطاء فروض العبادة والخدمة .

ويمكننا الآن أن نرى بسهولة أن تلك التعاليم كانت مزيجاً بين الغنوسية واليهودية . فالمعرفة العقلية والتنجيم يأتيان مباشرة من الغنوسية ، أما التقشف والقوانين الخاصة بالطعام والشراب فتأتى مباشرة من اليهودية ، والذى حدث أن

الغنوسيين اعتقدوا أن المعرفة لازمة للخلاص بالإضافة إلى الإنجيل ، وأن عدداً من اليهود انضموا إلى الغنوسيين وأعلنوا أن المعرفة المطلوبة ليست أكثر من المعرفة التى تقدمها الديانة اليهودية ، وهذا يوضح لماذا جمعت تعاليم المعلمين الكذبة فى كولوسى بين عقائد الغنوسية وممارسات اليهودية .

والشىء الذى نعلمه علم اليقين فى تعاليم هؤلاء المضلين أن يسوع المسيح ، وتعاليم يسوع المسيح ، وعمل يسوع المسيح ليست فى ذاتها كافية للخلاص .

ولنأخذ الآن كل جزء من أجزاء هذا الفصل على حدة .

التقاليد والنجوم

أُنْظُرُوا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ حَسَبَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ وَلَيْسَ حَسَبَ الْمَسِيحِ . فَإِنَّهُ فِيهِ يَحُلُّ كُلُّ مِلْءِ اللاَّهُوتِ جَسَدِيّاً . وَأَنْتُمْ مَمْلُوؤُونَ فِيهِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ .

(كولوسى ٢ : ٨ — ١٠)

يبدأ بولس برسم صورة واضحة المعالم لأهداف هؤلاء المعلمين الكذبة ، فيحذر المؤمنين فى كولوسى من أن يسبيهم أحد بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقاليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح ، والسبى هو أخذ رعايا من أمة مغلوبة على أمرها ومعاملتهم كما يعامل العبيد الأرقاء . وكان الأمر فى نظر بولس مدعاة للأسى الشديد إذ بعـــد أن تنسموا أريج الفداء والحرية يرتمون فى أحضان عبودية قاسية جديدة . وهؤلاء المعلمون يعرضون فلسفة يدعون أنها لازمة بالإضافة إلى تعاليم المسيح وكلمات الإنجيل .

١ — إنهـا فلسفة تسلموها بتقليد بشرى . إدعى الغنوسيون أن تعليمهم مبنى

على أقوال قالها يسوع شفاهاً لمريم ، ومتى ، وبطرس . وقالوا إن هذه الكلمات لم ينطق بها المسيح علانية أمام الجمهور ، وإنما اختص بها عدداً قليلا من المختارين . ويبادر بولس فيتهم هؤلاء المعلمين بأن تعاليمهم لا تزيد عن أقوال بشرية ، وليس لها ضمان ولا أساس فى الأسفار المقدسة ، وهى من إنتاج العقل البشرى وليست رسالة من كلمة الله . وبولس لا يقول قولا كهذا من قبيل التشبث بالقديم ومحاربة الجديد بل يريد أن يعلن بكل مجاهرة أن كل تعليم لا يعتبر تعليماً مسيحياً إذا خالف حقائق الكتاب المقدس الأساسية .

٣ — وهى فلسفة لها اتصال بأركان هذا العالم . وهذا التعبير ناقشه المفسرون كثيراً ولكننا لا نزال فى شك من حقيقته . وكلمة «الأركان» تحمل معنيين .

[أ] المعنى الأول هو وضع الأشياء فى صف مرتب وهى تستعمل عادة فى تصفيف الجنود بانتظام ولكنها بالأكثر تشير إلى الحروف الأبجدية التى توضع بترتيب وتنسيق كأنها صف واحد أو صفوف منتظمة . أو قد يدل على الخطوات الأولية لبحث أى موضوع من المواضيع . ولعل بولس يقول لهم بهذا المعنى « إن هؤلاء المعلمين الكذبة يدعون بأنهم متبحرون فى المعرفة التى يقدمونها لكم . وحقيقة الأمر أن معرفتهم لجة أولية لا تهذب النفس لأنها فى أحسن صورها إنتاج القرائح البشرية . وإذا جنحت قلوبكم إلى هؤلاء المعلمين الأدعياء لن تحصلوا على المعرفة العميقة بل إنكم ستعودون إلى الوراء وتتلقون على أيديهم معرفة بدائية مضللة كان يجب أن تطرحوها وراء ظهوركم من زمن طويل . إن الإصغاء إلى ما يسميه هؤلاء المعلمون فلسفة ما هو إلا خطوة إلى الوراء لا إلى الأمام . إن المعرفة الحقيقية هى فى يسوع المسيح لا سواه .

[ب] ولكن لكلمة « أركان » معنى ثان وهو الأرواح العنصرية للعالم وعلى وجه الخصوص أرواح النجوم والكواكب . ولا يزال بعض الناس إلى اليوم يتخذون التنجيم بصورة جدية ويقرأون بشغف ما تنشره الجرائد عن تنبؤات النجوم لهم . كان للتنجيم فى العالم القديم مكانة مرموقة حتى أن أحدهم دعاه « ملك العلوم » وكان له تأثير عظيم على عظماء الرجال أمثال يوليوس قيصر وأغسطس قيصر وعلى الفلاسفة الساخرين مثل طيباريوس ؛ وعلى أصحاب العقول المتزنة مثل فسباسيان . هؤلاء لم يكونوا ليخطوا خطوة واحدة من غير استشارة النجوم . وكان اسكندر

الأكبر يعتقد اعتقاداً جازماً بتأثير النجوم . وإذا اتفق لإنسان أن يولد فى برج السعد ، حالفه السعد مدى الحياة . وإذا ولد فى برج النحس كانت حياته كلها نحساً وبؤساً . وإذا أرادوا لمشروع نجاحاً راقبوا النجوم وانتظروا حتى يظهر لهم النجم السعيد . وأحس الناس أنهم فى قبضة القوة الجبرية المطلقة التى تقرر مصائرهم بتأثير النجوم . كان الناس عبيداً للنجوم بكل معنى الكلمة .

وهنا يقترب الغنوسيون من هؤلاء الناس المساكين ويلوّحون لهم ببارقة أمل فى احتمال النجاة من المصير السيء الذى تفرضه النجوم عليهم . هذا الإحتمال الوحيد هو فى حفظ كلمات السر التى يلقنونها لهم مع إلزامهم بإتقان جانب كبير من المعرفة السرية والتعاليم الغامضة التى زعموا أن لها القدرة على تخليص الناس من سيطرة النجوم وسلطانها الغاشم . وكانوا يقولون إن يسوع المسيح شخصية ممتـــازة ويستطيع أن يسدى لكم أفضالا كثيرة ولكن ليس فى وسعه أن ينجيكم من استعباد النجوم لكم . ولدينا نحن فقط الأسرار الكفيلة بتحريركم من قبضتها المستبدة . وكان رد بولس على هذه الضلالة « أنتم أيها المؤمنون فى كولوسى لستم فى حاجة إلى شيء أكثر من المسيح ليسيطر على كل قوة فى الكون كله لأن فيه يحل كل ملء اللاهوت . وهو رأس كل سلطان وسيادة لأنه خالق الجميع » .

قدم المعلمون الغنوسيون فلسفة إضافية وتنجيماً إضافياً ولكن بولس أصر على كفاية المسيح المنتصرة على أية قوة أو أى جزء فى الكون بأسره . ولا تقدرون أن تعتقدوا بسلطان المسيح وبتأثير النجوم فى آن واحد .

الختان الحقيقى وغير الحقيقى

وَبِهِ أَيْضًا خُتِنْتُمْ خِتَانًا غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ بِخِتَانِ الْمَسِيحِ . مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ الَّذِى أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ .

(كولوسى ٢ : ١١ ، ١٢)

كان معلمو الضلال يطالبون المسيحيين الأمميين بوجوب الختان . وكان الختان علامة شعب الله المختار . واستندوا فى أمر الختان على قول الله لإبراهيم « هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون فى لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بينى وبينكم » (تكوين ١٧ : ١٠) . وفى كل عصور التاريخ الإسرائيلى انقسم الناس إلى فريقين فى موضوع الختان . قال فريق منهم إن الختان فى حد ذاته كاف ليصلح أمور الإنسان مع الله ، وإن الختان الجسدى هو كل المطلوب . بل تمادوا إلى حد القول إنه لا يهم أن يكون الإنسان صالحاً أو شريراً طالما كان إسرائيلياً ومختوناً . ولكن كبار المفكرين وعظماء القادة الروحيين فى اسرائيل وكبار الأنبياء كان لهم رأى آخر يختلف كل الاختلاف عن الرأى السابق وبالطبع كان الروح القدس ملهماً لهم . واستعملوا نفس كلمة الختان بمعنى جديد وجرىء . فتحدثوا عن الشفاه الغلفاء (خروج ٦ : ١٢) وعن القلب المختون والقلب الأغلف (لاويين ٢٦ : ١١ ، حزقيال ٤٤ : ٧ ، ٩ ، تثنية ٣٠:٦) وتكلموا عن الأذن الغلفاء (إرميا ٦ : ١٠) لم يكن الختان عند قادة الفكر إجراء عملية فى جسد الإنسان بل حدوث تغيير فى قلبه وفى حياته كلها . كان الختان علامة إنسان مكرس لله ولكن التكريس لم يكن فى ختان الجسد بل فى استئصال أى شىء يتنافى مع إرادة الله من حياة الإنسان المكرس .

وهذا هو جواب الأنبياء فى القرون الماضية . وهو لا يزال جواب بولس إلى معلمى الضلال . قال لهم بعبارة أخرى « أنتم تطالبون بالختان ولكن يجب أن يستقر فى أذهانكم أن الختان لا يقصد به إزالة قطعة من جسد الإنسان . إنما المعنى الحقيقى له هو إزالة أى شىء فى الطبيعة البشرية يتعارض مع الله » . ويواصل بولس حديثه قائلا « وإن يسوع وحده هو القادر على ذلك . وأى كاهن يستطيع أن يقوم بعملية الختان ولكن المسيح وحده هو القادر أن ينتزع من حياة الإنسان أى شىء يعطله على أن يكون إبناً مطيعاً لله » .

ويمضى بولس إلى أبعد من ذلك فيقول لهم « إن هـــذا العمل ليس نظرياً بل واقعياً إذ تم لكم فى المعمودية » وعندما نفكر فى عقيدة المعمودية يجب أن نذكر ثلاثة أشياء : فى أول عهد الكنيسة الأولى ، كما فى حقول المرسليات اليوم ، كان الناس يأتون تواً من الوثنية إلى المسيحية ، وكانوا يتركون طريقهم القديم للحياة ويتخذون

الطريق الجديد بعد معرفة وروية . وكانوا بقبولهم المعمودية يتخذون قرارهم بتطوع ، ووعى ، وتأن . وكان هذا يحدث قبل أيام معمودية الأطفال . ولم تمارس معمودية للأطفال ولم يكن ممكناً أن تتم قبل أن تصير العائلة المسيحية حقيقة واقعة . وكل هذا الذى يتحدث عنه بولس قد حدث عند ما كان الناس يدخلون المسيحية أفراداً وقبل أن يصير للعائلة المسيحية كيان .

وكانت المعمودية فى أول نشأة المسيحية عبارة عن ثلاثة أشياء كما ذكرنا آنفاً . كانت معمودية البالغين ، وكانت المعمودية مقترنة بالتعليم ، وكانت المعمودية بالتغطيس الكلى حيثما كان ذلك ممكناً .

ولذلك فإن رمز المعمودية فى أيام بولس كان ظاهراً . وكانت المياه تغطى رأس الإنسان كما لو كان قد مات فعلا . ثم يخرج من الماء كما لو كان قد قام إلى الحياة الجديدة وأصبحت حياته القديمة ميتة، وامتدت أمامه الحياة الجديدة . طبيعته القديمة مضت وولت وصار إنساناً جديداً يحيا حياة جديدة .

ولكن لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن هذا الرمز يصبح حقيقة تحت شرط واحد . كان يتحول إلى حقيقة إذا اعتقد الإنسان اعتقاداً قوياً بحياة وموت وقيامة يسوع المسيح . كان هذا الرمز يتحول إلى حقيقة مباركة إذا آمن الإنسان بقوة الله الفعالة ، تلك القوة التى أقامت يسوع المسيح من الأموات . كان الإنسان المعمد يؤمن أن القوة التى سندت يسوع المسيح فى الصليب ، وأقامته من الأموات ، تستطيع أن تفعل معه مثلما فعلت مع يسوع . كانت المعمودية للمسيحى موتاً وقيامة ، لأنه آمن أن المسيح مات وقام ويجب أن يشترك مع سيده وربه فى هذا الاختبار .

كأنى ببولس يقول لهؤلاء المعلمين « أنتم تتحدثون عن الختان ، ولكن الختان الحقيقى الوحيد هو عندما يموت الإنسان ويقوم ثانية مع المسيح فى المعمودية ، ليس بنزع جزء من جسده ، ولكن بانتزاع طبيعته الخاطئة كلها ، وبالامتلاء بجدة الحياة وبقداسة الله .

الغفران الظافر

وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ أَحْيَاكُمْ مَعَهُ مُسَامِحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا . إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ . إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ .

(كولوسى ٢ : ١٣ — ١٥)

يكاد كل عظماء المعلمين والوعاظ يعبرون عن أفكارهم بصور واضحة . ويستعمل بولس سلسلة من هذه الصور ليبين ماذا عمل الله فى المسيح للناس . والمقصود من هذه الصور أن يظهر أن المسيح عمل كل ما يمكن عمله وكل ما يحتاج إليه الإنسان . فليست هناك حاجة إلى أى وسطاء آخرين لتخليص الناس خلاصاً كاملا . ويستخدم هنا ثلاث صور معبرة .

١ — كان الناس أمواتاً فى خطاياهم . غلبتهم الخطية غلبة ساحقة فعجزوا عن تحطيم سلاسل الخطية وفقدوا القـــدرة لمواجهة دينونة الخطية . لم تكن لهم قوة أكثر من قوة إنسان ميت للإنتصار على الخطية . أو للتكفير عن الخطية . وجاء يسوع وبعمله حرر الناس من عقاب الخطية وأنقذهم من سلطان الخطية وأعطاهم حياة جـديدة ونشيطة ومحررة حتى يمكن أن يقال إنه أقامهم من الأموات ونفخ فيهم حياة جديدة . وفضلا عن ذلك فقد كان الاعتقاد القديم أن اليهود فقط هم الأعزاء عند الله الذين اختارهم الله واقتناهم شعباً خاصاً له . ولـكن قوة المسيح المخلصة والمـكفرة قد جاءت أيضاً حتى للأممى غير المختون ، للإنسان الذى لم يقطع الله معه أى عهد على الإطلاق . إن عمل المسيح هو من أعمال القوة التى وهبت الحياة للموتى وهو أيضاً عمل من أعمال النعمة التى وصلت إلى أولئك الذين لا يحق لهم أن ينتظروا فضلا من الله .

٢ ـــ ولكن الصورة تزداد أمامنا وضوحاً . إن يسوع المسيح قد محا الصك الذى علينا من الفرائض الذى كان ضداً لنا . أو بعبارة أخرى قد محا قائمة الإتهام المثبت فيها ديوننا التى نقر بها ، قائمة الإتهام المبنية على فرائض الناموس . وتعتمد الصورة كلها على كلمتين يونانيتين :

[ا] يتحدث بولس عن الصك الذى كان ضدنا أو كشف الديون المدونة ضدنا بإقرارنا الشخصى. والكلمة اليونانية للصك معناها «أتوجراف» وهو إقرار شخصى يكتبه الإنسان بخط يده معترفاً بدينه للدائن وعجزه عن وفاء الدين . وتراكمت خطايا الناس فكونت قائمة طويلة من الديون لله . وفضلا عن ذلك فيمكننا القول إن الناس اعترفوا صريحاً بهذا الدين الكبير . ويرينا العهد القديم أكثر من مرة أن بنى إسرائيل سمعوا أوامر الله وقبلوا أن تنصب عليهم اللعنات إذا لم يحفظوها (خروج ٢٤ : ٣ ، تثنية ٢٧ : ١٤ — ٢٦) . وفى العهد الجديد نرى صورة الأمم ولم يكن لديهم ناموس الله المكتوب كما كان لليهـــود ولكن كان لديهم الناموس مكتوباً فى قلوبهم وضمائرهم تتكلم فى داخلهم مشتكية أو محتجة (رومية ٢ : ١٤ ، ١٥) . . كان الناس واقعين تحت طائلة الدين نحو الله بسبب خطاياهم ، وعرفوا ذلك الدين واعترفوا به . كانت عريضة الإتهام موجهة ضدهم وهم مقرّون بها كما لو كانوا قد وقّعوا بإمضاءاتهم على صحتها .

[ب] ثم تأتى الكلمة العظيمة الثانية . إن الله قد محا عريضة الإتهام ولم يعد لها أثر . وإذا فهمنا قوة هذه الكلمة فى أصلها اليونانى استطعنا أن نفهم رحمة الله المذهلة . كانت السجلات تكتب قديماً على أوراق البردى أو على جلود الحيوانات . وكانت غالية الثمن ولذلك كانوا يحرصون على عدم التفريط فيها . وكان الحبر القديم خالياً من مادة تثبته . وأحياناً كان الكاتب ـــ توفيراً للورق ـــ يعيد استعمال أوراق البردى أو الرقوق بعد أن يمحو الكتابة بقطعة من الإسفنج فتزول الكتابة الأولى تماماً ثم يكتب عليها ما يشاء . وهذا ما فعله الله فى رحمته العجيبة ، إذ محا سجل خطايانا محواً تاماً فلم يبق لها أثر إطلاقاً .

[حـ] ولكن بولس يمضى إلى أبعد من ذلك . إن الله أخذ بيده عريضة الاتهام وسمرها فى الصليب . وجرى العرف قديماً أنهم إذا أرادوا إلغاء قانون أو أمر ، كانوا يرفعونه على لوحة عالية ويدقون فيه مسماراً . وعلى صليب المسيح صلبت

صفحة الإتهام الموجه ضدنا كما لو أن حكم الإعدام قد صدر فيه، ومحى هذا الاتهام كأنه لم يكن له وجود ولقى حتفه على الصليب وزال شبحه المخيف من طريقنا فلم نعد نراه مرة ثانية . ويبدو لنا أن بولس بحث وفتش فى أعمال البشر ومظاهر نشاطهم حتى وجد هذه السلسلة من الصور التى ترينا كيف أزال الله فى صليب المسيح الدينونة التى كانت قائمة ضدنا ومحاها محواً تاماً ونفاها نفياً نهائياً .

وهذه هى النعمة الغافرة فى أسمى معانيها . إن هذه الدينونة وهذا الاتهام كان مبنياً على فرائض الناموس . وقبل مجىء المسيح كان الناس تحت حكم الناموس وأخذ الإتهام قوته من تنظيمات وأحكام الناموس . ولكن الآن قد انتهى عهد الناموس وجاء عهد النعمة . وليس الإنسان الذى كسر الناموس مجرماً بعد الآن لأنه واقف أمام رحمة الله . وما الإنسان إلا إبن لله ولكنه ضل الطريق . وهو يستطيع أن يعود إلى بيت أبيه وقد أحاطت به نعمة الله من كل جانب .

٣ — ولا تزال كلمة عظيمة أخرى تبرق بلمعان على صفحة ذاكرة بولس . إن يسوع قد جرّد الرياسات والسلاطين وجعلهم فى عـــداد أسراه . وكانت هذه الشياطين والأرواح الشريرة ولا تزال معادية للإنسان ، كارهة له ، متربصة للإيقاع به . ولكن يسوع غلبها جميعاً غلبة نهائية وقد جردها من كل ما تملك من سلطان. والكلمة المستعملة للتجريد هى نزع الأسلحة والعتاد الحربى من العدو المهزوم . وهكذا يسوع أذلهم ، وكسر شوكتهم ، وأوقفهم موقف الخزى والعار ، واقتادهم أسرى أذلاء فى موكبه المنتصر . والصورة مأخوذة من صورة إنتصار قائد رومانى . وعندما كان القائد الرومانى يحرز نصراً مبيناً ، كان مسموحاً له أن يقود جيوشه المنتصرة فى شوارع روما ومن خلفه يسير الملوك والقادة والناس الذين أذلهم وانتصر عليهم . وكانوا يوسمون بسمة خاصة على جباههم تدل على أنهم أسراه وغنائمه . وبولس يستعين بهذه الصورة ليعبر بها عن يسوع القائد الظافر الذى يتمتع بانتصاره على جميع الشعوب . وفى موكب انتصاره يسير فى تذلل وخضوع قوات الشر مغلوبين إلى الأبد لكى تراهم كل عين .

وهنا فى هذه الصور الواضحة يقرر بولس الكفاية المطلقة لعمل المسيح . فالخطية مغفورة ، والشر مغلوب . وليس لنا حاجة إلى شىء أكثر من ذلك . لسنا فى حاجة

إلى المعرفة الغنوسية والوسطاء الغنوسيين ولم يتبق شيء أمام الغنوسية تستطيع أن تفعله للناس . لقد سبق للمسيح أن قام بمفرده بكل شيء على الوجه الأكمل .

النكسة أو الرجوع للوراء

فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَوْ هِلاَلٍ أَوْ سَبْتٍ . الَّتِي هِيَ ظِلُّ الأُمُورِ الْعَتِيدَةِ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَلِلْمَسِيحِ . لاَ يُخَسِّرْكُمْ أَحَدٌ الْجِعَالَةَ رَاغِبًا فِي التَّوَاضُعِ وَعِبَادَةِ الْمَلاَئِكَةِ مُتَدَاخِلاً فِي مَالَمْ يَنْظُرْهُ مُنْتَفِخًا بَاطِلاً مِنْ قِبَلِ ذِهْنِهِ الْجَسَدِيِّ . وَغَيْرَ مُتَمَسِّكٍ بِالرَّأْسِ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ الْجَسَدِ بِمَفَاصِلَ وَرُبُطٍ مُتَوَازِرًا وَمُقْتَرِنًا يَنْمُو نُمُوًّا مِنَ اللهِ :

إِذًا إِنْ كُنْتُمْ قَدْ مُتُّمْ مَعَ الْمَسِيحِ عَنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ فَلِمَاذَا كَأَنَّكُمْ عَائِشُونَ فِي الْعَالَمِ تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ . لاَتَمَسَّ وَلاَ تَذُقْ وَلاَ تَجُسَّ . الَّتِي هِيَ جَمِيعُهَا لِلْفَنَاءِ فِي الاِسْتِعْمَالِ . حَسَبَ وَصَايَا وَتَعَالِيمِ النَّاسِ . الَّتِي لَهَا حِكَايَةُ حِكْمَةٍ بِعِبَادَةٍ نَافِلَةٍ وَتَوَاضُعٍ وَقَهْرِ الْجَسَدِ لَيْسَ بِقِيمَةٍ مَا مِنْ جِهَةِ إِشْبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ .

(كولوسى ٢ : ١٦ — ٢٣)

يتشابك هـذا الفصل بأفكار غنوسية أساسية ، وفيه يحذر بولس المؤمنين فى كولوسى من الإنقياد وراء بعض الممارسات الغنوسية على أساس أن ممارسة هـــذه

العقائد ليس تقدماً إلى الأمام بل هو رجوع إلى الوراء فى حياة الإيمان . ومن وراء هذه الكلمات نلمح أربع ممارسات غنوسية .

١ ــ فهناك التزهد الغنوسى . وكان يفرض فى قوائم طويلة المسموحات والممنوعات من أصناف الأكل والشرب . وكان هـــذا رجوعاً إلى قوانين الطعام اليهودية وقوائمها الطويلة من الطاهر والنجس . وكما رأينا كان الغنوسيون يعتبرون المادة كلها شراً . وبما أن المادة شر ، فالجسد أيضاً شر . وبما أن الجسد شر كله ، فنتج عن ذلك نتيجتان متضاربتان :

[ا] بما أن الجسد كله شر فلا نقيم له وزناً . ولا بأس علينا إذا كنا ننغمس فى شهوات الجسد وبما أن الجسد كله شر فسيان عندنا إن أحسنا استعماله أو أسأنا استعماله .

[ب] والنتيجةالثانية تختلف عن النتيجة السابقة . بما أن الجسد كله شر ، فيجب أن يهمل ويجوع ويضرب بالسياط ويرفض له كل طلب ، وتقيد كل رغبة من رغبات الجسد ، ويعامل بالإمتهان والاحتقار . ولا فرق عند الغنوسية أن تقرر الإباحية المطلقة أو التقشف المطلق فكلاهما على حدسواء فى نظرهم . وبولس يتحدث عن التقشف المطلق فيقول « لا يكن لكم أى اتصال بالذين يربطون الدين بقوانين الأكل والشرب » . إن يسوع نفسه قد قال إن الأكل والشرب ليس لها صلة بالدين (متى ١٥ : ١٠ — ٢٠ ، مرقس ٧ : ١٤ — ٢٣) . وبطرس تعلم أن يكف عن الحديث فيما هو طاهر ونجس من الأطعمة (أعمال ١٠) . وبولس يكرر ويعيد ماقاله يسوع نفسه فى أمر الطعام والشراب فيقول ، بأسلوبه الخشن : « إنها جميعاً للفناء فى الاستعمال» (عد٢٢) وهو يقصد ما قاله يسوع تماماً عندما صرح أن الأكل والشرب يخرجان من الجسم ويندفعان إلى المخرج (متى ١٥ : ١٧ ، مرقس ٨ : ١٩) .

إن الأكل والشرب ليست لها أيةأهمية إذ أن مصيرهما الانحلال بمجرد استعمالها . أراد الغنوسيون إذن أن يجعلوا الدين نوعاً من القوانين والتنظيمات التى تتعلق بالأكل والشرب ولا يزال إلى اليوم من يهتمون بشريعة الأكل والشرب أكثر من اهتمامهم بشريعة المحبة .

٢ ــ وهناك الاهتمام بمراقبة الأيام . وهذا ما كان يهتم به الغنوسيون واليهود

على السواء (عد ١٦) كانوا يمارسون الأعياد السنوية ، والأهلة الشهرية والسبوت الأسبوعية . ووضعوا قوائم بالأيام التى تخص الله ، والأيام التى يجب أن تؤدى فيها أمور معينة ، والأيام التى يحرم فيها بعض الأشياء ، وربطوا الدين بالطقوس وبممارسات السبوت . وكان انتقاد بولس على هذا التقشف ، وعلى هذه الممارسات الخاصة بالأيام واضحاً ومنطقياً فقال لهم : « لقد صارت لكم النجاة فأنقذتم من طغيان واستبداد هذه القوانين والأنظمة ، فما بالكم تريدون أن تعودوا إليها ، وتستعبدوا أنفسكم لها من جديد ؟ لمـــاذا ترغبون فى العودة إلى القيود اليهودية وترفضون الحرية المسيحية » ؟ إن الروح التى تريد أن تحوّل المسيحية إلى مجموعة قوانين وتنظيمات لم تمت بعد بل لا تزال تعمل فى عقول وأفهام الكثيرين إلى اليوم .

٣ — وهناك الرؤى الخاصة التى يدعيها الغنوسيون « متداخلا فيما لم ينظره » . إن الغنوسيين إدعوا أنهم يرون الرؤى السماوية والإعلانات الخاصة المحجوبة عن عامة الشعب . والحقيقة أنهم لا يرون ما يعلنه الله لهم ولكن مايريدون هم أن يروه . فهم مدّعون ومدعوون .

٤ — وهناك عبادة الملائكة (عد ٨ : ٢٠) كان اليهود يعتقدون فى الدرجات المرتبة للملائكة ، واعتقد الغنوسيون بكل أنواع الوسطاء ، وقدموا لهم العبادة بينما يعلم المسيحى جيد العلم أن العبادة يجب أن تقدم للإله الواحد المثلث الأقانيم .

ويوجه بولس أربع إنتقادات لكل هذه الممارسات :

١ — يقول بولس إن كل هـــذه الممارسات ليست إلا ظل الحقيقة ، أما الحق الكامل فهو فى المسيح (عد ١٧) إن الديانة المؤسسة على أكل وشرب أنواع معينة من الطعام والشراب والامتناع عن البعض الآخر . والمبنية على ممارسات السبوت والأعياد وما أشبه ليست إلا ظلا للديانة الحقيقية لأن الديانة الحقة هى فى الشركة مع المسيح .

٢ — ويقول إن هناك ما يمكن تسميته بالتواضع الكاذب (عد ١٨ ، ٢٣) وعندما تحدث الغنوسيون واليهود عن عبادة الملائكة ، أرادوا أن يبرروا موقفهم بقولهم إن الله عظيم ومتعال وقدوس بحيث لا يمكننا أبداً أن نحظى بشرف المثول المباشر لديه ، وينبغى لنا أن نقنع بالصلاة للملائكة وليس لله مباشرة . لكن الحق

العظيم الذى تكرز به المسيحية هو أن الطريق إلى الله مفتوح وميسور لأبسط وأفقر إنسان ، لأن يسوع المسيح قد فتحه لنا ولا يقدر أحد أن يغلقه .

٣ — ويقول إن هذه الحالة تقود إلى الكبرياء (عد ١٨ ، ٢٣) فالإنسان الشديد التدقيق فى ممارسة أيام خاصة ، والذى يحفظ بدقة قوانين الطعام والشراب والذى يمارس التقشف الخشن ، هو فى خطر جسيم إذ يتصور أنه على درجة ممتازة من الصلاح والتقوى ، وينظر إلى الآخرين بإزدراء واحتقار . ومن الحقائق الأساسية فى المسيحية أنه ليس كل من يظن نفسه صالحاً هو صالح بالحقيقة . وأقل الناس صلاحاً هو الذى يظن نفسه أكثر صلاحاً من سائر الناس .

٤ — ويقول أخيراً إن هذا كله رجوع إلى العبودية غير المسيحية عوضاً عن البقاء فى الحرية المسيحية (عد ٢٠) وأن هذا المسلك لا يحرر الإنسان من شهوات الجسد ، بل إن هذا من قبيل قهر الجسد فقط أى أنه لا يسير وراء شهواته لأن قيوداً معينة تقيده ، فإذا انكسر القيد أو انفلت منه الزمام جرى وراء شهواته كحيوان لم يكبح جماحه . إن الحرية المسيحية لا تأتينا من الكبت على رغباتنا بالقوانين والأنظمة ، ولكن من إماتة الرغبات الشريرة لأن المسيح يحل فينا ولأننا نحيا فى المسيح .

الأصحاح الثالث

حياة القيامة

فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ . اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ. لأَنكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِى اللهِ . مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ فِى الْمَجْدِ .

(كولوسى ٣ : ١ — ٤)

النقطة التى يريد بولس ان يلفت أنظارنا إليها الآن هى أن المسيحى فى المعمودية يموت ثم يقوم ثانية . وإذ تغطيه مياه المعمودية يكون كأنه قد دفن فى الموت ، وإذ يخرج من الماء يقوم إلى حياة جديدة . وإذا كان الأمر كذلك فإن المسيحى لا يقدر أن يخرج من المعمودية وهو نفس الإنسان الذى غطس فى المعمودية . لا بد أن يحدث فرق واضح فى حياته . وهذا الفرق هو أن أفكار المسيحى تتجه الآن إلى ما هو فوق لأنه لا يقدر أن يهتم بالأشياء الأرضية التافهة الزائلة ، ويجب أن ينصرف كل اهتمامه إلى الحقائق السماوية الأزلية .

ومن الواجب أن ندرس جيداً ما يقصده بولس بهذا الكلام . وبالتأكيد لا يدعو بولس إلى الإنسلاخ من العالم ومن كل مظاهر نشاطه ، ولا يشجع المسيحى على الإنطواء على نفسه وهو يفكر فى الأبدية . والدليل على ذلك أنه بعد هـــذا

الـكلام مباشرة يمضى بولس فى وضع مجموعة من المبادىء الأدبية التى يتبين منها أن بولس ينتظر من كل مسيحى أن يمارس عمله فى هذا العالم ، ويحافظ على علاقاته العامة مع هذا العالم ، ولـكن بفرق واحد . هذا الفرق هو أنه من الآن فصاعداً سينظر المسيحى إلى كل شىء فى نور الأبدية . ولن يحيا فيما بعد كأن هذا العالم هو كل ما يهمه أمره . إنه سينظر إلى هذا العالم بأنوار عالم الأبدية الأكبر .

وهذا النظر إلى الأبدية سيعطيه مجموعة جديدة من القيم الروحية ، وطريقاً جديداً للحكم على الأشياء ، وإحساساً جديداً فى وضع كل أمر فى موضعه المناسب ، فالأشياء التى ظنها العالم بالغة الأهمية لن يعيرها اهتماماً ، والمطامح التى سيطرت على العـــالم أصبحت عاجزة عن التأثير عليه . وسيمضى فى حياته مؤدياً أعمال العالم ، ومستخدماً أشياء العالم ، ولـكنه يستعملها بروح جديدة وبأسلوب جديد . فمثلا سيضع العطاء أعلى مرتبة من الأخذ والتحصيل ، وسيضع الخدمة فوق الحكم والتسلط ، وسيضع التسامح فوق الانتقام . وسيرى المسيحى الأشياء لا بعينى العالم بل بعينى الله . مقياسه للقيم هو مقياس الله لا مقياس الناس .

وكيف يتسنى له أن يحقق هـــذه الحياة بصورة عملية ؟ الجواب هو أن حياة المسيحى مستترة مع المسيح فى الله . ونجد هنا على الأقل صورتين ساطعتين .

١ ـــ نحن نذكر كيف أن أوائل المسيحيين كانوا يعتبرون المعمودية موتاً وقيامة . وعندما كان يدخل المسيحى إلى المـاء كان يدفن مع المسيح وعندما كان يخرج من المـاء كان يقوم مع المسيح إلى الحياة الجديدة . وكذلك كان الإغريق أنفسهم يقولون عن الميت إنه مستتر أو مختبىء فى الأرض ، لـكن المسيحى قد مات موتاً روحياً فى المعمودية وليس مستتراً فى الأرض لـكنه مستتر فى المسيح . كان اختبار المسيحيين أن الإنسان بالمعمودية قد ارتبط بالمسيح واندمج به .

٢ ـــ وانا أيضاً هنا صورة ثانية كان اليونانى يعرفها لأول وهلة . ونحن نذكر أيضاً أن المعلمين الـكذبة كانت لهم كتبهم الخاصة التى كانوا يطلقون عليها إسم الأبوكريفا أى الـكتب المختبئة عن عيون عامة الشعب ولم يسمح لأحد أن يقترب منها إلا المؤهلين لها ، لأن الغنوسيين كانوا يدّعون أنهم يملـكون دون سواهم كنوز الحـكمة . وكأنى ببولس يقول لهؤلاء الأدعياء : « إنكم تقولون إن كنوز الحـكمة

مختبئة فى بطون كتبكم . أما نحن فالمسيح هو كنز الحكمة ونحن مستترون فيه » .

ولا يزال أمامنا فكر آخر تقدمه لنا هذه العبارة . إن حياة المسيحى مستترة مع المسيح فى الله . والشيء المستتر هو الذى لا تراه العيون . والعالم لا يقدر أن يعرف حقيقة المسيحى . إن عظمة المسيحى الحقيقية مستترة عن العالم ، ولكن بولس يمضى فى حديثه قائلا «سيأتى اليوم الذى فيه يعود المسيح ثانية بمجده وعندئذ سيكون من شرف المسيحى — الذى لا يعترف به العالم — أن يأخذ نصيبه من هذا المجد الأسنى ، وسترى كل عين هذا المجد العظيم . وبمعنى آخر يقول بولس — وقوله حق « إن يوماً آتياً لا ريب فيه تنسخ أحكام الأبدية ما أصدرته الأرض على المسيحيين من أحكام قاسية وجائرة ، وسيلغى قضاء الله كل قضاء نطقت به أفواه الناس تهجماً على المسيح وأتباعه الأمناء » .

المسيح حياتنا

(كولوسى ٣ : ١ — ٤) « تابع »

نرى فى العدد الرابع أن بولس يعطى المسيح لقباً من أعظم ألقاب التعظيم والتمجيد — وهو له أهل وبه جدير — إذ يقول عنه إن المسيح حياتنا وكان هذا اللقب من أعز الألقاب عند بولس الرسول . فعندما كتب رسالته لأهل فيلبى قال ما معناه « إن المسيح يعنى الحياة بالنسبة لى » (فيلبى ١ : ٢١) . وقبل هذا التاريخ بعدة سنين عندما كتب رسالته إلى أهل غلاطية قال « فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى » (غلاطية ٢ : ٢٠) . إن المسيح بالنسبة للمسيحى هو أهم شيء فى الحياة . وليس ذلك فقط بل هو الحياة نفسها . وهنا يرتفع بولس إلى قمة التكريس والولاء للمسيح . وأحياناً نقول عن إنسان ما « إن الموسيقى حياته أو الرياضة حياته أو العمل حياته » وأن إنساناً من هذا القبيل يجد الحياة وكل ما تحمله الحياة من معنى فى الموسيقى ، أو فى الرياضة ، أو فى العمل . وأما للمسيحى فإن المسيح حياته . إن يسوع المسيح يسيطر على فكره ويملأ حياته .

وهنا نعود إلى ما ابتدأت به هذه العبارة . وهذا بالضبط ما يجعل المسيحى يضع فكره وقلبه وكل عواطفه فى الأمور السماوية ، ويطلب ما فوق وليس ما على

الأرض . وهو يحكم على كل شيء في هذا العالم بنور الصليب ، وهو يقيم كل شيء في نور المحبة التي أحبته وبذلت نفسها لأجله . وفي نور الصليب يرى ثروة العالم ، ومطامع العالم ومظاهر نشاط العالم في قيمتها الحقيقية . وفي نور ذلك الصليب يرى أن المحبة وحدها هي التي تستحق أن تجلس على العرش ، وأن الخدمة وحدها هي الجديرة بأن يوضع على رأسها التاج . ولأجل ذلك يستطيع أن ينجو من جاذبية الأشياء الأرضية . ويقدر أن يركز كل قلبه وكل عواطفه في الأشياء السماوية .

الأشياء التي نطرحها وراءنا

فَأَمِيتُوا أَعْضَاءَكُمُ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ الزِّنَا النَّجَاسَةَ الْهَوَى الشَّهْوَةَ الرَّدِيَّةَ الطَّمَعَ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ . الأُمُورَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَأْتِي غَضَبُ اللهِ عَلَى أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ : الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً سَلَكْتُمْ قَبْلاً حِينَ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ فِيهَا . وَأَمَّا الآنَ فَاطْرَحُوا عَنْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً الْكُلَّ الْغَضَبَ السَّخَطَ الْخُبْثَ التَّجْدِيفَ الْكَلاَمَ الْقَبِيحَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ . لاَ تَكْذِبُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ .

(كولوسي ٣ : ٥ — ٩)

بهذه الأعداد يتغير أسلوب بولس في الكتابة كما هي عادته في كل رسائله . وبعد إظهار العقيدة اللاهوتية تأتي المطالب الأدبية . كان بولس أقدر من بحث بعمق في أسرار الإيمان المسيحي وحلق في آفاق الفكر المسيحي التي لم يصل إليها إنسان آخر . وكان في مقدوره أن يصل إلى مرتفعات العقل البشري التي يتعذر على أعظم اللاهوتيين أن يتابعه فيها ولكنه في ختام كل رسائله كان دائماً يوجه الأنظار إلى النتائج العملية

لكل ما وصل إليه من تفكير عميق . كان دائماً يختم رسائله بعبارات ناصعة كالبلور واضحة كالنهار لا لبس فيها ولا غموض عن المطالب الأدبية للديانة المسيحية فى المواقف التى كان الأصدقاء يحوزونها أثناء كتابة الرسائل إليهم . وهنا يبدأ القسم العملى من هذه الرسالة .

ويبدأ بولس بمطلب صريح واضح . إن العهد الجديد لا يتردد أبداً فى إبعاد كل شىء يتعارض مع وجود الله فى حياتنا . إن بولس يقول بصريح العبارة ، أميتوا من نفوسكم وشخصياتكم أى شىء يمنعكم من إتمام إرادة الله » . وهو يستعمل نفس الفكر الذى جاء فى (رومية ٨ : ١٢) « إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون » وهو يتفق تماماً مع فكر المسيح فى قوله « إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم » (مت ٥ : ٢٩ و ٣٠) .

ويمكننا أن نضع هذا الفكر بلغة الحياة العصرية فنقول « إن المسيحى يجب أن يقتل الأنانية ، فلا يجعل من ذاته مركز الدائرة . يجب أن يكون فى حياته تغيير جذرى للإرادة ، وتحول جذرى لمركز الدائرة ، وكل ما يعطله عن الطاعة الكاملة لله والتسليم الكلى للمسيح يجب أن يبتر ويقطع بلا تردد .

ثم يمضى الرسول يذكر بعض الرذائل التى يلتزم الكولوسيون بتجنبها نهائياً من حياتهم . فالزنى والنجاسة يجب أن يمضيا نهائياً من حياة المؤمنين . وكما أشرنا مراراً كثيرة أن العفة كانت من الفضائل الجديدة التى أدخلتها المسيحية إلى العالم . ففى العالم القديم كانت الصلات الجنسية قبل الزواج وخارج دائرة الزواج تمارس بلا حياء أو خجل إذ كانت من الممارسات المألوفة والمقبولة من الجميع . كان العالم القديم يرى فى الشهوة الجنسية غريزة يجب إشباعها ولا يجب ضبطها أو كبحها . أما اليوم فقد زالت هذه الآراء ولم يعد لها أثر إلا عند أصحاب الآراء المضللة والحجج الملتوية . كتب « سير أرنولد لن » ترجمة ذاتية لحياته بعنوان « من الذاكرة إلى الذاكرة » ، وعقد فصلا كاملا فى هذا الكتاب عن الفيلسوف المعروف « سير يل جود » الذى كانت له به صلة وثيقة . قال المؤلف عن هذا الفيلسوف إنه قبل اعتناقه المسيحية كان ينادى بالإباحية الجنسية ولكنه قبل أن تقترب حياته من النهاية عاد إلى الدين وانضم إلى الكنيسة . ولكن كان ذلك بعد صراع داخلى عنيف إذ كان إصرار الكنيسة على

الطهارة الجنسية سبباً قوياً يمنعه من اتخاذه القرار النهائى لكنه انتصر أخيراً فى صراعه واعترف بأن المسيحية على حق وهى تدعو فى إصرار إلى وجوب حفظ الجسد طاهراً .

ثم يتحدث الرسول عن وجوب الإمتناع عن « الهوى والشهوة الردية » وهناك كثيرون من الناس هم عبيد لأهوائهم تسوقهم شهواتهم إلى الإنزلاق والانحراف وليست لديهم أية فكرة عن وجوب ضبط الغضب ، وليس عندهم أى ميل لوضع حد لشراهتهم فى التهام أطايب المائدة . هؤلاء ليس لهم سلطان على شهواتهم بل إن شهواتهم الردية هى التى تتحكم فيهم وتتسلط عليهم .

ثم يأتى الحديث عن الطمع وهو من أقبح الخطايا . وكلمة الطمع فى أصلها اليونانى مركبة من كلمتين معناهما الرغبة الدائمة والمتزايدة للامتلاك . وعرف اليونان الطمع بأنه الرغبة التى لا تشبع . وقالوا إنك تستطيع أن تشبع رغبة الطماع إذا كان فى ميسورك أن تملأ بالماء وعاء مثقوباً . إن الطمع هو الرغبة الشريرة فى امتلاك ما هو للغير . هو الشهوة الجامحة فى التحصيل والاقتناء . إن الفكرة الأساسية فى الطمع هى سعى الإنسان لامتلاك ما ليس له حق فيه . فهو إذن خطية لها آثار بعيدة المدى . إذا كانت رغبته فى الحصول على المال ، قادته هذه الرغبة إلى السرقة . وإذا كانت رغبته فى الوصول إلى المراكز العالية هوت به إلى اقتراف الرذائل . وإذا كانت رغبته فى السلطة قادته إلى الطغيان والاستبداد . وإذا كانت رغبته فى شخص ما زالت به إلى ارتكاب الموبقات . لقد صدق العلامة « مول » فى قوله « إن الطمع هو عكس الرغبة فى العطاء على خط مستقيم » . هو الرغبة فى التملك والتحصيل . ودائماً هو الرغبة فى الحصول على ما ليس له حق فيه . ويقول بولس إن رغبة كهذه هى عبادة الأوثان . وكيف يكون ذلك . وما صلة الطمع بعبادة الأوثان ؟ إن جوهر العبادة اوثنية هو الرغبة فى الجمع والامتلاك . فالإنسان يقيم صنماً ويسجد له أملا فى الحصول على شىء ما من إلهه . وهو يعتقد أنه من وراء تضحياته وصلواته وقرابينه يستطيع أن يرشى الإله الذى يعبده . إن عبادة الأصنام هى محاولة لاستغلال إلهه فى تحقيق أغراضه عوضا عن تكريس الإنسان لحياته فى خدمة الله والتعبد له بدافع المحبة . إن جوهر العبادة الوثنية هو — كما سبق القول — الرغبة فى المزيد . إن الإنسان الذى تسيطر عليه فكرة الجمع والتحصيل قد وضع الأشياء فى مكان الله ، وهو فى الواقع يعبد الأشياء دون عبادة الله . وهذه هى عبادة الأصنام فى أدق معانيها .

ومن أجل هـــذه الأمور يأتى غضب الله على أبناء المعصية . إن غضب الله هو تطبيق قانون السكون الذى يقول بصريح العبارة « إن ما يزرعه الإنسان فإياه يحصد أيضاً » وما من أحد يستطيع أن يتهرب من عواقب خطيته . إن غضب الله والقانون الأدبى يسيران معاً جنباً إلى جنب بل إن شئت فقل هما القانون الواحد الذى لا يتغير.

أشياء أخرى نطرحها وراءنا

كولوسى ٣ : ٥ — ٩ (تابع)

يحدثنا الرسول بولس عن أشياء أخرى يجب أن نجرد أنفسنا منها . والكلمة التى يستعملها هى الكلمة المستعملة فى خلع الملابس ونلمح هنا صورة من حياة المسيحيين الأوائل . كان المسيحى فى المعمودية يخلع ملابسه القديمة عند نزوله إلى الماء ، وبعد خروجه كان يلبس ملابس بيضاء جديدة ونقية . وفى خلعه القديم ولبسه الجديد إشارة رمزية إلى تركه نوعاً من الحياة واتباعه الحياة الجديدة . لننظر إلى الأشياء التى نخلعها واحدة بعد واحدة . وفى العدد الثانى عشر يواصل حديثه عن الأشياء التى نلبسها .

على المسيحى أن يخلع السخط والغضب . وما الفرق بين السخط والغضب ؟ السخط هو التهيج السريع والانفعال المفاجىء الذى يشتعل بسرعة وينطفىء أيضاً بسرعة . وكان اليونانيون يشبهونه بالنار بين القش الذى يتوهج ولكنه يحترق سريعاً ويصير رماداً . أما الغضب — من الجانب الآخر — فهو الرذيلة المتأصلة المزمنة التى تشتعل ببطء ولكنها ترفض التهدئة ، وتحتضن الحقد وترعاه بمختلف الوسائل . ولكن المسيحى يجب أن يمتنع عن كلا الرذيلتين ، فلا يغذى السخط السريع الاحتداد ، ولا يحتفظ بالغضب الدفين الذى يبقى طويلا فى الصدور .

وعلى المسيحى أيضاً أن يخلع الخبث . والمعنى فى اللغة اليونانية هو فساد الفكر وفجوره الذى تنبع منه كل الرذائل . إن الخبث هو الشر الذى يتغلغل فى كل جوانب الحياة .

ولزام على المسيحى كذلك أن يخلع التجديف والكلام القبيح ، كما ينبغى للمسيحيين ألا يكذبوا على بعضهم البعض . والتجديف فى هذه العبارة هو الوشاية والافتراء على الإخوة . والكلام القبيح هو الكلام البذىء الفاحش. وهذه الرذائل الثلاث الأخيرة هى رذائل اللسان . ويجب أن نمتنع عن هذه جميعها امتناعاً كلياً ، وعندما نحول هذه النواحى إلى أوامر إيجابية بدلا من الموانع السلبية نجد لأنفسنا ثلاثة قوانين للغة المسيحية .

١ — الكلام المسيحى يجب أن يتصف باللطف والشفقة . وكل كلام البذاءة والافتراء ليس له مكان على ألسنتنا . ولا تزال النصيحة القديمة قائمة وهى التى تقول إننا قبل أن نتفوه بكلمة يجب أن نسأل أنفسنا ثلاثة أسئلة : هل كلامنا حق ؟ وهل من لزوم له ؟ وهل هو رقيق ؟ إن العهد الجديد لا يفوته أن يدين الألسنة النمامة التى تشوه الحقيقة وتسيء إلى سمعة الناس .

٢ — والكلام المسيحى ينبغى أن يكون نقياً عفيفاً. ولم يحدث فى حقبة من حقب التاريخ انتشر فيها الكلام القبيح مثلما يحدث فى هذه الأيام . ومن المآسى الأليمة أن كثيرين ممن اعتادوا الكلام القذر يتلفظون بها بغير حرج أو مبالاة . أما المسيحى فلا يجب أن ينسى أبداً أنه سيعطى حساباً عن كل كلمة بطالة ينطق بها .

٣ — والكلام المسيحى يجب أن يكون صادقاً . كان الأديب الكبير الدكتور جونسون يعتقد أن الأكاذيب التى يتفوه بها الناس بطريقة لا شعورية أكثر جداً من الأكاذيب التى يقولونها بقصد وروية ، كما أن ذلك الكاتب العظيم كان يدعو إلى ضرورة تنبيه الطفل عندما يحيد عن الحق ولو فى أبسط الأمور وأتفه التفاصيل ومن السهل أن نقلب الأوضاع ونغير الحق . فمثلا عندما نغير فى نبرة الصوت ونحن نروى قصة ، كما أن النظرة الخاصة قد تؤدى نفس الغرض . وأحياناً نكذب الناس ونضللهم بصمتنا كما نكذب عليهم بكلامنا .

إذا أراد المسيحى أن يراعى قواعد الكلام المسيحى ، فمن المحتم عليه أن يكون كلامه لطيفاً ، وطاهراً ، وصادقاً مع جميع الناس وفى كل مكان .

المسيحية ديانة جامعة

إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مِنْ أَعْمَالِهِ . وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ . حَيْثُ لَيْسَ يُونَانِيٌّ وَيَهُودِيٌّ خِتَانٌ وَغُرْلَةٌ بَرْبَرِيٌّ سِكِّيثِيٌّ عَبْدٌ حُرٌّ بَلِ الْمَسِيحُ الْكُلُّ وَفِي الْكُلِّ .

فَالْبَسُوا كَمُخْتَارِي اللهِ الْقِدِّيسِينَ الْمَحْبُوبِينَ أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ وَلُطْفًا وَتَوَاضُعًا وَوَدَاعَةً وَطُولَ أَنَاةٍ مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمُسَامِحِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ شَكْوَى . كَمَا غَفَرَ لَكُمُ الْمَسِيحُ هٰكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا .

(كولوسى ٣ : ٩ — ١٣)

عندما يصير الإنسان مسيحياً ، ينبغى أن يحدث تغيير كامل فى شخصيته . عليه أن يخلع نفسه القديمة ويلبس نفساً جديدة مثلما ينزع طالب المعمودية ثيابه القديمة ، ويرتدى الرداء الأبيض الجديد . ونحن كثيراً ما نتهرب من الحق الصريح الذى يعلنه لنا العهد الجديد فى إصرار ووضوح — هذا الحق هو أن المسيحية التى لاتغير الإنسان هى مسيحية ناقصة . وفضلا عن ذلك فإن هذا التغيير يتزايد ويتجدد بصفة دائمة . إنها تجعل الإنسان ينمو على الدوام فى النعمة والمعرفة حتى يصل إلى الإنسان الكامل المخلوق على صورة الله . المسيحية لاتكون مسيحية حقاً مالم تخلق الإنسان من جديد حتى يبلغ المستوى الذى قصد الله أن يبلغه .

ومن أعظم آثار المسيحية أنها تلاشى الحواجز التى تفصل بين الإنسان وأخيه

الإنسان . ففيها لا تكون فوارق بين يونانى أو يهودى ، ختان أو غرلة ، بربرى أو سكيثى ، عبد أو حر . كان العالم القديم مليئاً بهذه الحواجز الفاصلة ، فالإغريقى نظر إلى البربرى نظرة احتقار وامتهان . وفى نظر الإغريق كان كل من يجهل التكلم باللغة اليونانية يدعى بربرياً. كان الإغريقى ارستقراطى العالم القديم وكان يتباهى بذلك . واليهودى كان يحتقر كل أمة أخرى ، وبحكم انتمائه إلى شعب الله المختار كانت الأمم الأخرى فى رأيه لا تصلح لشىء إلا أن تكون وقوداً لنار جهنم . وكان السكيثى فى آخر دركات الإنحطاط . كان فى عرف اليونانيين أكثر همجية من البرابرة أنفسهم . قال عنه يوسيفوس إنه لا ينقص إلا قليلا عن الوحش المفترس . وكان يضرب به المثل فى التوحش الذى يلقى الرعب على العالم المتمدين بشروره الفظيعة . والعبد لم يكن محسوباً أمام القانون فى عداد البشر . لم يكن إلا مجرد أداة بشرية حية بلا حقوق له على الإطلاق . وكان لسيده مطلق الحرية فى أن يفعل به مايشاء . له أن يكويه بالنار أو يشوهه ، أو يقتله بالسيف ، أو يدوسه بالنورج . لم يكن للعبد أى حق فى الحياة حتى حق الزواج . وبهذه الصورة لم يكن فى العالم القديم أدنى شركة أو أضعف رابطة بين العبد والحر .

ولكن كل هذه الحواجز قد هدمت من أساسها فى المسيح . ويذكرنا «لايتفوت» أن الذى أسدى للمسيحية أجل خدمة لم يكن عالماً من علماء اللاهوت . بل هو عالم من علماء اللغات وهو « ماكس موللر » . كان هذا الرجل من أقدر الخبراء فى علم اللغات . وهو يقول إنه لم يكن فى العالم القديم من يهتم بتعلم اللغات الأجنبية ما عـــدا اللغة اليونانية وحدها دون سواها . كان اليونانيون فخورين بلغتهم ولم يخطر ببالهم قط أن يتعلموا لغة البرابرة . إن علم اللغات هو علم حديث العهد ، وأن الرغبة فى معرفة اللغات الأخرى رغبة جديدة . ويمضى ماكس موللر فى حديثه قائلا « لم يكن فى مقدورنا أن نعرف حتى البداءات الأولى لعلم اللغات إلا بعد أن محيت كلمة « البربرى » من قاموس البشرية وحلت محلها كلمة « الأخ » . ولم يكن لعلم اللغات أن يتقدم خطوة واحدة إلا بعد الاعتراف بمساواة كل أمة بغيرها من سائر الأمم . وأن هذا التغيير الكبير قد جاءت به الديانة المسيحية لأنها جذبت الناس إلى بعضهم البعض ووضعت فيهم الرغبة ليعرف كل واحد منهم لغة أخيه .

إن كلمات الرسول بولس الموضوعة أمامنا الآن ترينا بعبارات موجزة « ماهى الحواجز التى دمرتها المسيحية .

١ — إنها لاشت الحواجز التى صنعتها السلالات والقوميات . فالأمم المختلفة التى احتقرت وكرهت إحداها الأخرى قد اندمجت معاً فى العائلة الواحدة للكنيسة المسيحية .

٢ — ولاشت الحواجز التى صنعتها الطقوس والفرائض . فقد اقترب المختون من غير المختون ، ودخلا معاً فى شركة مقدسة واحدة . وطالما كان اليهودى باقياً على دينه ، كان كل إنسان من أية أمة أخرى نجساً فى نظره . أما بعد أن صار مسيحياً اعتبر كل إنسان فى أية أمة أخرى أخاً له .

٣ — ولاشت الحواجز التى صنعتها الثقافات . كان السكيثى هو البربرى الجاهل فى العالم القديم . وكان اليونانى أرستقراطى العلوم والمعارف . أما فى الكنيسة المسيحية فقد جاء إليها المثقفون والأميون وصاروا واحداً . إن أعظم علماء العالم وأبسط أبناء الكفاح يستطيعان أن يجلسا معاً فى شركة كاملة فى كنيسة المسيح .

٤ — ولاشت المسيحية الحواجز التى صنعتها الطبقات . جاء العبد والحر معاً إلى الكنيسة . بل وأكثر من ذلك فقد كان فى ميسور العبد أن يكون الواعظ والقائد للكنيسة ، بينما يكون السيد عضواً متواضعاً . فى محضر الله تزول الفوارق الإجتماعية ولا يكون مكان للحواجز الطبقية .

ثياب النعمة المسيحية

كولوسى ٣ : ٩ — ١٣ (تابع)

يتابع الرسول بولس حديثه فيذكر الفضائل المسيحية التى يجب على المؤمنين فى كولوسى أن يلبسوها . وقبلما نبدأ فى دراسة هذه الفضائل بالتفصيل ، يجدر بنا أن نلاحظ شيئين على جانب كبير من الأهمية .

١ — إن الرسول يخاطب أهل كولوسى بالقول «مختارى الله القديسين المحبوبين» . ومما يجب الانتباه إليه أن كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث كانت فى الأصل خاصة باليهود دون سواهم . فهم كانوا الشعب المختار ، والأمة المقدسة ، وأحباء الله . وهكذا يأخذ بولس هذه الكلمات الغالية التى كانت فيما مضى من الزمن ملكاً خاصاً

لليهود ويعطيها للأمم . وبذلك يبين أن محبة الله ونعمته امتدتا إلى أقاصي الأرض . وليست هناك أمة أكثر أفضلية من غيرها عند الله .

٢ — والشيء الآخر الجدير بالإلتفات هو أن كل فضيلة من هذه الفضائل لها صلة بالعلاقات الشخصية بين الإنسان وأخيه الإنسان . فليس هناك ذكر لفضائل الاقتدار والمهارة والنشاط والاجتهاد مع أنها فضائل مهمة . لكن الفضائل المسيحية العظيمة هي التي تحكم وتنظم العلاقات البشرية . إن الديانة المسيحية هي ديانة المجتمع. وللمسيحية جانبان : جانبها الإلهي هو العطية المذهلة للسلام مع الله ، وجانبها البشري هو الحل الظافر لمشكلة التعايش السلمي الحي معاً .

وفي سرد هذه الفضائل العظيمة يذكر بولس « أحشاء رأفات » وإذا كان العالم القديم مفتقراً إلى شيء واحد فهذا الشيء هو الرأفة . إن آلام الحيوان لم تكن شيئاً في نظر العالم القديم . والمرضى والمشوهون لم يجدوا من يمد لهم يداً . والعجزة لم يكن هناك من يعتني بهم . ومعاملة المختلين وضعفاء العقول كانت مجردة من المشاعر الإنسانية . أما المسيحية فقدمت — ولا تزال تقدم — لهـذا العالم الرأفة العملية المتزايدة . وليست مبالغة منا إذ نقول إن كل خدمة أسديت للعاجز ، والمريض ، والضعيف جسمياً وعقلياً ، والطفل ، والمرأة ، وحتى للحيوان الأعجم ، كانت بوحي المسيحية وبفضل مبادئها السامية .

ثم يذكر الرسول فضيلة « اللطف » . عرف الكتاب القدامى اللطف بأنه فضيلة الإنسان الذي يعتبر مصالح جاره عزيزة عنـده مثل مصالحه الخاصة . ويستعملها يوسيفوس وصفاً لإسحق الذي حفر آباراً وأعطاها للآخرين لأنه لم يرد أن ينازعهم بشأنها (تكوين ٢٦ : ١٧ — ٢٥) . واللطف كلمة توصف بها الخمر الجيدة التي صارت ناعمة الملمس بعد أن زالت خشونتها . وهي الكلمة التي يصف بها يسوع نيره عندما قال « نيري هين » (متى ١١ : ٣٠) إن الصلاح وحده قد يكون خشناً جافياً لكن اللطف هو الصلاح الشفوق الرقيق هو الصلاح الذي عامل به يسوع المرأة الخاطئة . كان سمعان الفريسي رجلا صالحاً في نظر الناموس ، لكن يسوع — فضلا عن صلاحه — كان لطيف الشعور رقيق الإحساس فغفر للمرأة خطيتها وقدر دموع توبتها .

وبعد ذلك تأتى فضيلة « التواضع » . وكثيراً ما يقال — وهذا حق — إن التواضع فضيلة خلقتها المسيحية وأدخلتها إلى العالم . وكثيراً ما لاحظ الدارسون أن اللغة اليونانية القديمة ليس فيها كلمة مرادفة للتواضع إلا وتحمل معنى من معانى الحقارة والذل والعبودية . ولكن التواضع المسيحى ليس خنوعاً وتذللا . إنه مؤسس على أمرين عظيمين . الأمر الأول هو الجانب الإلهى وهو الشعور المستمر بأن الله هو الخالق للإنسان . وأن الإنسان خليقة الله . وفى محضر الخالق لا يشعر الإنسان بشيء إلا بالتواضع والخشوع الكاملين . والأمر الثانى هو الجانب البشرى وهو الاعتقاد بأن جميع الناس هم أبناء الله ، وليس هناك مكان للعجرفة والتعالى لأننا نعيش بين رجال ونساء هم جميعاً من النسل الملكى .

ثم تأتى فضيلة « الوداعة » ، وقديماً عرف أرسطو الفيلسوف فضيلة الوداعة بأنها الحلقة السعيدة التى تتوسط بين الغضب الشديد والتساهل الزائد عن الحد . إن الإنسان الذى يتزين بالوداعة هو الإنسان الذى يملك روحه لأن الله مالكه . وأنه يغضب فى الوقت المناسب ولا يغضب أبداً من غير مبرر للغضب . إنه يملك فى وقت واحد قوة الوداعة ورقتها .

وبعد الوداعة تأتى فضيلة « طول الأناة » وهى الفضيلة التى لا تفقد أبداً الصبر مع الناس . فلا غباء الناس وعدم قابليتهم للفهم يدفعان طويل الأناة إلى اليأس منهم والسخرية بهم . كما أن شتائمهم وسوء معاملاتهم لا تجرانه إلى الحنق ومرارة النفس . إن طول الأناة فينا ما هو إلا انعكاس لطول أناة الله الذى يحتملنا مع كل خطايانا ولا يطرحنا أبداً من أمام وجهه .

وأخيراً — وليس آخراً — يأتى الروح المحتمل المسامح « محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى . وكما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً » . المسيحى يحتمل ويسامح . وهو يفعل ذلك لأنه لا ينسى أبداً أن الإنسان الذى سومح بالكثير يجب أن يسامح دائماً من يسيء إليه . وكما غفر الله لنا خطايانا الكثيرة يجب أن نغفر للآخرين زلاتهم . لأن المسامح للناس هو فقط الذى يسامحه الله .

رباط الكمال

وَعَلَى جَمِيعِ هٰذِهِ الْبَسُوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ رِبَاطُ الْكَمَالِ .
وَلْيَمْلِكْ فِي قُلُوبِكُمْ سَلاَمُ اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ دُعِيتُمْ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ .
وَكُونُوا شَاكِرِينَ .

لِتَسْكُنْ فِيكُمْ كَلِمَةُ الْمَسِيحِ بِغِنًى وَأَنْتُمْ بِكُلِّ حِكْمَةٍ مُعَلِّمُونَ
وَمُنْذِرُونَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ بِنِعْمَةٍ
مُتَرَنِّمِينَ فِي قُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ . وَكُلُّ مَا عَمِلْتُمْ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ
فَاعْمَلُوا الْكُلَّ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ شَاكِرِينَ اللهَ وَالآبَ بِهِ .

(كولوسى ٣ : ١٤ — ١٧)

يضيف بولس إلى ثياب الفضائل المسيحية فضيلة أخرى هى فضيلة المحبة التى يسميها « رباط الكمال » ، ولا عجب فالمحبة هى القوة التى تربط المسيحيين معاً برباط وثيق . إن الناس يميلون عادة — بعد وقت يقصر أو يطول — إلى التفرق والتباعد ، ولكن المحبة هى التى تربطهم معاً برباط لا تنفصم عراه ، وتجمعهم فى شركة واحدة لا تقبل التفرقة والانقسام .

ثم يقدم بولس صورة معبرة فيقول « وليملك فى قلوبكم سلام الله » ، وينقل إلينا صورة من ساحة الألعاب الرياضية التى تكون فيها كلمة الحكم هى القول الفصل والقرار النهائى الذى ينهى كل نزاع بين اللاعبين . وعندما تصطدم المحبة المسيحية بالتهييج الغير المسيحى ، يكون سلام الله هو الحكم الذى ينهى كل نزاع ، ويحفظنا فى طريق المحبة وتبقى الكنيسة جسداً واحداً كما قصد الرب لها أن تكون . إن الطريق إلى العمل الصائب هو أن نجعل يسوع المسيح الحكم الذى يقول كلمته النهائية فى

العواطف المتضاربة والمتصارعة فى قلوبنا . وإذا قبلنا قراراته وسرنا بموجبها نسلك فى الطريق الأمين .

ومن الملذ لنا أن نرى هنا أن الكنيسة المسيحية من بدء عهدها كانت كنيسة مرتلة . وقد ورثت الكنيسة الترتيل من اليهود إذ يحدثنا « فيلو » أن اليهود كانوا أحياناً يقضون الليل كله فى التراتيل والأناشيد ، ومن الأوصاف الأولى للعبادة المسيحية ما كتبه «بليني» الوالي الروماني لولاية بيثنية فى التقرير الذى رفعه إلى تراجان الإمبراطور الروماني عن حياة المسيحيين ونشاطهم . جاء فى هذا التقرير أن المسيحيين ينهضون من نومهم عند بزوغ الفجر ويرتلون التراتيل تمجيداً للمسيح باعتباره الله المتجسد . إن شكر الكنيسة المسيحية لله وعرفانها بأفضاله عليها قد ظهر دائماً فى صورة التسبيح المسيحى والأغانى الروحية .

وأخيراً يعطينا بولس — فى هذا الفصل — المبدأ العظيم للحياة وهو أن كل عمل نعمله وكل كلمة نقولها يجب أن يكون القول والفعل باسم يسوع المسيح . ومن أفضل الاختبارات التى نختبر بها أى عمل نقوم به هو هذا الاختبار : هل نستطيع أن نؤدى هذا العمل ونحن ندعو باسم يسوع المسيح ؟ وهل نستطيع القيام به ونحن نطلب عونه وتأييده ؟ كما أن من أفضل الطرق التى نمتحن بها كلامنا هو : هل نقدر أن نقول هذا الكلام ونحن فى نفس الوقت ندعو باسم المسيح ؟ وهل فى ميسورنا أن نتفوه بهذه الكلمة ونحن نذكر أن المسيح مصغ ومنتبه لكل أحاديثنا ؟ وإذا استطاع كل إنسان أن يختبر كل عمل وكل قول باختبار حضور المسيح الدائم معنا ، أمكننا أن نسير فى الطريق المستقيم .

العلاقات الشخصية للمسيحى

أَيَّتُهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ . أَيُّهَا الرِّجَالُ أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ وَلا تَكُونُوا قُسَاةً عَلَيْهِنَّ . أَيُّهَا الأَوْلادُ أَطِيعُوا وَالِدِيكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ لأَنَّ هٰذَا مَرْضِيٌّ فِي الرَّبِّ . أَيُّهَا

الآبَاءُ لاَ تُغِيظُوا أَوْلاَدَكُمْ لِئَلاَّ يَفْشَلُوا . أَيُّهَا الْعَبِيدُ أَطِيعُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ سَادَتَكُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ لاَ بِخِدْمَةِ الْعَيْنِ كَمَنْ يُرْضِي النَّاسَ بَلْ بِبَسَاطَةِ الْقَلْبِ خَائِفِينَ الرَّبَّ. وَكُلُّ مَا فَعَلْتُمْ فَاعْمَلُوا مِنَ الْقَلْبِ كَمَا لِلرَّبِّ لَيْسَ لِلنَّاسِ . عَالِمِينَ أَنَّكُمْ مِنَ الرَّبِّ سَتَأْخُذُونَ جَزَاءَ الْمِيرَاثِ . لأَنَّكُمْ تَخْدُمُونَ الرَّبَّ الْمَسِيحَ . وأَمَّا الظَّالِمُ فَسَيَنَالُ مَا ظَلَمَ بِهِ وَلَيْسَ مُحَابَاةٌ .

أَيُّهَا السَّادَةُ قَدِّمُوا لِلْعَبِيدِ الْعَدْلَ وَالْمُسَاوَاةَ عَالِمِينَ أَنَّ لَكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا سَيِّدًا فِي السَّمٰوَاتِ.

(كولوسى ٣ : ١٨ - ٢٥ ، ٤ : ١)

هنا يدخل الجانب الأدبي لهذه الرسالة فى صميم الحياة العملية . فينتقل بنا بولس إلى العلاقات اليومية التى يجب أن نحياها كمسيحيين . وقبل أن ندرس هذا الفصل الكتابي بشيء من التفصيل ، يلزمنا أن نأخذ فى الاعتبار مبدأين عظيمين تقوم عليهما هذه العلاقات .

١ — المبـــدأ الأول هو أن الأخلاق المسيحية هى أخلاق الإلتزام المتبادل . ولا يتفق مع الأخلاق إطلاقاً أن نضع الواجبات كلها على الجانب الواحد ونعفى الجانب الآخر منها . والأمر كما يضعه أمامنا الرسول يحتم أن يلتزم الأزواج بواجباتهم، كما تلتزم الزوجات بواجباتهن . وأن يقوم الآباء بالتزامهم ، كما يقوم الأبناء بالتزامهم وأن يتحمل السادة مسئولياتهم كما يتحمل العبيد مسئولياتهم ، وكان هذا شيئاً جديداً على مسامع الناس . لندرس الآن كل حالة على حدة فى نور هـــذا المبدأ الجديد .

ففي الشريعة اليهودية لم تكن المرأة شخصاً بل سلعة يقتنيها زوجها ، تماماً مثلما كان يقتني بيته ، أو قطعانه ، أو أمتعته . ولم يكن لها أن تتمتع بأدنى الحقوق القانونية . فمثلا في ظل القانون اليهودي كان للزوج أن يطلق زوجته لأتفه الأسباب بينما لم يكن للزوجة أي حق في طلب الطلاق من زوجها . وفي المجتمع اليوناني كانت المرأة الشريفة تعيش حياة العزلة الكاملة . فلم تظهر أبداً بمفردها في الشوارع ولو لشراء بعض حاجياتها من السوق . وكانت تقضي حياتها في الجناح الخاص بالنساء ، ولم تختلط بالرجال من أسرتها حتى عند تناول الطعام . وكان يطلب منها الخضوع الكامل والعفة الكاملة ، ولكن كان لزوجها مطلق الحرية للدخول في علاقات كثيرة خارج دائرة الزواج كما يشاء دون أن يصيبه شيء يسيء إلى سمعته . وكانت القوانين والتقاليد اليهودية واليونانية تعطي كل الامتيازات للزوج ، وتفرض كل الواجبات على الزوجة . أما المسيحية فقد جاءت لأول مرة في التاريخ بالإلتزامات المتبادلة بين الزوج وزوجته .

وقس على ذلك في أمر الآباء والأبناء . كان الآباء في العالم القديم مطلق السيادة على الأبناء . وأوضح مثال على ذلك ما جاء في القانون الروماني بشأن سلطة الآباء . وبموجب هذه السلطة المخولة للأب ، كان له أن يفعل بابنه ما يشاء . فكان يستطيع أن يبيعه عبداً ، أو يجبره ليعمل في مزرعته ، أو يحكم عليه بالموت وينفذ بنفسه فيه حكم الإعدام . وللمرة الثانية نقول كان الآباء كل الامتيازات وكان على الأبناء كل الواجبات .

وأكثر من هذه وتلك كانت حالة العبودية . كان العبد من سقط المتاع في نظر القانون . ولم يكن هناك قانون للعمل أو شيء من هذا القبيل . وإذا تخلف العبد عن أداء عمله كان يطرح خارجاً للموت . ولم يكن للعبد أي حق حتى حق الزواج . وإذا تزوج زواجاً غير شرعي وأنجب طفلا ، صار هذا الطفل من حق السيد أن يقتنيه كما يقتني قطعان غنمه وما تلد من حملان . وكان للسيد أن يجلد العبد ، أو يكويه بالنار أو يقتله بالسيف وليس من يعترض مشيئته . وللمرة الثالثة نقول إن السادة كانت لهم كل الامتيازات ، وعلى رؤوس العبيد تقع كل الواجبات .

أما الأخلاق المسيحية فهي أخلاق الإلتزام المتبادل وكل رجل له حقوقه وعليه

إلتزاماته . وفى نطاق الأخلاق المسيحية لا يحرم رجل من حقوقه، وفى نفس الوقت لا يعفى من إلتزاماته . إنها أخلاق المسئولية المتبادلة . إن كل الإتجاه فى الأخلاق المسيحية ليس أن نسأل : « ماذا يجب على الآخرين أن يفعلوه لى ؟ » ولكن « ماذا يجب على أن أفعله للآخرين ؟ » .

٢ ــ والمبدأ الثانى الذى يحكم وينظم العلاقات الشخصية للمسيحى هو تأدية هذه العلاقات « فى الرب » . إن كل جانب من جوانب الحياة المسيحية ينبغى أن يكون فى المسيح : وفى كل بيت يجب أن تكون العلاقات الشخصية بوحى الشعور بأن المسيح هو الضيف الدائم الحضور وإن كنا لا نراه بعيوننا . هو دائماً الشخص الثالث إذا اجتمع إثنان معاً . وفى كل علاقة بين الأب والإبن يسودها الفكر بأبوة الله ، ويجب أن نعامل أبناءنا وبناتنا كما يعامل الله أبناءه وبناته . والمنظم الأكبر للعلاقة بين السيد والخادم هو أن السيد والخادم كليهما خادمان للسيد الواحد ، الرب يسوع المسيح . إن الشيء الجديد حول العلاقات الشخصية كما تراها المسيحية هو أن يسوع المسيح يدخل إلى جميع هذه العلاقات فيصير القوة الفعالة فى التغيير والتجديد . ويا حبذا أن تكون كل علاقاتنا الشخصية فى المسيح وهادفة إلى تمجيد إسمه الكريم .

الالتزام المتبادل

كولوسى ٣ : ١٨ ــ ٤ : ١ (يتبع)

لنتأمل بإيجاز فى كل من هذه الدوائر الثلاث للعلاقات الشخصية :

١ ــ على الزوجة أن تكون خاضعة لزوجها ، ولكن على الزوج أيضاً أن يحب زوجته ولا يكون قاسياً عليها بل يعاملها بكل شفقة . كانت النتيجة العملية لشرائع وتقاليد الزواج فى الأزمنة القديمة أن صار الزوج دكتاتوراً مستبداً لا يسأل عما يفعل ، وصارت الزوجة أكثر قليلا من جارية تربى له أطفاله وتقضى حاجاته . لكن النتيجة الأساسية الوحيدة للتعليم المسيحى عن الزواج جعلت من الزواج تعاوناً وزمالة ، ولم يعد الزواج مجرد وسيلة من وسائل الراحة للزوج بل لكى يجد الزوج والزوجة كلاهما فرحاً جديداً وكمالا جديداً إذ يكمل الواحد منهما الآخر . وكل زواج

يتم فيه كل شيء لراحة أحد الطرفين . وليس على الطرف الآخر إلا أن يشبع رغبات الطرف الأول ويلبي طلباته لا يعتبر هذا زواجاً مسيحياً .

٢ — والأخلاق المسيحية تضع على الأبناء واجباً محدداً نحو آبائهم وأمهاتهم . ولكن هناك مشكلة قائمة فى العلاقة بين الآباء وأولادهم . فإذا كان الأب متساهلا متهاوناً ، نشأ الإبن عديم التربية لا يصلح لمواجهة الحياة ، ولكن هناك أيضاً يكمن الخطر الآخر إذا كان الأب حازماً متشدداً لا يعرف أن يعامل إبنه إلا بالتوبيخ والتأنيب والتهديد والردع والزجر كما لو كان الأب والأم دائماً على رأس إبنهما أو ابنتهما . ونحن نذكر على سبيل المثال السؤال الحزين الذى كانت تردده «مارى لامب» دائماً : « لماذا لا أبدو أبداً قادرة على القيام بأى عمل يرضى أمى ؟ » وكذلك نذكر أيضاً العبارة المؤثرة التى كان يقولها « جون نيوتن » « أعرف جيداً أن أبى يحبنى ولكنه — على ما يبدو لى — لم يرد أن ألمس هذا الحب » . هناك نوع من النقد اللاذع المستمر الذى يوجهه الآباء إلى أبنائهم وما هو إلا نتيجة المحبة المضللة . إن الخطورة من وراء هذه المعاملة القاسية هى أن يصير الإبن يائساً فاقداً للروح المعنوية . وواجب الآباء والأمهات لا ينحصر فقط فى التأديب والتهذيب بل يجب أن يمتد إلى التشجيع أيضاً . التأديب والتشجيع يجب أن يسيرا معاً ، يد الواحد فى يد الآخر ، من الحقائق الأليمة فى التاريخ الدينى أن والد لوثر كان قاسياً عليه لدرجة أن لوثر ظل كل حياته يجد صعوبة فى قوله « أبانا الذى فى السموات » . إن كلمة « الأب » فى ذهنه كانت مماثلة للقسوة والشدة والجفاء ، وكان لوثر نفسه يقول « إذا منعت العصا عن إبنك أفسدته . هذا صحيح ، ولكن بجوار العصا احتفظ بتفاحة تعطيها له إذا أرضتك أخلاقه » .

ويروى « السر أرنولد لن » فى كتابه « من الذاكرة إلى الذاكرة » قصة لطيفة عن « الفيلد مارشال مونتوجمرى » كان مونتوجمرى مشهوراً بالجد والحزم ولكنه إلى جانب ذلك كان رقيقاً لطيفاً . كان يستعرض الجيش الثامن فى يوم النصر ولمح جندياً يبدو عليه الإرهاق وهو يحاول أن يسير فى صف منتظم مع رفاقه ، وكان بطىء الخطى وحذاؤه الثقيل يغوص فى الرمال . وكان من فرط الإعياء بسبب دوار البحر بالكاد يقدر أن يحمل بندقيته وأمتعته وعندما اقترب فى سيره من «مونتوجمرى» سقط على وجهه ثم استجمع قواه ووقف على قدميه ولكنه سار فى طريق مضاد

لطريق زملائه . وفى تلك اللحظة أسرع إليه « مونتى » وبابتسامة سريعة مخلصة حوّله إلى الإتجاه الصحيح وهو يقول له « هذا هو الطريق الصحيح يا بنى ! أنت فاعل حسناً ، وحسناً جداً ، ولكن لا تحد عن زميلك السائر أمامك » وعندما أدرك الشاب الصغير شخصية الرجل الذى قدم له المساعدة الودية ، لم يسعه إلا أن يظهر منتهى التقدير لقائده العظيم . كان « مونتوجمرى » يمزج التأديب مع التشجيع ، وبفضل هذه المعاملة كان الجندى البسيط فى الجيش الثامن يحس أنه فى رتبة عقيد فى أى جيش آخر .

وكلما ازداد الأب فهماً وتقديراً لمركزه كأب، كان من الواجب عليه أن يتجنب خطر إغاظة إبنه لئلا يفشل فى حياته . إن الأب الحكيم يجب أن يقدم لإبنه التأديب والتشجيع بأجزاء متساوية .

العامل المسيحى وصاحب العمل المسيحى

كولوسى ٣ : ١٨ — ٤ : ١ (تابع)

ينتقل بولس بعد ذلك إلى أصعب هذه المشاكل جميعاً وهى مشكلة العلاقة بين العبد والسيد . ونلاحظ أن بولس تكلم فى هذه المشكلة أكثر مما تكلم فى المشكلتين السابقتين . ولعل هذا الكلام المستفيض فى هذه المشكلة يعزى إلى الأحاديث الطويلة المتشعبة التى أجراها بولس مع أنسيمس العبد الهارب الذى أعاده أخيراً إلى سيده فليمون . وفى هذه المشكلة يقول بولس كلاماً جديداً لم يألفه قارئوه من قبل ولابد أن هذا الكلام قد أذهل السادة والعبيد على حد سواء .

إنه يصر على أن العبد يجب أن يكون عاملا حى الضمير . وفى واقع الأمر يريد أن يقول إن مسيحية العبد يجب أن تجعل منه عبداً أفضل خلقاً وأكثر كفاية . إن المسيحية لا تقدم لنا فى هذا العالم هروباً من العمل الصعب بل على النقيض من ذلك تقدرنا على القيام بأعمال أصعب مما يعمل غيرنا . ولا تعطى المسيحية تابعيها فرصة الهروب من الموقف الصعب . إنها تمنحه القدرة على مواجهة الموقف الصعب كرجل أفضل مما كان عليه فى الماضى .

ولا ينبغى للعبد أن يكتفى بخدمة العين فلا يعمل إلا إذا كانت عين سيده تراقبه .
لا يجب أن يكون — كما يقول « مول » — من نوع الخدام الذين لا ينفضون التراب المختفى وراء الزخارف والستائر أو الذين لايكنسون الأرض تحت خزانة الملابس . ولا يجب عليه أن يتظاهر بالنشاط فى العمل وصدره يغلى بالتذمر والحقد ضد سيده ، ويجب أن يذكر دائماً أنه سينال ميراثه من الله . ولابد أن هذا الكلام وقع على مسامع العبيد موقع الدهشة والذهول . فبموجب القانون الرومانى لم يكن العبد أن يقتنى شيئاً ما مهما كان ضئيلا ، وهنا يوعد بوعد عظيم بأن له ميراثاً فى السموات . ويجب أن يذكر أنه فى اليوم الأخير ستنصب الموازين وسيلقى فاعل الشر عقابه ، وسيأخذ المجتهد الأمين ثوابه .

أما السيد فمن الواجب عليه أن يعامل العبد ، لا كسلعة ولكن كشخص ، ويقدم له العدل والمساواة التى تسمو على العدل . وكيف يتم كل هذا على الوجه الأكمل ؟ الجواب على جانب كبير من الأهمية لأن الجواب يشتمل على كل العقيدة المسيحية للعمل والعمال وأصحاب الأعمال .

فالعامل يجب أن يقوم بواجبه كما لو كان يقوم به لأجل المسيح . إننا لا نعمل أملا فى الأجر أو حباً فى المركز . ونحن لا نعمل إرضاءاً لسيد أرضى . إنما نحن نعمل لكى نأتى بكل عمل ونقدمه للمسيح .

وكل عمل يجب أن يُعمل لأجل الله لكى يسير عالم الله فى طريق التقدم ،ولكى يجد أبناء الله وبناته ما يحتاجون إليه لحياتهم ومعيشتهم . كل عمل أمين هو عمل لأجل الله . والسيد يجب أن يضع فى اعتباره أن له أيضاً سيداً —هو المسيح . وهو مسئول أمام الله كما أن العامل مسئول أيضاً أمام الله . ولايقدر سيد أن يقول « هذا عملى وأنا حر فيه » لكنه يجب أن يقول « هذا عمل الله وأنه عيننى وكيلا عليه ، ويجب أن أديره كما يديره الله الذى أنا مسئول أمامه » إن السيد والعامل كليهما مسئولان أمام الله . إن العقيدة المسيحيةللعمل هى أن صاحب العمل والعامل يعملان معاً لأجل مجد الله . ولهذا السبب فإن المكافآت الحقيقية عن العمل لاتقدر بعملة الأرض . ولكن فى يوم الحساب سيكون الله هو الذى يمنح المكافأة للأمين ويمنعها عن الشرير والبطال .

الأصحاح الرابع

صلاة المسيحى

وَاظِبُوا عَلَى الصَّلَوةِ سَاهِرِينَ فِيهَا بِالشُّكْرِ . مُصَلِّينَ فِي ذَلِكَ لِأَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا لِيَفْتَحَ الرَّبُّ لَنَا بَابًا لِلْكَلَامِ لِنَتَكَلَّمَ بِسِرِّ الْمَسِيحِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنَا مُوثَقٌ أَيْضًا . كَيْ أُظْهِرَهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ أَتَكَلَّمَ .

(كولوسى ٤ : ٢ — ٤)

لايريد بولس أن يكتب رسالة من غير أن يحث أصدقاءه على واجب وامتياز الصلاة . وهو يحدثهم بوجوب المواظبة فى الصلاة . ونمر أحياناً بأوقات نحس فيها أن صلاتنا عديمة الجدوى ، وأنها لا تخترق مسافة أبعد من جدران الغرفة التى نصلى فيها . وفى مثل هذه الحالة لايكون العلاج أن نتوقف عن الصلاة ، بل أن نواظب على الصلاة ، لأن الإنسان الذى يواظب مصلياً لايقدر الجفاف الروحى أن يبقى فيه .

ويقول لهم أيضاً أن يكونوا ساهرين فى الصلاة . والترجمة الحرفية هى ألا يغلبهم النوم عند الصلاة . لعل بولس وهو يكتب هذه النصيحة كان يذكر التلاميذ وهم نيام على جبل التجلى ولم يستطيعوا أن يعاينوا مجد المسيح إلا بعد أن استيقظوا (لوقا ٩ : ٣٢) أو لعله كان يفكر فى بستان جثسيمانى حينما كان يسوع يجاهد فى الصلاة والتلاميذ نائمون (متى ٢٦ : ٤٠) ونحن لاننكر أنه فى ختام يوم مزدحم بالعمل المضنى ، يغلبنا النوم أحياناً ونحن نحاول الصلاة . وأحياناً كثيرة نكون عاجزين عن تركيز الفكر فى الصلاة بسبب الإرهاق الشديد ، وفى حالات كهذه لا يجب أن نطيل الصلاة فإن الله يفهم

الجملة الواحدة عندما ننطق بها . إننا فى أوقات كهذه نكون كالطفل الذى يهجم عليه النوم فلا يقوى على الكلام .

ويطلب بولس من الأحباء أن يصلوا لأجله . ويجب أن نلاحظ جيداً الأمر الذى يطلب لأجله الصلاة . إنه لا يطلب الصلاة لنفسه ولكن لعمله ، وكانت أمام بولس أشياء كثيرة يمكنه أن يطلب الصلاة من الإخوة بشأنها . فمثلا الخروج من السجن ، أو التبرئة فى محاكمته القادمة ، أو قليل من الراحة فى نهاية أيامه . ولكن بولس يطلب منهم أن يصلوا فقط لكى يعطيه الرب قوة وفرصة لكى يقوم بالعمل الذى أرسله الرب إليه ليتممه فى العالم . وعندما نصلى لأجل أنفسنا أو لأجل الآخرين ، لا يجب أن نطلب لهم ولنا أن يعفينا الله من العمل بل أن يمنحنا القوة لإتمام العمل الذى إئتمننا الله عليه . الصلاة يجب أن تكون دائماً لأجل القوة للعمل، ونادراً لأجل الراحة من العمل ، لأن أساس الحياة المسيحية ليس الراحة بل الجهاد والإنتصار .

المسيحى والعالم

أَسْلُكُوا بِحِكْمَةٍ مِنْ جِهَةِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ مُفْتَدِينَ الْوَقْتَ . لِيَكُنْ كَلاَمُكُم كُلَّ حِينٍ بِنِعْمَةٍ مُصْلَحًا بِمِلْحٍ لِتَعْلَمُوا كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تُجَاوِبُوا كُلَّ وَاحِدٍ .

(كولوسى ٤ : ٥ ، ٦)

أمامنا هنا ثلاثة توجيهات موجزة لإرشاد المسيحى فى حياته فى العالم :

١ — على المسيحى أن يتصرف بالحكمة تجاه الذين هم من خارج ، إذ يلزمه أن يكون بالضرورة مرسلا ، ولكنه يجب أن يعرف متى يتكلم مع الآخرين عن ديانته ومتى يحجم عن الكلام . ولا يجب عليه أبداً أن يترك لدى السامع شعوراً بأنه أعلى منه ، أو بأنه رقيب يحصى عليه زلاته . وكذلك يجب عليه أن يذكر عدد الذين

كسبتهم المسيحية بالحجة والبرهان قليل جداً ، وما دام الأمر كذلك فعلى المسيحى أن يذكر أنه بتصرفه يكون مذيعاً جيداً أو مذيعاً رديئاً للإيمان الذى يحمله ، وهو يقدر أن يجذب الناس إلى المسيحية ، أو ينفرهم منها بحياته لا بكلماته . وعلى عاتق المسيحى توضع هذه المسئولية العظيمة ، لا أن يتحدث عن المسيح ، ولكن لكى يُظهر المسيح للناس بحياته أكثر مما يظهر لهم بأفواهه .

٢ — على المسيحى أن يكون إنساناً مفتدياً للوقت منتهزاً للفرصة للعمل لأجل المسيح ولخدمة الناس كلما أمكن ذلك . وما أكثر الناس فى العالم اليوم الذين هدفهم الوحيد هو التهرب من هذه الفرص . إن العمل اليومى والحياة اليومية يقدمان للمؤمنين بصفة مستمرة الفرص المؤاتية للشهادة لأجل المسيح والتأثير على الناس لاكتسابهم للمسيح ، ولكن الكثيرين يهملون هذه الفرص بدلا من الإنتفاع بها . إن الكنيسة تقدم على الدوام لأعضائها فرصاً عديدة للتعليم ، أو للترتيل ، أو للزيارات أو للعمل لصالح المجتمع . وهناك كثيرون يرفضون بإصرار هذه الفرص بدلا من قبولها . إن الفرصة معناها العمل . لأن الفرصة هى ما يمكننا تسميته بالمواد الخام للخدمة والإنتاج . ويجب على المسيحى أن يكون مفتوح العينين مترقباً لكل فرصة ، لا لكى يربح لنفسه مالا ، ولكن لكى يخدم المسيح وإخوته فى الإنسانية .

٣ — ويلزم المسيحى أن يكون لبقاً ولطيفاً فى كلامه لكى يعرف كيف يجاوب الجواب المناسب فى كل حالة . ونحن هنا أمام توصية مشوقة وموجبة للإهتمام . ونحن لا ننكر أن المسيحية فى عقول وأفهام الكثيرين تتصل بنوع من البلادة والتظاهر بالتقوى لدرجة أنهم يحسبون الضحك كفراً وتجديفاً . ويقول « مول » إن هذه الوصية تحذير لنا لكيلا نخلط بين التقوى الحقيقية والتقوى المزيفة التى لا طعم لها ولا نعمة فيها . إن المسيحى يجب أن يقدم رسالته بالحكمة والنعمة اللتين كانتا فى يسوع نفسه . ونقول مع الأسف الشديد إن هناك عدداً كثيراً جداً من المسيحيين الذين يقبضون نفس الإنسان ويخمدون عزيمته ، وأن هناك عدداً قليلا من المسيحيين الذين يتألقون بالحياة الجميلة الجذابة .

الرفاق الأمناء

جَمِيعُ أَحْوَالِي سَيُعَرِّفُكُمْ بِهَا تِيخِكُسُ الأَخُ الْحَبِيبُ وَالْخَادِمُ الأَمِينُ وَالْعَبْدُ مَعَنَا فِي الرَّبِّ الَّذِي أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ لِهَذَا عَيْنِهِ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَكُمْ وَيُعَزِّيَ قُلُوبَكُمْ . مَعْ أُنِسِيمُسَ الأَخِ الأَمِينِ الْحَبِيبِ الَّذِي هُوَ مِنْكُمْ . هُمَا سَيُعَرِّفَانِكُمْ بِكُلِّ مَا هُهُنَا . يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَرِسْتَرْخُسُ الْمَأْسُورُ مَعِي وَمَرْقُسُ ابْنُ أُخْتِ بَرْنَابَا الَّذِي أَخَذْتُمْ لأَجْلِهِ وَصَايَا . إِنْ أَتَى إِلَيْكُمْ فَاقْبَلُوهُ . وَيَسُوعُ الْمَدْعُوُّ يُسْطُسَ الَّذِينَ هُمْ مِنَ الْخِتَانِ . هُؤُلاَءِ هُمْ وَحْدَهُمُ الْعَامِلُونَ مَعِي لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِينَ صَارُوا لِي تَسْلِيَةً .

(كولوسى ٤ : ٧ — ١١)

عندما نقرأ قائمة الأسماء التى جاءت فى ختام هذا الأصحاح لا يفوتنا أن نذكر أنها أسماء قائمة أبطال الإيمان . ويجب أن نذكر الظروف التى كانت تحيط ببولس . كان بولس سجيناً يتوقع المحاكمة فى كل يوم . ومن الخطر دائماً أن يكون الإنسان صديقاً لسجين لأنه من السهل جداً أن يتهم صديق السجين ويلقى نفس المصير الذى يلقاه السجين نفسه . ولذلك كانت شجاعة عظيمة أن يعلن الإنسان أنه صديق بولس ، وأن يزوره فى سجنه ، وأن يظهر للجميع أنه مؤيد لبولس وواقف معه . لنذكر ذلك ونحن نقرأ هذه الأسماء .

كان على رأس القائمة تيخيكوس . جاء تيخيكوس من ولاية آسيا الرومانية ، وكان فى الأغلب مندوب الكنيسة ليحمل تقدمتها إلى المسيحيين الفقراء فى أورشليم

(أعمال ٢٠ : ٤) وأسند إليه أيضاً أن يحمل رسالة أفسس إلى جهاتها المتعددة (أفسس ٦ : ٢١) وهنا نلاحظ شيئاً حرياً بالتفاتنا — أن بولس يكتب لأهل كولوسى أن تيخيكس سيخبرهم بكل أحواله . وهذا يرينا أن شيئاً كثيراً لم يكتبه بولس فى رسائله وتركه لكلام الشفتين ولكن هذا الكلام الشفوى لا يتعارض بطبيعة الحال مع الكلام المكتوب . واكتفت الرسائل بمعالجة مشاكل الإيمان والسلوك التى كانت تهدد الكنائس . أما التفصيلات الشخصية فقد تركت لحامل الرسالة لكى ينقلها إلى الأحباء كما فعل تيخيكوس الذى نستطيع أن نصفه بأنه المبعوث الشخصى لبولس .

وفى القائمة أنسيمس . وأسلوب بولس وهو يذكر أنسيمس يفيض بالرقة المسيحية كما هى عادته دائماً . كان أنسيمس فى الواقع عبداً هارباً وصل إلى مدينة رومية بطريقة ما ، وكان بولس يريد أن يعيده إلى سيده فليمون لكنه لا يدعوه عبداً هارباً بل يدعوه أخاً أميناً محبوباً . وعندما كان بولس يريد أن يقول شيئاً عن إنسان ، كان يقول عنه دائماً أفضل الأشياء التى يمكن أن تقال .

وكان فى القائمة أرسترخس ، وهو رجل مكدونى قادم من تسالونيكى (أعمال ٢٠ : ٤) وليس عندنا إلا ملامح خاطفة عن أرسترخس ، ولكن من هذه الملامح نخرج بصفة عظيمة كان هـــذا الرجل متحلياً بها . كان الرجل الصالح الذى تلقاه فى المأزق الحرج . كان هناك عندما هاج سكان أفسس فى هيكل ديانا وكان فى المقدمة فوقع فى قبضة الثائرين (أعمال ١٩ : ٢٩) ، وكان هناك عندما أقلعت السفينة ببولس سجيناً إلى رومية (أعمال ٢٧ : ٢) ، ويحتمل أنه سجل نفسه عبداً لبولس لكى يُسمح له أن يرافق بولس فى رحلته الأخيرة . وعندما جاء إلى رومية كان رفيق السجن مع بولس . كان أرسترخوس يقف دائماً فى أحرج المواقف لكى يعين الواقعين فى الشدائد . وحيثما كان بولس فى شدة أو ضيقة كان أرسترخوس معه هناك . إن الملامح الباهتة عن صورة أرسترخوس ترينا أنه كان بحق رفيق الشدائد .

وفى القائمة نجد إسم مرقس . وبين كل شخصيات الكنيسة الأولى كانت سيرة مرقس من أكثر السير إثارة للدهشة . كان صديقاً حميماً لبطرس حتى استطاع بطرس أن يدعوه إبنه (١ بطرس ٥ : ١٣) ونعرف أن مرقس لما شرع فى كتابة إنجيله استعان ببطرس كشاهد عيان لقصة حياة المسيح . وفى الرحلة التبشيرية الأولى أخذ

بولس وبرنابا مرقس ليخدمهما (أعمال ١٣: ٥) ولكنه في منتصف الرحلة لم يحتمل أهوال السفر ومخاطر التبشير فعاد إلى بيته (أعمال ١٣ : ١٣) ومضى وقت طويل قبل أن استطاع بولس أن يغفر له هذا التصرف وعند ما بدأ بولس رحلته الثانية أراد برنابا أن يكون مرقس معهما ولكن بولس رفض أن يأخذ شخصاً جباناً معه. وبسبب موقف بولس افترق برنابا عن بولس ولم يعملا معاً (أعمال ١٥: ٣٦—٤٠) ويقول التقليد إن مرقس ذهب مرسلا إلى مصر وأسس الكنيسة فى الأسكندرية وصار كاروز الديار المصرية . وفى غضون هذه الفترة لا نعرف عنه شيئاً لكننا نعلم أن مرقس كان مع بولس فى سجنه الأخير ، وأن بولس اعتبره أخيراً نافعاً جداً له (فليمون ٤ ، ٢ تيموثاوس ٤ : ١١) . إن مرقس هو الرجل الذى خلص نفسه . وهنا فى هذه الإشارة الموجزة عنه نسمع صدى للقصة القديمة الحزينة . إن بولس يوصى الكنيسة فى كولوسى أن ترحب بمرقس وتحسن استقباله إذا جاء إليهم . ولماذا يكتب بولس هذه التوصية ؟ كانت الكنائس بلا شك تنظر نظرة الريبة إلى الرجل الذى اعتبره بولس غير نافع لخدمة المسيح فيما مضى من الزمن . ولكن بولس الآن برقته المعهودة يوصى خيراً بمرقس حتى لا يقف ماضيه فى طريقه ، ويمتدحه كواحد من أصدقائه الموثوق بهم . إن نهاية سيرة مرقس هى فى نفس الوقت هدية كريمة ومكافأة جزيلة لمرقس ولبولس كليهما .

أما يسوع الذى يدعى يسطس فلا نعرف عنه شيئاً إلا إسمه . هؤلاء الرفاق كانوا لبولس عوناً وتسلية . ونعرف أن اليهود فى رومية قدموا له تحية فاترة (أعمال ٢٨: ١٧ —٢٩) ولكن كان يرافقه هؤلاء الأحباء الذين أعطوا قلبه دفئاً بإخلاصهم وتشجيعهم وتضحياتهم .

سجل آخر بأسماء الشرف

يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَبَفْرَاسُ الَّذِى هُوَ مِنْكُمْ عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ مُجَاهِدٌ كُلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ بِالصَّلَوَاتِ لِكَيْ تَثْبُتُوا كَامِلِينَ وَمُمْتَلِئِينَ فِي كُلِّ مَشِيئَةِ اللهِ . فَإِنِّى أَشْهَدُ فِيهِ أَنَّ لَهُ غَيْرَةً كَثِيرَةً

لِأَجْلِكُمْ وَلِأَجْلِ الَّذِينَ فِي لَاوُدِكِيَّةَ وَالَّذِينَ فِي هِيرَابُولِيسَ. يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ لُوقَا الطَّبِيبُ الْحَبِيبُ وَدِيمَاسُ سَلِّمُوا عَلَى الْإِخْوَةِ الَّذِينَ فِي لَاوُدِكِيَّةَ وَعَلَى نِمْفَاسَ وَعَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي بَيْتِهِ.

(كولوسى ٤ : ١٢ — ١٥)

يواصل بولس حديثه عن سجل الشرف فيذكر من هذه الأسماء « أبفراس »، ولابد أن يكون أبفراس خادماً لكنيسة كولوسى (كولوسى ١ : ٧) والمفهوم من هذه العبارة أن أبفراس كان مسئولا عن الخدمة فى الكنائس الثلاث : هيرابوليس ولاودكية وكولوسى . كان خادماً أميناً لله فصلى وجاهد لأجل الإخوة الذين أرسله الله إليهم لخدمتهم .

وفى القائمـــة يلمع إسم لوقا الطبيب المحبوب الذى كان مع بولس إلى النهاية (٢ تيموثاوس٤ : ١١) كان لوقا طبيباً لكنه اعتزل مهنة الطب المربحة ليعالج شوكة بولس فى الجسد وليكرز بالمسيح .

وكان بالقائمة ديماس . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ديماس هو الإسم الوحيد الذى لم يذكر بولس معه كلمة مديح أو تقدير . هو ديماس فقط ولا شىء أكثر من ذلك . ومن وراء الإشارات الطفيفة إلى ديماس فى رسائل بولس يمكننا أن نجمع قصة عنه . فى رسالة فليمون (٢٤) يذكره بولس مع الإخوة العاملين معه . وهنا فى (كولوسى ٤ : ١٤) يذكره فقط باسمه مجرداً عن أى وصف . وفى آخر ذكر له فى (٢ تيموثاوس ٤ : ١٠) هو ديماس الذى ترك أبولس لأنه أحب العالم الحاضر . وياليتنا كيف نرى فى هذه الإشارات دراسة مؤثرة فى سقوط الإنسان وانحرافه ، وفى فقدان الحماس وضياع المثل العليا ، والفشل فى الإيمان . هنا واحد من الناس الذين رفضوا أن يخلقهم المسيح من جديد .

وتحوى القائمة نمفاس وكنيسة الإخوة فى لاودكية التى اجتمعت فى بيته . وعندما نفكر فى الأيام الأولى للمسيحية يجب أن نعرف أنه لم يكن هناك مبنى خاص للكنيسة

إلا فى القرن الثالث . وقبل ذلك التاريخ كان الإخوة يجتمعون فى بيوت قادة الكنيسة. فكانت الكنيسة التى اجتمعت فى بيت أكيلا وبريسكلا فى رومية وأفسس (رومية ١٦ : ٥ ، ١ كورنثوس ١٦ : ١٩) وكانت الكنيسة التى اجتمعت فى بيت فليمون (فليمون ٢) فى الكنيسة الأولى كانت الكنيسة والبيت شيئاً واحداً وهذا ماينبغى أن يكون عليه اليوم . إن كل بيت يجب أن يكون أيضاً كنيسة ليسوع المسيح .

لغز الرسالة إلى لاودكية

وَمَتَى قُرِئَتْ عِنْدَكُمْ هٰذِهِ الرِّسَالَةُ فَاجْعَلُوهَا تُقْرَأُ أَيْضًا فِي كَنِيسَةِ اللاَّوُدِكِيِّينَ وَالَّتِي مِنْ لاَوُدِكِيَّةَ تَقْرَأُونَهَا أَنْتُمْ أَيْضًا .

(كولوسى ٤ : ١٦)

ينطوى هذا العدد على سر من أسرار بولس الغامضة فى رسائله . يطلب بولس أن رسالة كولوسى — وهى الرسالة التى نحن عاكفون على دراستها — ترسل إلى لاودكية ، وأن رسالة أخرى آتية فى الطريق من لاودكية إلى كولوسى . فما هى هذه الرسالة إلى لاودكية يا ترى ؟ هناك أربع احتمالات :

١ — الاحتمال الأول أنها قد تكون رسالة مكتوبة خصيصاً إلى الكنيسة فى لاودكية . إذا كان الأمر كذلك فإن هذه الرسالة قد ضاعت ، ولو أننا سنرى بعد قليل أن هناك رسالة مزعومة إلى لاودكية لاتزال بين أيدينا . ومن المؤكد أن بولس كتب رسائل أكثر مما هو معروف لنا . فعندنا ثلاث عشرة رسالة فقط وهذه الرسائل تغطى خمس عشرة سنة على وجه التقريب ولابد أن بولس لم يكتب ثلاث عشرة رسالة فقط فى مدى خمس عشرة سنة. ويحتمل أن عدداً كبيراً من رسائله فقد ومن بينها الرسالة إلى لاودكية ، وهذا مجرد احتمال . وحتى إن صح هذا الاحتمال فلا يؤثر فى العقيدة المسيحية لأن الوحى احتفظ لنا بالرسائل التى تعالج قضايا المسيحية الكبرى التى تحتاج إليها كل الأجيال والأقطار .

٢ ـ الاحتمال الثانى أن هـــذه الرسالة المشار إليها قد تكون الرسالة المعروفة برسالة أفسس . فقد رأينا ونحن ندرس رسالة أفسس أن المرجح أن رسالة أفسس لم تكتب إلى الكنيسة التى فى أفسس فقط بل كانت فى الواقع رسالة دورية تنتقل بين كل الكنائس فى آسيا . ويحتمل أن تكون الرسالة الدورية قد وصلت إلى لاودكية وهى الآن فى طريقها إلى كولوسى أثناء كتابة بولس رسالته إلى كولوسى .

٣ ـ الاحتمال الثالث . إن هذه الرسالة المشار إليها قدتكون الرسالة إلى فليمون وهذا احتمال مرجح لكننا سنرجىء مناقشة هذه المشكلة حتى نأتى إلى دراسة الرسالة إلى فليمون .

٤ ـ الاحتمال الرابع ـ وهو احتمال مرفوض من أساسه ـ أن هناك رسالة منسوبة إلى بولس ويقال إنها الرسالة إلى لاودكية . وظلت هذه الرسالة قائمة لعدة قرون ولكنها رسالة مزورة . وقد ذكرها جيروم نفسه فى القرن السادس لكن جيروم يقول إنها مزيفة . هذا فضلا على أن غالبية رجال الكنسية يتفقون على عدم صحتها . وهذا هو نص الرسالة المشار إليها :

« بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بنعمة المسيح إلى الإخوة الذين فى لاودكية . نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح .

أشكر المسيح فى كل صلواتى لأنكم ثابتون فيه ولأنكم مثابرون فى أعماله منتظرون موعده فى يوم الدينونة . لا يخدعكم بعض الناس بكلامهم الباطل لأنهم يريدون أن يحولوكم عن حق الإنجيل الذى كرزت لكم به . والآن فإن قيودى التى احتملها لأجل المسيح قد صارت ظاهرة للجميع وبهذا أنا أفرح لأنه سينتج لى خلاصاً أبدياً بصلواتكم وبمعونة الروح القدس سواء بحياتى أم بموتى لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو فرح . وليعمل الله برحمته فيكم هـــذا الأمر عينه لكى تكون لكم المحبة الواحدة والفكر الواحد .

وإذن أيها الأحباء كما سمعتم فى حضورى تمسكوا بهذه الأشياء عينها وافعلوها فى مخافة الله وحينئذ ستكون لكم الحياة الأبدية لأن الله هو العامل فيكم واعملوا كل أعمالكم بلا تقلقل .

واخيراً أيها الأحباء افرحوا في المسيح . احذروا البخلاء الذين يرغبون في الطمع . لتعرف طلباتكم جميعها عند الله وكونوا ثابتين في فكر المسيح .

افعلوا الأشياء الطاهرة والصادقة واللطيفة والعادلة والجليلة .

اثبتوا على ما تعلمتموه وقبلتموه في قلوبكم لكي يكون لكم سلام .

يسلم عليكم القديسون .

نعمة ربنا يسوع المسيح مع روحكم .

« ومتى قرئت عندكم هذه الرسالة فاجعلوها تقرأ أيضاً في كنيسة كولوسي والتي من كولوسي تقرأونها أنتم أيضاً » .

هذه هي الرسالة المزيفة إلى لاودكية المنسوبة زوراً إلى بولس وواضح أن مقدمتها مأخوذة من غلاطية وبعض عباراتها مقتبسة من فيلبي . وأقلية ضئيلة من الناس تقر بصحة هذه الرسالة . ولا يمكننا أن نبت برأي جازم في ماهية الرسالة إلى لاودكية ولكن أقرب الحلول إلى الصواب هو أن المقصود برسالة لاودكية هو رسالة أفسس فهي رسالة دورية أو أنها الرسالة إلى فليمون . والأفضل لنا أن ننتظر حتى ندرس رسالة فليمون للوصول إلى الحل المعقول .

البركة الختامية

وَقُولُوا لِأَرْخِبُّسَ انْظُرْ إِلَى الْخِدْمَةِ الَّتِي قَبِلْتَهَا فِي الرَّبِّ لِكَيْ تُتَمِّمَهَا . السَّلاَمُ بِيَدِي أَنَا بُولُسَ . اُذْكُرُوا وُثُقِي النِّعْمَةُ مَعَكُمْ آمِينَ .

(كولوسي ٤ : ١٧ ، ١٨)

يختم الرسول هذه الرسالة بتوجيه حث قوي إلى أرخبس لكي يكون أميناً للخدمة

المسلمة إليه ، ولعلنا لا نقدر أن نقول عن يقين ما نوع هذه الخدمة . ولعلنا عندما نأتى إلى دراسة فليمون سيشرق علينا نور جديد حول هذا الموضوع .

والمعروف لنا أن بولس كان يملى رسائله على كاتب . فمثلا كان الكاتب الذى أملى عليه بولس رسالة رومية يدعى ترتيوس (رومية ١٦ : ٢٢) وكان من عادة بولس أن يوقع بيده إمضاءه وبركته فى ختام كل رسالة . وهذا ما يفعله هنا .

ويقول « اذكروا وثقى » ومرة بعد مرة فى الرسائل يشير بولس إلى قيوده (أفسس ٣ : ١ ، ٤ : ١ ، ٦ : ٢٠ ، فليمون ٩) ولا يقصد من ذكر قيوده أن يستدرعطف الناس . إنه يختم رسالته إلى غلاطية بالقول « إنى حامل فى جسدى سمات الرب يسوع » (غلاطية ٦ : ١٨) ويقول « ألفورد » بصدد الحديث عن قيود بولس « عندما نقرأ عن القيود لا يجب أن ننسى أنها كانت تتحرك على الورق وهو يكتب توقيعه . كانت يده مرتبطة بالجندى الذى كان مكلفاً بحراسته » لكن إشارات بولس عن آلامه ليست رغبة فى تحريك عواطف الناس نحوه لكنها إثبات لسلطانه. إنها ضمان لحقه فى الكلام . ولعله يريد أن يقول «هذه ليست رسالة من إنسان يجهل معنى الخدمة للمسيح . وهى ليست رسالة عن يطلب من الآخرين أن يعملوا ما ليس على استعداد أن يعمله ؛ إنها رسالة من رجل احتمل وضحى لأجل المسيح . إن حقى الوحيد فى الكلام هو أنى أيضاً حملت صليب المسيح » .

وهكذا تأتى الرسالة إلى نهايتها السعيدة . إن ختام كل رسالة من رسائل بولس هو النعمة ، لأنه فى ختام كل رسائله دائماً كان يستودع نفوس المؤمنين إلى هذه النعمة التى وجد هو بنفسه فيها كل الكفاية لكل شىء .

تسالونيكى الأولى والثانية

مقـدمة الرسالتين

١ — بولس يأتى الى مكودنية .

إن كل إنسان يستطيع أن يقرأ بين السطور ، سيجد أن قصة مجىء بولس إلى مكدونية من أروع القصص التى دونها سفر الأعمال . وقد كتبها لوقا بإيجاز بليغ فى أعمال ١٦ : ٦ — ١٠ وبالرغم من إيجاز القصة إلا أنها تترك فى نفوسنا انطباعاً لا مفر منه عن سلسلة الظروف التى انتهت بحادث عظيم . مر بولس فى طريقه بإقليمى فريجية وغلاطية ، وكانت تمتد أمامه بلاد اليونان ، وإلى شماله تقع ولاية آسيا ، وعن يمينه تتراءى ولاية بيثينية لكن الروح القدس لم يسمح له أن يدخل أى بلد من هذه البلاد . كان هناك شىء ما يدفعه دفعاً إلى بحر إيجية ، وهكذا جاء إلى ترواس المكدونية وليس عنده اليقين الكافى للإتجاه الذى يتخذه . وعندئذ جاءته الرؤيا فى الليل عن إنسان يصيح فيه قائلا «اعبر إلى مكدونية وأعنا» وفى الحال شرع فى السفر إلى مكدونية ولأول مرة دخل الإنجيل إلى أوربا .

٢ — عالم واحد .

ولكن بولس فى تلك اللحظة عينها لابد أنه رأى أكثر من قارة واحدة يربحها للمسيح . ورست السفينة به على شاطىء مكدونية المعروفة بأنها موطن اسكندر الأكبر الذى بكى يوماً لأنه لم تبق أمامه ممالك أخرى ليغزوها . ولكن اسكندر فى الواقع كان أكثر من قائد منتصر . ولا نغالى إذا قلنا إنه أول من دعا إلى توحيد العالم وكان مرسلا أكثر منه جندياً . وكان يراوده حلم كبير أن يصبح العالم كله خاضعاً لليونان ومستنيراً بالثقافة اليونانية . وكان فى تفكيره يفوق أرسطو الفيلسوف . ومع أن أرسطوا كان مفكراً عظيما إلا أنه لم يجد غضاضة فى أن يعامل اليونانيون معاملة الأحرار . أما الشرقيون فيعاملون كالعبيد . لكن اسكندر أعلن صريحاً أنه مرسل من الله « ليوحد العالم كله ويوجد الصلح والسلام بين كل أقطاره » وقال بعد إمعان الفكر إن هدفه « أن يتزوج الشرق بالغرب » حلم بإمبراطورية واسعة

مترامية الأطراف « ليس فيها يهودي أو يوناني ، بربري أو سكيثي . عبد أو حر » (كولوسي ٣ : ١١) ولابد أن أحلام اسكندر الأكبر كانت في فكر بولس الرسول. وترك بولس ترواس الاسكندرية المسماة هكذا نسبة إلى اسكندر ، وجاء إلى مكدونية بلد الإسكندر ومسقط رأسه ، وعمل في مدينة فيلبي (تخليداً لفيليب والد الإسكندر) وامتد عمله إلى تسالونيكي (تكريماً لتساليا أخت إسكندر) كان كل الإقليم مشبعاً بذكريات عن إسكندر ، ولابد أن بولس لم يكتف بإقليم واحد للمسيح ولم تكفه قارة كاملة لكن رؤياه العظيمة أن يكون العالم كله للمسيح .

٣ — بولس ياتي الى تسالونيكي

وهذا الإحساس بامتداد المسيحية وانطلاقها إلى كل ربوع العالم قد تحرك بقوة في ذهن بولس عندما جاء إلى تسالونيكي . وكانت مدينة كبيرة واسمها الأصلي «ثرماي» ومعناه «الينابيع الحارة» وأعارت إسمها لخليج ثرماي الذي قامت عليه . وقبل دخول بولس بمائة عام كان هيرودتس قد وصفها بأنها مدينة عظيمة . وكانت دائماً مرفأ شهيراً ، وعلى هذا المرفأ أقام أحشويرش الفارسي قاعدته البحرية عندما غزا أوروبا ، وظلت هكذا حتى الحكم الروماني من أكبر موانئ العالم ، وفي عام ٣١٥ ق.م أعاد « كاسندر بناء المدينة وخلع عليها إسم « تسالونيكي » نسبة إلى تساليا » إسم زوجته التي كانت إبنة فيليب المكدوني وأخت اسكندر الأكبر . وكانت مدينة حرة ، بمعنى أنها لم تعان أبداً ذل بقاء الجيوش الرومانية فيها ، وكان لها برلمانها الخاص وقضاتها من أبنائها . وكان السؤال الذي شغل الأذهان زمناً طويلا هو : أي المدينتين تستحق أن تكون عاصمة العالم : القسطنطينية أم تسالونيكي . ولا يزال عدد سكانها اليوم — واسمها الآن سالونيك — سبعين ألف نسمة . ولكن الأهمية الكبرى لمدينة تسالونيكي أنها تقع على جانبي طريق أغناطية الذي يمتد من مدينة ديراشيوم على بحر الإدرياتيك إلى القسطنطينية على نهر البسفور شرقاً ، وفي الواقع كان شارعها الرئيسي جزءاً من الطريق الأصلي الذي ربط مدينة روما بالشرق . وقد تلاقى الشرق بالغرب في هذه المدينة العظيمة . وقيل عن مكانتها إنها في حضن الإمبراطورية الرومانية ، وتدفقت التجارة عليها من الشرق والغرب حتى قيل « طالما بقيت الطبيعة بلا تغيير ، فستبقى مدينة تسالونيكي في ثرائها ورخائها بلا تبديل» ، ويستحيل علينا أن نبالغ في أهمية دخول المسيحية إلى مدينة تسالونيكي، ولو كانت المسيحية قد استقرت وتوطدت في تسالونيكي ، لكان مقدراً لها أن تمتد شرقاً على طول طريق أغناطية حتى تصل إلى

كل ربوع آسيا ، وأن تمتد غرباً حتى تغلب مدينة روما نفسها . وكان يوم دخول المسيحية إلى مدينة تسالونيكى يوماً تاريخياً فاصلاً في اتخاذ المسيحية ديانة للعالم كله .

٤ — اقامة بولس فى تسالونيكى .

ونجد قصة إقامة بولس فى تسالونيكى فى أعمال الرسل ١٧ : ١ — ١٠ . وما حدث لبولس فى مدينة تسالونيكى كان بالغ الأهمية . فقد كرز فى المجمع مدة ثلاثة سبوت متوالية (أعمال ١٧ : ٢) وهذا معناه أن مدة إقامته هناك لم تزد على ثلاثة أسابيع . وقد نجح نجاحاً عظيما مما هيج اليهود عليه وأثاروا الفتن والقلاقل مما اضطر الإخوة إلى تهريب بولس إلى بيريه خوفاً على حياته (أعمال ١٧: ١٠ — ١٢) وترك بولس تيموثاوس وسيلا وراءه أما هو فذهب سراً إلى أثينا . خرج بولس من تسالونيكى لكن عقله لم يزل مشغولا بها . وبما حرك ذهن بولس هو هذا — لقد بقى فى تسالونيكى مدة لا تزيد على ثلاثة أسابيع . فهل كان فى الإمكان بعد هذه الفترة القصيرة أن تنمو المسيحية وتتأصل فى مدينة تسالونيكى ، بحيث لم يكن فى وسع الأعداء أن يقتلعوها من جذورها ؟ وإذا استطاع الأعداء أن ينجحوا فى مآربهم ، فيا لضيعة الأحلام التى كانت تسعد قلب بولس أن تصير الإمبراطورية الرومانية كلها للمسيح . أو هل كان لزاماً على بولس أن يبقى فى المدينة عدة شهور متواصلة أو سنين قبل أن تظهر نتائج قوية تبشر بنجاح العمل هناك . وفى هذه الحالة لا يستطيع الإنسان أن يرى ولو رؤيا باهتة متى تنتشر المسيحية فى كل أرجاء العالم . كانت تسالونيكى إذن حالة تصلح للدراسة . وقد مزق القلق قلب بولس لمعرفة ماذا سيحدث لعمل الله فى هذه المدينة التى علق عليها أكبر الآمال فى أن تكون الطريق لامتداد المسيحية إلى كل مكان .

٥ — اخبار من تسالونيكى .

وبلغ القلق ببولس أشد مراحله حتى أنه طلب من تيموثاوس الذى كان مرافقاً له فى أثينا أن يعود إلى تسالونيكى ليستقى المعلومات التى بدونها لن يستريح له قلب (١ تسالونيكى ٣ : ١ ، ٢ ، ٥ ، ٢ : ١٧) وأى أخبار حملها تيموثاوس إلى بولس؟ لقد كانت أخباراً سارة مشجعة فرح لها قلب بولس . إن عواطف المؤمنين فى تسالونيكى نحو بولس لا تزال قوية كما كانت من قبل ، وكانوا لا يزالون ثابتين فى الإيمان (١ تسالونيكى ٢ : ١٤ ، ٣ : ٤ — ٦ ، ٤ : ٩ ، ١٠) لقد كانوا بحق « مجده وفرحه » (١ تسالونيكى ٢ : ١٠) ولكن كانت هناك أيضاً أخبار مزعجة :

١ — إن الكرازة بمجيء المسيح الثاني نتجت موأقفاً سلبياً مما جعل الناس يتوقفون عن أداء أعمالهم إنتظاراً لمجيء المسيح. ولأجل هذا يخبرهم بولس بأن يكونوا هادئين ويمارسوا أعمالهم كالمعتاد (١ تسالونيكي ٤ : ١١) .

٢ — انزعجت أفكارهم بشأن الذين ماتوا قبل مجيء المسيح الثاني . وأوضح لهم بولس أن الذين يرقدون في المسيح لن يفقدوا شيئاً من الأمجاد (١ تسالونيكي ٤ : ١٣—١٨) .

٣ — وكانت هناك ميول متطرفة إلى احتقار كل سلطة شرعية . فاليوناني المحب للمجادلات كان دائماً في خطر الإساءة إلى الديموقراطية وهدم أركانها (١ تسالونيكي ٥ : ١٢—١٤) .

٤ — كانوا معرضين إلى خطر التحول إلى الإباحية . كان من الصعب عليهم أن يمحوا ما توارثوه من الأجيال الطويلة الماضية وأن يتحصنوا من عدوى العالم الوثني (١ تسالونيكي ٤ : ٣ — ٨) .

٥ — وكان هناك على الأقل فريق تهجم على بولس وقلل من شأنه . وأوعزوا إلى الناس أنه يكرز بالإنجيل لما يرجو أن يجنيه من الربح من وراء وعظه (١ تسالونيكي ٢ : ٥ ، ٩) وأنه كان دكتاتوراً مستبداً برأيه (١ تسالونيكي ٢ : ٦ ، ٧ ، ١١) .

٦ — كان بالكنيسة بعض الإنقسامات (١ تسالونيكي ٤ : ٩ ، ٥ : ١٣) هذه كانت المشاكل التي رأى بولس واجباً عليه أن يعالجها . وهذه المشاكل ترينا أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيراً في الكنائس اليوم عما كانت عليه من زمن بعيد .

٦ — لماذا يكتب رسالتين

ومن حقنا أن نسأل : لماذا كتب الرسول رسالتين إلى تسالونيكي ولم يكتف برسالة واحدة سيما وأن الرسالتين متشابهتان إلى حد كبير ولابد أنهما كتبتا في مدى أسابيع قليلة بل ربما أيام معدودة ؟ والجواب على ذلك هو أن الرسالة الثانية كتبت خصيصاً لإزالة إلتباس يتعلق بالمجيء الثاني. كانت الرسالة الأولى تؤكد أن يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء ، وتحث على وجوب السهر (١ تسالونيكي ٥ : ٢ ، ٥:٦)

ولكنهم أساءوا فهم هــذه النصيحة وانقطعوا عن أعمالهم اليومية لكى يتفرغوا للسهر والانتظار . ولذلك جاءت الرسالة الثانية موضحة أن هناك علامات معينة لابد أن تسبق المجيء الثانى (٢ تسالونيكى ٢ : ٣-١٢) وقد تمادوا فى تفكيرهم عن المجيء الثانى فخرجوا عن حد الإتزان المعقول . وما يحدث كثيراً للواعظ قد حدث فعلا للرسول بولس . فقد أساءوا فهم كلامه وفسروه تفسيراً خاطئاً ولذلك فإن الرسول برسالته الثانية يقصد أن يضع الأمور فى وضعها السليم ، ويصحح الأخطاء التى وقع فيها المؤمنون المتحمسون لانتظار المجيء الثانى . ومن البديهى أن ينتهز بولس فرصة كتابة الرسالة الثانية ، فيعيد ما سبق له أن قاله من النصائح والإنذارات التى قدمها لهم فى الرسالة الأولى . ولكن الهدف الأساسى من الرسالة الثانية هو أن يوجه أفكارهم إلى الهدوء والاتزان فى انتظار المسيح ، لا بالإندفاع والتهور ، بل بالقيام بأعمالهم اليومية بصبر واجتهاد . وهنا فى هاتين الرسالتين نرى بولس يحل المشاكل اليومية التى نشأت فى الكنيسة النامية والممتدة .

الأصحاح الأول

لغة المحبة

بُولُسُ وَسِلْوَانُسُ وَتِيمُوثَاوُسُ إِلَى كَنِيسَةِ التَّسَالُونِيكِيِّينَ فِي اللهِ الآبِ والرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ . نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ .

نَشْكُرُ اللهَ كُلَّ حِينٍ مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ ذَاكِرِينَ إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِنَا . مُتَذَكِّرِينَ بِلاَ انْقِطَاعٍ عَمَلَ إِيمَانِكُمْ وَتَعَبَ مَحَبَّتِكُمْ وَصَبْرَ رَجَائِكُمْ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ أَمَامَ اللهِ وَأَبِينَا . عَالِمِينَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ اللهِ اخْتِيَارَكُمْ . أَنَّ إِنْجِيلَنَا لَمْ يَصِرْ لَكُمْ بِالْكَلاَمِ فَقَطْ بَلْ بِالْقُوَّةِ أَيْضًا وَبِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَبِيَقِينٍ شَدِيدٍ كَمَا تَعْرِفُونَ أَيَّ رِجَالٍ كُنَّا بَيْنَكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ . وَأَنْتُمْ صِرْتُمْ مُتَمَثِّلِينَ بِنَا وَبِالرَّبِّ إِذْ قَبِلْتُمُ الْكَلِمَةَ فِي ضِيقٍ كَثِيرٍ بِفَرَحِ الرُّوحِ الْقُدُسِ . حَتَّى صِرْتُمْ قُدْوَةً لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ فِي مَكِدُونِيَّةَ وَفِي أَخَائِيَةَ . لأَنَّهُ مِنْ قِبَلِكُمْ قَدْ

أُذِيعَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ لَيْسَ فِي مَكِدُونِيَّةَ وَأَخَائِيَةَ فَقَطْ بَلْ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَيْضًا قَدْ ذَاعَ إِيمَانُكُمْ بِاللهِ حَتَّى لَيْسَ لَنَا حَاجَةٌ أَنْ نَتَكَلَّمَ شَيْئًا . لِأَنَّهُمْ هُمْ يُخْبِرُونَ عَنَّا أَيُّ دُخُولٍ كَانَ لَنَا إِلَيْكُمْ وَكَيْفَ رَجَعْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَوْثَانِ لِتَعْبُدُوا اللهَ الْحَيَّ الْحَقِيقِيَّ . وَتَنْتَظِرُوا ابْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ يَسُوعَ الَّذِي يُنْقِذُنَا مِنَ الْغَضَبِ الْآتِي .

(١ تسالونيكى ١)

يرسل بولس هذه الرسالة إلى الكنيسة فى تسالونيكى التى هى فى الله والرب يسوع المسيح . كان الله هو الجو الملائم الذى فيه تحيا الكنيسة وتتحرك وتوجد . كما يكون الهواء فينا ونكون نحن فى الهواء ولا نقدر أبداً أن نعيش بدون الهواء هكذا تكون الكنيسة الحقة فى الله ويكون الله فيها ، وليست هناك حياة حقيقية للكنيسة من غير الله . وفضلا عن ذلك فإن الله الذى تحيافيه الكنيسة هو أبو ربنا يسوع المسيح ، ولأجل ذلك فإن الكنيسة لاترتعد خوفاً من وقوعها فى يد إله طاغية آخذ بالناصية لكنها تجد الدفء والانتعاش وهى فى ضياء الله الذى هو محبة .

وفى هذا الأصحاح الإفتتاحى نرى بولس يعبر عن لطفه وجاذبيته فى أروع أسلوب . وبعد وقت قصير سيكتب لهم محذراً وموبخاً ولكنه يبدأ رسالته بالمديح الخالص . حتى وهو يوبخ لم يكن هدفه أن يثبط الهمم ويوهن العزائم بل لكى يشددهم ويرفع روحهم المعنوية . وفى كل إنسان تستطيع أن تجد شيئاً لطيفاً ، وأن أفضل الطرق لتخليصه من عيوبه هو أن تمتدح ما فيه من فضائل . إذا أردت أن تمحو أخطاءه امتدح محاسنه فتزداد ازدهاراً . لأن كل إنسان يتأثر بالتشجيع أفضل مما يتفاعل بالزجر والتوبيخ . قيل إن طاهياً للدورق ولنجتون استقال من عمله ، وسئل عن سبب استقالته وسيده كريم الأخلاق ويجزل له الأجر فكان جوابه « إذا كان

الطعام جيداً لا ينطق الدوق أبداً بكلمة ثناء .. وإذا كان الطعام رديئاً لا يقول أبداً كلمة توبيخ . كان ينقصه التشجيع وأصبحت الحياة معه بلا معنى » . أما بولس فهو كعالم نفسى ممتاز وبلباقة مسيحية صادقة يبدأ بالمديح ولو أنه كان فى نيته أن ينتقل بعد قليل إلى التوبيخ .

وفى العدد الثالث يلتقط بولس ثلاثة عناصر مهمة للحياة المسيحية .

١ ــ العنصر الأول هو العمل الذى يوحى به الإيمان . ولا شىء ينبىء عن دخيلة الإنسان مثل الدافع الذى يدفعه لإنجاز أعماله . فقد يعمل خوفاً من السوط الذى يلهب ظهره ، وقد يعمل أملاً فى الربح ، وقد يعمل بدافع الإحساس بالواجب أما أفضل البواعث وأقواها فهو العمل بوحى الإيمان . إيمانه بأن هــــذا العمل هو الذى أعطاه إياه الله وهو يقوم بعمله لا لــكى يرضى الناس بل الله . قال أحدهم إن علامة التكريس الحقيقى هو عندما يجد الإنسان مجداً فى العمل الحقير .

٢ ــ والعنصر الثانى هو التعب الذى تلهم به المحبة . يحدثنا « برنارد نيومان » أنه أقام مدة من الزمن فى بيت فلاح بلغارى . وفى كل الأيام التى قضاها ضيفاً على هذا البيت ، كان يشاهد إبنة الفلاح عاكفة على حياكة ثوب لها ، فسألها ذات يوم « ألست متعبة من هذا العمل المدل ؟ » فأجابت وهى تبتسم « إنى أجد فيه كل لذة لأنه ثوب زفافى » . إن العمل بدافع المحبة هو على الدوام مجد وفخر .

٣ ــ والعنصر الثالث هو الصبر المؤسس على الرجاء ، عند ما كان إسكندر الأكبر يضع الخطط للقيام بإحدى حملاته ، كان يوزع كل ممتلكاته على أصدقائه . فقال له أحدهم « ألم تبق لنفسك شيئاً ؟ » فكان جوابه « لقد أبقيت الأمل . إنى محتفظ برجائى » إن الإنسان يستطيع أن يحتمل كل شىء طالما كان عنده الرجاء ، لأنه فى هــذه الحالة لا يسير نحو الليل القاتم بل نحو الفجر المشرق .

ويتكلم بولس فى العدد الرابع عن المؤمنين فى تسالونيكى فيقول إنهم « الإخوة المحبوبون من الله » وهذا التعبير الجميل أطلقه اليهود على عظماء الرجال أمثال موسى وسليمان وعلى أمة إسرائيل نفسها . والآن قد صار أعظم امتياز يمتاز به أعظم رجال شعب الله المختار من نصيب أقل الناس شأناً بين الأمم .

وفى العدد الثامن يتحدث بولس عن إيمان اهل تسالونيكى فيقول إنه إذاع مدوياً كالبرق والكلمة فى أصلها تفيد أيضاً أن إيمانهم كان مجلجلا كالرعد . إن المسيحية الأولى واجهت الأخطار بالتحدى الصريح . وكان أمام المسيحيين — إذا أرادوا — أن يتجنبوا الخطر والاضطهاد باتخاذ طريق الاحتياط والتبصر بالعواقب لكنهم رفضوا هذا الطريق وتحدوا الأخطار وافتخروا بإيمانهم . إنهم لم يخجلوا أبداً بسيدهم وربهم الذى يتبعونه ويخدمونه .

وفى العددين التاسع والعاشر نجد كلمتين هما من أبرز خواص الحياة المسيحية . كان هؤلاء الإخوة يخدمون الله وينتظرون مجىء المسيح . إن المسيحى مدعو لخدمة الله فى العالم ولانتظار المسيح فى مجده . إن الخدمة المخلصة ، والانتظار الصابر والتوقع الذى لا يقهر من ألزم وأجمل العوامل الضرورية والممهدة لمجد السماء .

الأصحاح الثاني

دفاع بولس عن نفسه

لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ تَعْلَمُونَ دُخُولَنَا إِلَيْكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَاطِلاً. بَلْ بَعْدَ مَا تَأَلَّمْنَا قَبْلاً وَبُغِيَ عَلَيْنَا كَمَا تَعْلَمُونَ فِي فِيلِبِّي جَاهَرْنَا فِي إِلٰهِنَا أَنْ نُكَلِّمَكُمْ بِإِنْجِيلِ اللهِ فِي جِهَادٍ كَثِيرٍ. لِأَنَّ وَعْظَنَا لَيْسَ عَنْ ضَلاَلٍ وَلاَ عَنْ دَنَسٍ وَلاَ بِمَكْرٍ. بَلْ كَمَا اسْتُحْسِنَّا مِنَ اللهِ أَنْ نُؤْتَمَنَ عَلَى الْإِنْجِيلِ هٰكَذَا نَتَكَلَّمُ لاَ كَأَنَّنَا نُرْضِي النَّاسَ بَلِ اللهَ الَّذِي يَخْتَبِرُ قُلُوبَنَا. فَإِنَّنَا لَمْ نَكُنْ قَطُّ فِي كَلاَمِ تَمَلُّقٍ كَمَا تَعْلَمُونَ وَلاَ فِي عِلَّةِ طَمَعٍ. اللهُ شَاهِدٌ. وَلاَ طَلَبْنَا مَجْداً مِنَ النَّاسِ لاَ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْ غَيْرِكُمْ مَعَ أَنَّنَا قَادِرُونَ أَنْ نَكُونَ فِي وَقَارٍ كَرُسُلِ الْمَسِيحِ. بَلْ كُنَّا مُتَرَفِّقِينَ فِي وَسَطِكُمْ كَمَا تُرَبِّي الْمُرْضِعَةُ أَوْلاَدَهَا. هٰكَذَا إِذْ كُنَّا حَانِّينَ إِلَيْكُمْ كُنَّا نَرْضَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ لاَ إِنْجِيلَ اللهِ فَقَطْ بَلْ أَنْفُسَنَا أَيْضاً لِأَنَّكُمْ صِرْتُمْ مَحْبُوبِينَ إِلَيْنَا. فَإِنَّكُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ تَعَبَنَا وَكَدَّنَا. إِذْ كُنَّا نَكْرِزُ لَكُمْ

بِإِنْجِيلِ اللهِ وَنَحْنُ عَامِلُونَ لَيْلاً وَنَهَارًا كَيْ لاَ نُثَقِّلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ. أَنْتُمْ شُهُودٌ وَاللهُ كَيْفَ بِطَهَارَةٍ وَبِبِرٍّ وَبِلاَ لَوْمٍ كُنَّا بَيْنَكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ . كَمَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ كُنَّا نَعِظُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ كَالأَبِ لِأَوْلاَدِهِ وَنُشَجِّعُكُمْ . وَنُشْهِدُكُمْ لِكَيْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلهِ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى مَلَكُوتِهِ وَمَجْدِهِ .

(١ تسالونيكى ٢ : ١ — ١٢)

تحت سطح هذا الكلام يجرى تيار عنيف من الوشايات التى ألصقها أعداء بولس به فى تسالونيكى .

١ — يشير العدد الرابع إلى السجن والإهانة التى لحقت به فى فيلبى (أعمال ١٦ : ١٦ — ٤٠) وكان فى تسالونيكى بلا شك أشخاص قالوا عنه إن هذا الرجل بولس له صفحة سوابق عند رجال الأمن ، وهو ليس إلا مجرم هارب من وجه العدالة ، ولا يستطيع أن يصغى إلى رجل من هذا القبيل . إن العقل المفعم بالحقد لا يفكر إلا تفكيراً ملتوياً يحول به أى شىء إلى أباطيل وافتراءات .

٢ — والعدد الثالث يحمل بين طياته على الأقل ثلاثة إتهامات .

[ا] أشاع الأعداء أن تعليم بولس ما هو إلا محض أوهام . وفات الأعداء أن كل إنسان مقتنع بصحة دعوته يتعرض دائماً لتهمة الجنون . ظن فستوس أن الكتب الكثيرة تحول بولس إلى الهذيان (أعمال ٢٦ : ٢٤) وجاء على السيد المسيح وقت ظن فيه إخوته وأصدقاؤه أنه مختل العقل فأتوا لكى يأخذوه إلى البيت (مرقس ٣ : ٢١) . إن المثل المسيحية تختلف كل الاختلاف عن المثل العالمية ولذلك فإن من يتبعها بقلب موحد وحماس ملتهب قد يظهر فى عيون الناس أن به لوثة من الجنون .

[ب] وقالوا عنه أيضاً إنه كان مدفوعاً فى وعظه ببواعث دنسة . والكلمة فى

أصلها تحمل معنى النجاسة والانحلال الخلقي . وكانت عند أوائل المسيحيين عادة فسرها الوثنيون أسوأ تفسير ، وهي عادة القبلة المقدسة (١ تسالونيكي ٥ : ٢٦). وعندما كان المسيحيون يتحدثون عن وليمة المحبة أو عن القبلة المقدسة ، كان من الطبيعي على العقل الدنس أن يحرف هذه التعبيرات البريئة أسوأ تحريف . إن العقل القذر يرى القذارة في كل مكان .

[ح] وصوبوا إليه أيضاً تهمة ثالثة فقالوا إنه يهدف بمكر من وراء وعظه أن يضلل الناس وهو في الواقع لم يكن مخدوعاً بقدر ماكان خادعاً. هكذا قال أعداؤه عنه . اكتشف مروجو الدعاية لهتلر أن الأكاذيب إذا أذيعت مراراً وبجرأة كافية ، قبلها الناس في النهاية كأنها حقائق . وهكذا كان الإتهام الذي نسبوه إلى بولس .

٣ — أما العدد الرابع فيدل على أن بولس اتهم بإرضاء الناس أكثر من إرضاء الله ، ونشأ هذا الاتهام بسبب مناداة بولس بمجد حرية الإنجيل وبحرية النعمة التي اعتقتنا من عبودية الناموس ومن الاستعباد القاسي للنظم الناموسية . وهناك كثيرون لا يعتقدون أنهم متدينون إلا إذا علت الكآبة وجوههم ، وإذا وعظ إنسان بإنجيل الفرح سيجد الوشاة الذين يشوهون سمعته ويسيئون إلى خدمته . وهـــذا بالضبط ما حدث ليسوع نفسه .

٤ — ويتبين من العددين الخامس والتاسع أنه وجد من يقول إن بولس يكرز بالإنجيل تحقيقاً لمأرب مادي . والكلمة المترجمة « تملق » تصف دائماً الإطراء الذي يقصد صاحبه من ورائه الحصول على شيء ما ، ومما يؤسف له أن هـذا الأمر كان يحدث في الكنيسة الأولى . كان هناك أشخاص حاولوا أن يجنوا ربحاً مادياً من وراء اعتناقهم المسيحية . إن أول كتاب مسيحي للنظام وهو المسمى « تعاليم الإثني عشر رسولا » كان يحوي التوجيهات الصائبة ، ومنها قوله « إذا جاء إليكم رسول فقابلوه بترحاب كما يقابل الرب ، وهـو يمكث عادة يوماً واحـداً ، وإذا دعت الضرورة فقد يمكث عندكم يومين . أما إذا بقي لليوم الثالث فهو نبي كاذب. وعندما يخرج الرسول من منازلكم لا يأخذ معه شيئاً إلا الخبز الذي يكفيه حتى يعود إلى بيته ولكنه إذا طلب مالا فهو نبي كاذب » ، ومن أقوال الكتاب المشار إليه « إذا مر بكم عابر سبيل فأكرموه بقدر استطاعتكم . وهو لن يمكث عندكم أكثر من

يومين أو ثلاثة إلا إذا دعت الضرورة إلى أكثر من ذلك ، ولكن إذا رأى أن يبقى عندكم وكان صاحب حرفة فليعمل ليأكل . وإذا لم تكن له حرفة فلا يجب أن يعيش كسولا بينكم وهو مسيحي . وإذا لم يعمل بنصيحتكم فهو متطفل على المسيحية واحذروا منه » ، وتاريخ هذه الدسقولية يرجع إلى سنة ١٠٠ بعد الميلاد . حتى الكنيسة الأولى عرفت المشكلة المزمنة — مشكلة الذين يحترفون التسول مستغلين المحبة المسيحية . وزعم الأعداء أن بولس ليس إلا واحد من هؤلاء الأدعياء .

٥ — والعدد السادس يرينا أن أعداء بولس اتهموه بأنه يطلب مجده الشخصي. إن الوعاظ والمعلمين يتعرضون لهذا الخطر الدائم وهو أنهم يعلنون عن أشخاصهم لا عن رسالتهم ، وكان بولس حريصاً جداً من هذه الناحية، وفي (١ تسالونيكي ١: ٥) لا يقول « أنا وصلت إليكم » لكنه يقول « إنجيلنا وصل إليكم » . إن الرجل قد أضاع نفسه وفقد شخصيته في رسالته .

٦ — والعدد السابع يشير إلى اتهام بولس بالتحكم والاستبداد . لكن الواقع هو أن رقة بولس كانت مثل رقة الآب الحكيم ، ومحبته كانت المحبة التي تعرف كيف تكون حازمة في وقت الحزم ورقيقة كمحبة الأم في وقت الرقة. إن المحبة المسيحية في رأيه لم تكن شيئاً عاطفياً سهلا . كان يعرف أن الناس يحتاجون إلى التقويم والتأديب ، لا لعقابهم بل لخير نفوسهم .

خطايا اليهود

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَحْنُ أَيْضًا نَشْكُرُ اللهَ بِلاَ انْقِطَاعٍ لأَنَّكُمْ إِذْ تَسَلَّمْتُمْ مِنَّا كَلِمَةَ خَبَرٍ مِنَ اللهِ قَبِلْتُمُوهَا لاَ كَكَلِمَةِ أُنَاسٍ بَلْ كَمَا هِيَ بِالْحَقِيقَةِ كَكَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَعْمَلُ أَيْضًا فِيكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنَّكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ صِرْتُمْ مُتَمَثِّلِينَ بِكَنَائِسِ اللهِ الَّتِي هِيَ فِي الْيَهُودِيَّةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَنَّكُمْ تَأَلَّمْتُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا

مِنْ أَهْلِ عَشِيرَتِكُمْ تِلْكَ الآلاَمَ عَيْنَهَا كَمَا هُمْ أَيْضًا مِنَ الْيَهُودِ. الَّذِينَ قَتَلُوا الرَّبَّ يَسُوعَ وَأَنْبِيَاءَهُمْ وَاضْطَهَدُونَا نَحْنُ . وَهُمْ غَيْرُ مُرْضِينَ لِلهِ وَأَضْدَادٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ . يَمْنَعُونَنَا عَنْ أَنْ نُكَلِّمَ الأُمَمَ لِكَيْ يَخْلُصُوا حَتَّى يُتَمِّمُوا خَطَايَاهُمْ كُلَّ حِينٍ . وَلَكِنْ قَدْ أَدْرَكَهُمُ الْغَضَبُ إِلَى النِّهَايَةِ .

(١ تسالونيكى ٢ : ١٣ — ١٦)

إن الإيمان المسيحى لم يمنح أهل تسالونيكى سلاماً واطمئناناً بل اضطراباً وانزعاجاً. لقد أدخلهم إيمانهم الجديد فى بوتقة الإضطهاد . أما أسلوب بولس فى التشجيع فكان فى غاية الروعة . كأنى به يريد أن يقول لهم « أيها الإخوة : إن أقدامنا تطأ الأرض التى وطأتها أقدام القديسين من قبلنا » كان اضطهادهم وسام الشرف الذى يؤهلهم للوقوف جنباً إلى جنب مع الكتائب المختارة فى جيش المسيح .

لكن الشىء الجدير بالدرس فى هذا الفصل أن بولس فى العددين الخامس عشر والسادس عشر يضع قائمة بأخطاء وخطايا اليهود .

١ — إنهم قتلوا الرب يسوع والأنبياء ، وعندما جاء رسل الله إليهم تخلصوا منهم بالطرد أو بالقتل . إن زعماء اليهود أرادوا أن يتخلصوا من يسوع المسيح قبل أن يتمادى فى إلحاق الضرر بهم . ولكن ما من إنسان استطاع أن يوقف تأثير الرسالة بمجرد قتل المرسل . حدثنا أحدهم عن مرسل ذهب إلى قبيلة بدائية فاستخدم لهم وسائل بسيطة لتقريب الحقائق إلى أذهانهم ، ومن هذه الوسائل أنه جاء يوماً بخريطة رسم عليها طريق الإنسان الذى يقبل المسيح وهو يصعد إلى السماء . ورسم عليها أيضاً طريق الإنسان الذى يرفض المسيح وهو ينزل شيئاً فشيئاً حتى ينحدر إلى الجحيم . لكن الرسالة أزعجت رجال القبيلة فماذا فعلوا ؟ لم يكن لديهم وسيلة إلا أن يحرقوا الخريطة . وبعد أن أحرقوها شعروا أن كل شىء يسير على الوجه المرضى . وهكذا قد يرفض الإنسان أن يصغى لرسالة يسوع المسيح لكنه لا يقدر أن يلاشى من العالم كله ولا من حياته الخاصة .

٢ — إن اليهود اضطهدوا المسيحيين . ولو أنهم رفضوا رسالة الرب يسوع ، كانوا على الأقل يسمحون لغيرهم أن يصغى لها ويقبلها ، لكنهم لم يدخلوا ولم يدعوا الداخلين يدخلون .

٣ — إن اليهود لم يجتهدوا أن يرضوا الله . وفى هذا عبرة كبيرة لنا . إن متاعب الناس نشأت من انقيادهم لديانة من صنع الناس بدلا من التمسك بالإيمان المعطى لهم من الله . والسؤال الذى يتردد كثيراً على ألسنة الناس هو « ما هو رأيى الشخصى فى هذا الأمر » ؟ وقلما يقولون « ماهى أقوال الله فى هـــذه المسألة أو تلك » ؟ وليس المعوّل على منطقنا التافه المحدود بل على وحى الله .

٤ — إن اليهود كانوا أضداداً لجميع الناس . وفى التاريخ القديم كان اليهود متهمين بكراهيتهم للجنس البشرى . كانت خطيتهم خطية الكبرياء والغطرسة . اعتبروا أنفسهم الشعب المختار وكانوا فى الواقع كذلك . لكنهم نظروا إلى هذا الاختيار كامتياز ولم ينظروا إليه كخدمة ومسئولية ، وكانوا يحلمون بأن العالم كله سيكون فى خدمتهم بدلا من أن يشعروا بواجب الخدمة لغيرهم من الناس . إن الإنسان الذى يفكر دائماً فى حقوقه ويطالب دائما بامتيازاته يقف موقف العداء لجميع الناس . وزد على ذلك فإن ما هو أشد خطورة أن يكون ضد الله نفسه .

٥ — إن اليهود رغبوا أن يحتكروا عطية محبة الله لأنفسهم فقط دون سواهم من الناس . لم يريدوا أن يكون للأمم نصيب فى نعمة الله . لخص أحـــدهم موقف حرمان الآخرين من البركات بهذه الكلمات التى تنطق بالمرارة .

« نحن الأقلية المختارة من الله

وكل الناس غيرنا سيهلكون لا محالة

وليس فى السماء مكان لكم

ولا نقدر أن نحشر السماء بأناس مثلكم »

لابد أن هناك خطأ جوهرياً وأساسياً فى أية ديانة تشجع إنساناً — بالتصريح أو بالتلميح — على كراهة أى إنسان آخر . إذا كان الإنسان يحب الله محبة حقيقية

فلابد أن تظهر هذه المحبة فى محبته للآخرين . وبدلا من احتضانه للامتيازات وتخصيصها لنفسه ، يمتلىء قلبه بالرغبة العميقة فى مشاركة الآخرين فى هـــذه الإمتيازات .

مجدنا وفرحنا

وَأَمَّا نَحْنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَإِذْ قَدْ فَقَدْنَاكُمْ زَمَانَ سَاعَةٍ بِالْوَجْهِ لاَ بِالْقَلْبِ اجْتَهَدْنَا أَكْثَرَ بِاشْتِهَاءٍ كَثِيرٍ أَنْ نَرَى وُجُوهَكُمْ. لِذَلِكَ أَرَدْنَا أَنْ نَأْتِيَ إِلَيْكُمْ أَنَا بُولُسَ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ . وَإِنَّمَا عَاقَنَا الشَّيْطَانُ . لِأَنْ مَنْ هُوَ رَجَاؤُنَا وَفَرَحُنَا وَإِكْلِيلُ افْتِخَارِنَا . أَمْ لَسْتُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا أَمَامَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ . لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ مَجْدُنَا وَفَرَحُنَا .

(١ تسالونيكى ٢ : ١٧ — ٢٠)

لقبت الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكى بأنها « أعلى نموذج للصداقة » وهنا تظهر عواطف بولس العميقة نحو أصدقائه فى كلماته الحلوة المؤثرة ، ولا نزال نحس عبر الأجيال بنبضات الحب الصحيح فى هذه الكلمات .

ويستعمل بولس هنا صورتين جديرتين بالدراسة .

١ — يتكلم عن إعاقة الشيطان له فى طريقه عنـــدما تاقت نفسه أن يأتى إلى تسالونيكى . والكلمة التى يستخدمها للإعاقة هى الكلمة الفنية لوضع العراقيل فى طريق حملة عسكرية لكى تصدها عن التقدم . وهذا هو عمل الشيطان . إنه يضع العوائق دائماً فى طريق المسيحى . وهذا هو عملنا أن ننتصر على هذه العوائق ، لأن

عوائق الطريق قد وضعت لا لكى تصدنا وتوقف سيرنا ، بل لكى نتغلب عليها ونصعد فوقها .

٢ — ويتكلم أيضاً عن أهل تسالونيكى فيقول إنهم إكليله . والكلمة لذيذة وتستحق الدراسة . وفى اللغةاليونانية نجدكلمتين للإكليل . الكلمة الأولى «دياديما» وتستعمل للتاج الملكى . والكلمة الثانية « ستيفانوس » وهى إكليل المنتصر فى الألعاب الرياضية . وهى الكلمة التى يستعملها بولس فىهذا المجال . إن إكليلهالوحيد فى الحياة الذى يستحق منه كل تقدير هو أن يرى الذين تجددوا على يديه يحيون حياة مقدسة . كان أحد الأساتذة يقتبس دائماً عبارة يوحنا الرسول وهو يتحدث عن تلاميذه الذين لقنهم العلم « ليس لى فرح أعظم من هذا أن أسمع عن أولادى أنهم يسلكون بالحق » (٣ يوحنا ٤) وكانت هذه بالضبط أمنية بولس . إن مجد أى معلم هو فى تلاميذه وإذا جاء اليوم الذى يسبقه فيه تلاميذه يكون مجده أعظم وفرحه أكمل . إن أعظم مجد يحل بالإنسان هو فى أولئك الذين هداهم أو ساعدهم فى الطريق إلى المسيح . حكم على « صموئيل روزر فورد » بالسجن فى ابردين وجلس الرجل فى سجنه يستعيد الذكريات عن كنيسته القديمة فى « آن ورث » . فرسمت كاتبة معروفة صورة له وهو يخاطب كنيسته قائلا :

« ياكنيستى الجميلة القائمة على الطريق الرئيسى فى « آن ورث »
أنت لا تزالين عندى غالية ومكرمة
حتى وأنا أدنو من السماء
تنسكب من عينى الدموع شوقاً إليك
ولو التقيت بنفس واحدة من « آن ورث »
على يمين عرش الله
فإن سمائى ستكون سمائين
فى أرض عمانوئيل »

وبديهى أننا مهما عملنا من جلائل الأعمال فإنها لاتعطينا حق المثول أمام الله لأن السماء من فضل النعمة الإلهية ولكن فى النهاية ستكون النجوم المرصعة فى إكليل المجاهد الأمين هى النفوس التى أتى بها إلى يسوع المسيح .

الأصحاح الثالث

الراعي وقطيعه

لِذَلِكَ إِذْ لَمْ نَحْتَمِلْ أَيْضًا اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُتْرَكَ فِي أَثِينَا وَحْدَنَا. فَأَرْسَلْنَا تِيمُوثَاوُسَ أَخَانَا وَخَادِمَ اللهِ وَالْعَامِلَ مَعَنَا فِي إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ حَتَّى يُثَبِّتَكُمْ وَيَعِظَكُمْ لأَجْلِ إِيمَانِكُمْ. كَيْ لاَ يَتَزَعْزَعَ أَحَدٌ فِي هٰذِهِ الضِّيقَاتِ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا مَوْضُوعُونَ لِهٰذَا. لأَنَّنَا لَمَّا كُنَّا عِنْدَكُمْ سَبَقْنَا فَقُلْنَا لَكُمْ إِنَّنَا عَتِيدُونَ أَنْ نَتَضَايَقَ كَمَا حَصَلَ أَيْضًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. مِنْ أَجْلِ هٰذَا إِذْ لَمْ أَحْتَمِلْ أَيْضًا أَرْسَلْتُ لِكَيْ أَعْرِفَ إِيمَانَكُمْ لَعَلَّ الْمُجَرِّبَ يَكُونُ قَدْ جَرَّبَكُمْ فَيَصِيرَ تَعَبُنَا بَاطِلاً. وَأَمَّا الآنَ فَإِذْ جَاءَ إِلَيْنَا تِيمُوثَاوُسُ مِنْ عِنْدِكُمْ وَبَشَّرَنَا بِإِيمَانِكُمْ وَمَحَبَّتِكُمْ وَبِأَنَّ عِنْدَكُمْ ذِكْرًا لَنَا حَسَنًا كُلَّ حِينٍ وَأَنْتُمْ مُشْتَاقُونَ أَنْ تَرَوْنَا كَمَا نَحْنُ أَيْضًا أَنْ نَرَاكُمْ. فَمِنْ أَجْلِ هٰذَا تَعَزَّيْنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَتِكُمْ فِي ضِيقَتِنَا وَضَرُورَتِنَا بِإِيمَانِكُمْ. لأَنَّنَا الآنَ نَعِيشُ إِنْ ثَبَتُّمْ أَنْتُمْ فِي الرَّبِّ. لأَنَّهُ أَيَّ شُكْرٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَوِّضَ إِلَى

اللهِ مِنْ جِهَتِكُمْ عَنْ كُلِّ الْفَرَحِ الَّذِي نَفْرَحُ بِهِ مِنْ أَجْلِكُمْ
قُدَّامَ إِلٰهِنَا . طَالِبِينَ لَيْلاً وَنَهَارًا أَوْفَرَ طَلَبٍ أَنْ نَرَى وُجُوهَكُمْ
وَنُكَمِّلَ نَقَائِصَ إِيمَانِكُمْ .

(١ تسالونيكى ٣ : ١ — ١٠)

ينطق هذا الفصل بجوهر روح الراعى وصميم حياته وخدمته .

١ — هناك المحبة . ونحن لا يمكننا بأى حال من الأحوال أن نؤثر فى الناس أو نكسبهم للمسيح مالم نحبهم أولا . قال « كارليل » عن مدينة « لندن » يبلغ تعداد سكان هذه المدينة ثلاثة ملايين ونصف مليون إنسان — ومعظمهم أغبياء » . إن الشخص الذى يبدأ باحتقار الناس أو بالاستعلاء عليهم أو بكراهيتهم لا يستطيع أبداً أن يخلص نفساً واحدة .

٢ — وهناك القلق وانشغال الفكر . وإذا أخرج إنسان أفضل مافى نفسه إلى حيز الوجود — سواء كان إنتاجه سفينة كبيرة أو كتاباً صغـــيراً — فإن القلق يساوره حتى يعرف كيف يستطيع عمل يديه أو عصارة عقله أن يشق طريقه ويصمد أمام التقلبات . وإذا صدق هذا القول على الأشياء فإنه يصدق بالأحرى على الناس . وعندما يربى الأب إبنه بالمحبة والتضحية يكون قلقاً عليه حتى يطمئن إلى ثباته فى وجه صعوبات ومخاطر الحياة . وعندما يعلم المعلم تلميذه ويعطيه شيئاً من ذات نفسه يكون قلقاً عليه حتى يعرف كيف يواجه امتحانات الحياة . وعندما يقبل الراعى شاباً إلى الكنيسة بعد سنوات من التدريب فى مدارس الأحد ، وفى صف درس الكتاب ، وفى صف التثبيت وفهم العقيدة المسيحية يكون قلقاً عليه لمعرفة موقفه من واجبات والتزامات العضوية فى الكنيسة . ويصدق هذا الشىء عينه فى حياة يسوع المسيح وإنما بصورة أقوى . لقد ضحى بالكثير من أجل الناس ، وأحبهم المحبـــة الباذلة المتفانية وهو لأجل ذلك يرقبهم بقلق منتظراً أن يرى فيهم صدى لهذه المحبة . وهذا هو قلق الإيمان العامل بالمحبة . ولابد لكل إنسان أن يقف مندهلا متواضعاً عندما

كريذا أن هناك أشخاصاً فى الأرض والسماء يحملونه فى قلوبهم ويرقبونه وهو يسير فى هذه الحياة .

٣ — وهناك العون . وعندما أرسل بولس تيموثاوس إلى تسالونيكى لم يكن للتفتيش على الكنيسة بقدر ما كان لتقديم العون لها . ويجب أن يكون الهدف العظيم أمام كل الوالدين والمعلمين والرعاة لا أن ينتقدوا أولئك الذين يكلفون برعايتهم ويندوا بأخطائهم وزلاتهم ، بل لكى يخلصوهم من هذه الأخطاء والزلات . وإذا كانوا قد سقطوا فيها فعلا فيجب أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لإنقاذهم منها . إن الموقف المسيحى تجاه الخاطىء لا يجب أن يكون أبداً موقف الإدانة بل موقف المعونة .

٤ — وهناك الفرح . امتلأ قلب بولس بالفرح لسماعه أن أولئك المتجددين الحديثى الإيمان ثابتون فى الحياة المسيحية . كان له فرح أولئك الذين يصنعون شيئاً يقاوم تقلبات الزمن . وليس هناك فرح للوالدين أعظم من رؤية أولادهم وهم يسيرون بنجاح وثبات فى الحياة الروحية .

٥ — وهناك الصلاة . حمل بولس شعب الكنيسة على قلبه أمام عرش النعمة الإلهية . ونحن لا يمكننا أن نعرف كم من الخطايا أنقذنا منها ، وكم من التجارب انتصرنا عليها لأن شخصاً ما قد رفع صلاة لأجلنا . تقدمت فتاة خادمة إلى عضوية الكنيسة وسئلت أى عمل مسيحى تستطيع القيام به فأجابت « ليست لى فرصة لأعمل شيئاً لأن خدمة البيت كثيرة ومستمرة ، ولكنى عندما أذهب إلى غرفة نومى آخذ معى جريدة الصباح وأقرأ أخبار المواليد وأصلى لأجل جميع الأطفال الصغار ، ثم أقرأ أخبار الزواج وأصلى لأجل الذين تزوجوا ليجدوا السعادة فى حياتهم الزوجية وبعد ذلك أقرأ أخبار الوفيات وأصلى لأجل الحزانى لكى يعزيهم الرب بتعزياته » ولا يستطيع أحد أن يخبرنا عن أمواج النعمة الغنية التى فاضت من تلك الغرفة الصغيرة ، وعن مدى تأثير الصلوات التى رفعتها تلك الفتاة . وعندما لا يكون فى ميسورنا أن نخدم إنساناً بأية صورة من الصور ، وعندما نكون مثل بولس منفصلين عن أحبائنا بسبب ظروف فوق طاقتنا ، فليس أمامنا إلا شىء واحد فى إمكاننا أن نعمله لهم . نستطيع أن نصلى لأجلهم . ونكون بذلك قد أسدينا إليهم أجل الخدمات .

الـكل من الله

وَاللهُ نَفْسُهُ أَبُونَا وَرَبُّنَا يَسُوعُ الْمَسِيحُ يَهْدِي طَرِيقَنَا إِلَيْكُمْ. وَالرَّبُّ يُنْمِيكُمْ وَيَزِيدُكُمْ فِي الْمَحَبَّةِ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَلِلْجَمِيعِ كَمَا نَحْنُ أَيْضًا لَكُمْ. لِكَيْ يُثَبِّتَ قُلُوبَكُمْ بِلَا لَوْمٍ فِي الْقَدَاسَةِ أَمَامَ اللهِ أَبِينَا فِي مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِ قِدِّيسِيهِ.

(١ تسالونيكي ٣ : ١١ — ١٣)

فى فصل قصير وبسيط كهذا الفصل نستطيع أن نرى — بأوضح ما تكون عليه الرؤية — عقل بولس وهو يتجه تلقائياً إلى الله . إنه يرى الله فى كل شيء وإنه المصدر الأوحد لكل النعم والبركات .

١ — هو يصلى إلى الله لكى يفتح له الطريق حتى يمكنه المجيء إلى تسالونيكى. وإلى الله كان يتجه بولس ملتمساً منه الإرشاد فى مشاكل الحياة اليومية . فإذا أراد القيام برحلة طلب من الله أن يمهد له الطريق ويذلل الصعوبات . ومن أخطاء الحياة الجسيمة أننا لانأتى إلى الله إلا فى اللحظات العظيمة والأزمات الخطيرة والمآزق الحرجة. كنت أتحـــدث من وقت ليس ببعيد مع ثلاثة شبان عادوا من رحلة بالزورق على الشاطىء الغربى لاسكتلندا ، وقال لى أحدهم « عندما تكون فى بيتك قلما تصغى إلى أخبار الجو ، ولـكننا عندما كنا فى الرحلة كنا نصغى إليها بكل آذاننا » ويمكننا أن نستغنى عن تنبؤات الجو عندما تسير الحياة معنا فى سهولة وأمان ، ولـكن من الضرورى أن نصغى إليها عندما تعتمد الحياة عليها . ونحن ميالون أن نفعل هذا الشيء عينه مع الله . ففى أمور الحياة العادية قلما نعبأ به على زعم أننا نستطيع أن ندبر أمورنا بأنفسنا ، ولـكن عندما تحل بنا الأزمات نسرع إليه ونتعلق به لعلنا أننا لا نقدر أن نخرج من هذه الأزمات بدونه . وحتى فى رحلة عادية — كالرحلة من

أثينا إلى تسالونيكى — نظر بولس إلى الله ملتمساً منه الهداية والإرشاد . نحن نستخدم الله لكى ينقذنا من مخاطر الحياة ، أما بولس فسار مع الله لكى يرشد طريقه في الحياة .

٢ — ويصلى بولس إلى الله لكى يقوى أهل تسالونيكى على إتمام شريعة المحبة فى حياتهم اليومية . وكثيراً ما تعترينا الدهشة ونحن نتساءل : لماذا يصعب علينا أن نحيا الحياة اليومية سيما فى العلاقات العادية اليومية ؟ وقد يكون الجواب الصحيح هو لأننا نحاول أن نحيا هذه الحياة بقدرتنا الشخصية . إن الإنسان الذى يخرج إلى عمله فى الصباح بدون صلاة يريد فى الواقع أن يقول « أستطيع اليوم وحدى فى سهولة ويسر أن أشق طريقى وأصل إلى أغراضى » . والرجل الذى يهجع إلى فراشه فى الليل من غير أن يتكلم مع الله يقول بلسان حاله « أستطيع أن أتحمل بنفسى نتائج أعمالى فى هذا اليوم . وصف يوماً « جون بوكان » أحد الملحدين فقال « هو رجل ليس له وسائل غير منظورة يعتمد عليها فى حياته » وقد ينطبق هذا القول إلى حد كبير على الذين لا يصلون . إن فشلنا فى الحياة المسيحية يعزى إلى أننا نحاول أن نحيا بدون عون الله . وهذا من رابع المستحيلات .

٣ — ويصلى بولس إلى الله لأجل النجاة الأخيرة . كان فكر بولس فى تلك الأوقات منشغلا بمجىء المسيح الثانى ، وهو اليوم الذى يقف فيه الجميع أمام الله للدينونة أو للحساب . وكانت صلاة بولس إلى الله أن يحفظ شعبه فى البر والاستقامة ولكى يثبت قلوبهم بلا لوم فى القداسة أمام الله أبينا فى مجىء ربنا يسوع المسيح مع جميع قديسيه . إنه يصلى إلى الله لأجلهم حتى لا يملأ الخجل وجوههم فى ذلك اليوم . ولا يتسنى لأحد ما — بالغا ما بلغت تقواه — أن يقابل الله بغير الله . إن الطريق الوحيد للاستعداد لملاقاة الله هو أن نحيا كل يوم مع الله . إن رجفة ذلك اليوم لن تصيب أولئك الذين كانت لهم فى حياتهم سيرة تليق بأصدقاء الله . ولكن تلك الرجفة الشديدة ستكون لأولئك الذين يلتقون بالله كإله غريب عنهم يصب رعبه ورجزه عليهم .

الأصحاح الرابع

دعوة إلى الطهارة

فمن ثم أيها الإخوة نسألكم ونطلب إليكم في الرب يسوع أنكم كما تسلمتم منا كيف يجب أن تسلكوا وترضوا الله تزدادون أكثر. لأنكم تعلمون أية وصايا أعطيناكم بالرب يسوع. لأن هذه هي إرادة الله قداستكم. أن تمتنعوا عن الزنا. أن يعرف كل واحد منكم أن يقتني إناءه بقداسة وكرامة. لا في هوى شهوة كالأمم الذين لا يعرفون الله. أن لا يتطاول أحد ويطمع على أخيه في هذا الأمر لأن الرب منتقم لهذه كلها كما قلنا لكم قبلا وشهدنا. لأن الله لم يدعنا للنجاسة بل في القداسة. إذا من يرذل لا يرذل إنسانا بل الله الذي أعطانا أيضا روحه القدوس.

(١ تسالونيكي ٤ : ١ — ٨)

قد يبدو الأمر غريباً علينا أن يتكلم بولس بصراحة وإسهاب عن الطهارة الجنسية إلى مجتمع مسيحي. ولكن هناك أمران يجب أن نذكرهما جيداً. الأمر الأول أن المؤمنين في تسالونيكي قد دخلوا حديثاً إلى الإيمان المسيحي.

لقد خرجوا من مجتمع كانت العفة فيه فضيلة مجهولة . وكانوا لا يزالون فى وسط هذا المجتمع الذى كانت عدواه دائمة الإغراء لهم جميعاً . فكان من الصعب إلى حد كبير أن يمتنعوا عما ألفوه كل حياتهم وقبلوه كأمر طبيعى . والأمر الثانى أننا يجب أن نذكر أنه لم يحدث فى كل عصور التاريخ مثلما حدث فى ذلك العصر من انتهاك العهود الزوجية ، وسهولة الطلاق بشكل يرثى له . ولأجل هذا فإن كلمة « الإناء » المذكورة فى هذا الفصل قد تعنى الجسد ولكنها بالأكثر تفيد الزوجة « أن يعرف كل واحد منكم أن يقتنى زوجته بقداسة وكرامة » .

وبين اليهود كان للزواج أسمى مقام ولكن نظرياً فقط . وقد قيل إن اليهودى يفضل الموت على ارتكاب القتل أو الزنى أو السجود لصنم . ولكن الطلاق كان سهلا بصورة مريعة . وصرح الناموس الموسوى بأن من حق الرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « عيب شئ » لكن وجه الصعوبة فى تعريف هذا الشئ المعيب . فالمعلمون للتمسكون بالشريعة قالوا إن العيب هو علة الزنى فقط ولكن المعلمين المتساهلين أباحوا للرجل أن يطلق زوجته إذا أفسدت الطعام بالملح الكثير ، أو إذا سارت فى الطريق العام ورأسها مكشوف ، أو إذا تحدثت مع الرجل فى الشوارع ، أو إذا تكلمت عن والدى زوجها بغير احترام فى حضوره ، أو إذا كانت امرأة مشاغبة بمعنى أن يكون صوتها مسموعاً فى البيت المجاور . وبقى علينا أن نعرف أن التعليم المتساهل فى الطلاق إلى أبعد الحدود كان أكثر قبولا وانتشاراً بين اليهود .

وفى مدينة روما طوال الخمسمائة والعشرين سنة الأولى من حكم الجمهورية لم تحدث حالة طلاق واحدة . وأما فى حكم الإمبراطورية كان الطلاق يسير وفقاً للأهواء والنزوات كما قال سينكا « النساء يتزوجن ليطلقن ، ويطلقن ليتزوجن » . وفى روما كانوا يميزون السنين بأسماء القناصل أما النساء العصريات فكن يحددن السنين بأسماء أزواجهن . ويضرب « جوفيتال » مثالا لذلك عن امرأة كان لها ثمانية أزواج فى مدى خمس سنين . كانت الآداب ميتة تماماً فى تلك الأيام ليس فيها عرق ينبض بالحياة .

وفى اليونان كان ارتكاب الفجور علانية وبلا حياء . ومن زمن طويل كتب « ديموستينوس » يقول : نحن نحتفظ بثلاث طبقات من النساء : بالغوانى للمتعة ،

وبالجوارى للخدمة اليومية وبالزوجات ليحملن لنا أطفالا وليدبرن شئون بيوتنا بإخلاص » . وطالما كان الرجل مدبراً حاجات زوجته وأسرته ، فلم يكن هناك ما يدعو للخجل من ممارسة العلاقات الجنسية الخارجة عن حدود الزواج .

وكتب الرسول بولس هذه النصائح إلى رجال ونساء خارجين حديثاً من مجتمع موبوء بالفساد . وما يبد لنا شيئاً بديهياً فى حياتنا المسيحية اليوم ، كان لهم شيئاً جديداً ومستغرباً . وهذا فضل من الأفضال التى أسدتها المسيحية . إنها وضعت قانوناً جديداً ينظم العلاقة بين رجال ونساء فى جو تسوده الطهارة والأمانة والكرامة . إن المسيحية قامت بدور البطولة فى ميدان الطهارة ورعاية البيت ، وقد يبدو من نافلة القول أن نقرر اليوم أمراً كهذا الأمر ولكنه ليس أمراً تافهاً كما يتراءى لنا . فى كتاب عنوانه « بماذا أؤمن » وهو مجموعة من الآراء لعدد من مشاهير الرجال والنساء ، كتب « كنجزلى مارتن » هذه الكلمات الجريئة « من يوم أن تحررت النساء » وأصبحن قادرات على العمل لكسب العيش ، وصارت لهن الحرية المطلقة فى إنجاب الأطفال أو عدم إنجابهم ، فقد أصبح من المحتم تطوير عادات وتقاليد الزواج » . قال لى يوماً إقتصادى كبير « إن اختراع وسائل منع الحمل هو أهم وأخطر حادث فى تاريخ البشرية منذ اكتشاف النار » وكان على حق فى هذا القول لأن هذه الوسائل إذا أسيء استعمالها تغير العلاقات الجنسية التى تبنى عليها الحياة العائلية . وكانت نتيجة هذا الاختراع ظهور قانون جديد للجنس . كانت الآداب القديمة تغض الطرف عن رذيلة الرجل ، لكن المرأة التى تزل ترمقها نظرات الإحتقار مدى الحياة ، وحتى عند موتها كانت تشيعها اللعنات . ولكن كل هذا قد اختفى اليوم ، وأصبحت القاعدة الجديدة أن يسمح للرجل والمرأة أن يعيشا معاً كما يحلو لهما ولا يتزوجان إلا إذا اتفقا على إنجاب الأطفال . إن الآداب الجديدة ماهى إلا صورة طبق الأصل للفجور القديم . لقد صرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة . ولا تزال الضرورة الصارخة اليوم فى كل بلد من بلاد العالم كما كان الحال فى تسالونيكى أن تنادى بشدة بوجوب التمسك بالآداب المسيحية « لأن الله لم يدعنا للنجاسة بل فى القداسة » .

ضرورة القيام بالأعمال اليومية

وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ الأَخَوِيَّةُ فَلاَ حَاجَةَ لَكُمْ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكُمْ عَنْهَا لأَنَّكُمْ أَنْفُسَكُمْ مُتَعَلِّمُونَ مِنَ اللهِ أَنْ يُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . فَإِنَّكُمْ تَفْعَلُونَ ذلِكَ أَيْضًا لِجَمِيعِ الإِخْوَةِ الَّذِينَ فِي مَكِدُونِيَّةَ كُلِّهَا . وَإِنَّمَا أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَزْدَادُوا أَكْثَرَ . وَأَنْ تَحْرِصُوا عَلَى أَنْ تَكُونُوا هَادِئِينَ وَتُمَارِسُوا أُمُورَكُمُ الْخَاصَّةَ وَتَشْتَغِلُوا بِأَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ كَمَا أَوْصَيْنَاكُمْ . لِكَيْ تَسْلُكُوا بِلِيَاقَةٍ عِنْدَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ وَلاَ تَكُونَ لَكُمْ حَاجَةٌ إِلَى أَحَدٍ .

(١ تسالونيكى ٤ : ٩ — ١٢)

يبدأ هذا الفصل بالمديح وينتهى بالتحذير . وبهذا التحذير ندرك الموقف المباشر الذى يقف خلف الرسالة . حث بولس أهل تسالونيكى بالاحتفاظ بالهدوء ، وبممارسة أمورهم الخاصة . والمضى فى العمل بأيديهم . أنتجت الكرازة بمجىء المسيح الثانى موقفاً شاذاً ومربكاً عند المؤمنين فى تسالونيكى . كانت النتيجة أن كثيرين منهم تركوا أعمالهم ووقفوا فى جماعات متلهفة . مسببين الإرتباك لهم ولغيرهم وهم فى انتظار المجىء الثانى . وتمزقت الحياة العادية ، وانقطع الناس عن العمل لأجل معيشتهم هم ومعيشة الذين يعولونهم أيضاً ، ووقفوا بعيون شاخصة إلى السماء يرقبون مجىء المسيح الثانى .

ولذلك جاءت نصيحة بولس فى وقتها ، والكلمة فى وقتها ما أحسنها .

١ — قال لهم إن أفضل طريق لانتظار يسوع هى أن يجدهم قائمين بأعمالهم اليومية بهدوء واجتهاد واقتدار . كان « الرئيس ريفى » معتاداً أن يقول « اليوم سألقى محاضرة ، وغداً سأحضر إجتماع لجنة ، وفى يوم الأحد سأعظ فى الكنيسة ، وفى يوم ما لابد أن أموت . وبناء على ذلك لنقم بأعمالنا التى توكل إلينا على أكمل وجه» إن اعتقادنا فى حتمية مجىء المسيح ، وأن حياتنا على الأرض لابد أن تصل إلى نهايتها يوما ما لا يجعلنا نتوقف عن العمل . إنه بالحرى سبب يدعونا إلى العمل بأكثر نشاط وأكثر أمانة . إن طريق الإنسان إلى الملكوت ليس بالإنتظار العقيم الذى لايجدى بل بالعمل الهادىء والنافع .

٢ — وقال لهم أيضاً إنهم — مهما حدث من الأحداث — فمن الواجب عليهم أن يقدموا مسيحيتهم للذين هم من خارج باجتهاد وجمال حياتهم . أما الكسل والبطالة ، وتحولهم إلى مواطنين غير صالحين ، فهذا معناه ببساطة أنهم يجعلون البعيدين يفقدون الثقة فى المسيحية .

إن بولس هنا يشير إشارة ضمنية إلى حق عظيم . إن الشجرة تعرف من ثمرها ، والديانة تعرف بنوع الرجال والنساء الذين تنتجهم .

وأن الطريق الوحيد الذى يثبت أن المسيحية أفضل دين هو بالبرهان أنها تنتج أفضل الناس. وعندما نبرهن نحن المسيحيون أن مسيحيتنا تجعلنا عمالا أكثر أمانة ، وأصدقاء أكثر وفاء وإخلاصاً ، ورجالا وسيدات أكثر رقة ولطفاً ، حينئذ — وحينئذ فقط — نكون واعظين بديانتنا حقاً . وما يعول عليه ليس الكلام بل الأعمال ، وليست الخطابة بل الحياة . إن العالم الخارجى لا يأتى أبداً إلى كنيسة ليسمع عظة لكنه يرانا كل يوم خارج الكنيسة . وأنها حياتنا التى يجب أن تكون العظة الرابحة الناس للمسيح .

٣ — وقال لهم كذلك إنهم يجب أن يهدفوا إلى الاستقلال فى تحصيل أمور معيشتهم ، ولايجب عليهم أبداً أن يصيروا «إسفنجاً» يعتمد على سخاء محبة الآخرين. كانت نتيجة مسلك بعض المؤمنين فى تسالونيكى أن الآخرين اضطروا أن يعولوهم .

وهناك شيء من التناقض في المسيحية — إذا جاز لنا أن نسميه كذلك . فمن واجب المسيحي أن يقـــدم العون للكثيرين الذين — لأسباب خارجة عن إرادتهم — لا يقدرون أن يبلغوا هذا الاستقلال في معيشتهم . لكنه أيضاً من واجب المسيحي أن يساعد نفسه . من واجبه لا أن يأخذ من موارد الكنيسة بل أن يضيف إليها قدر ما يستطيع . يجب أن يمتلىء المسيحي بروح الإحسان الذي يلذ له أن يعطي ، وفي نفس الوقت يجب أن يدرب نفسه على الاستقلال الذي يحتقر أن يأخذ شيئاً من أيدي الغير طالما كان في ميسوره أن يدبر حاجاته بيديه .

من جهة الراقدين

ثُمَّ لاَ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ الرَّاقِدِينَ لِكَيْ لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ . لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ فَكَذَلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضًا مَعَهُ . فَإِنَّنَا نَقُولُ لَكُمْ هَذَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ إِنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ لاَ نَسْبِقُ الرَّاقِدِينَ ، لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً . ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ . وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ . لِذَلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْكَلاَمِ .

(1) تسالونيكي ٤ : ١٣ — ١٨)

جاء الكلام عن المجيء الثاني بمشكلة أخرى إلى أهل تسالونيكي . كانوا يتوقعون مجيء ذلك اليوم بأقصى سرعة . وكانوا على يقين من أنه سيجيء وهم على قيد الحياة . لكنهم كانوا قلقين من جهة الذين ماتوا — وهم مؤمنون بالمسيح — قبل المجيء الثاني . ساورتهم الظنون أن الذين ماتوا قبلهم لن يكون لهم نصيب في أمجاد ذلك اليوم . ولكي يرد بولس على هذه المشكلة كتب لهم هذه الأقوال المعزية . كان رده أنه سيكون مجد واحد للموتى والأحياء على حد سواء .

يقول لهم في هذا الفصل إنهم لا يجب أن يحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم . وفي وجه الموت وقف العالم الوثني يائساً . واجه الوثنيون الموت بالاستسلام المخيف وباليأس الكئيب . كتب « أسكيلوس » يقول : « بمجرد أن يلفظ الإنسان أنفاسه الأخيرة ، فلا قيامة له بعد ذلك » وكتب « ثيوقريطس » : « هناك رجاء للأحياء أما الموتى فهم بلا رجاء » وكتب « كاتولوس » : « حالما ينطفيء نورنا القصير المدى ليس أمامنا إلا ليل طويل ونظل راقدين فيه على الدوام » . وعلى قبورهم نقشت العبارات الكالحة المتجهمة مثل قولهم « لم أكن موجوداً ، وصرت موجوداً ، ولست الآن موجوداً ، ولا أبالي بأي شيء » . ومن خطابات البردي المؤثرة ، وصل إلينا خطاب فحواه « من إيرين إلى تاونوفريس وفيلو — لكم التعزية . حزنت وبكيت على رحيل ديديماس وقد قمت مع كل أفراد البيت بالواجبات اللائقة بدفنه . ولكننا أمام الموت لا نستطيع أن نفعل شيئاً . ولأجل ذلك عزوا بعضكم بعضاً » . وقف الوثني أمام الموت عاجزاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً .

وكان بولس في كلامه من جهة الراقدين يقرر مبدأ عظيماً . إذا كان الإنسان قد عاش في المسيح ومات في المسيح ، فهو ولو مات لا يزال في المسيح ، وهو سيقوم ثانية في المسيح . هذا معناه أن العلاقة الكائنة بين المسيح وبين الإنسان الذي يحبه علاقة متينة وأبدية لا تنقطع . إنها علاقة مستقلة عن الزمن . إنها علاقة تتجاوز الموت وتتغاضى عنه . ولأن المسيح قد عاش ومات وقام ثانية ، فإن الإنسان الذي يتحد بالمسيح سيعيش ، ويموت ، ويقوم ثانية . لا شيء في الحياة أو في الموت — بالغاً ما بلغ هذا الشيء — يستطيع أن يفصله عن المسيح .

أما الصورة التي يرسمها لنا بولس عن مجيء المسيح فهي في غاية الروعة والجمال وعمق التأثير ، إن بولس يقصد أن يعبر بالكلمات ما لا يمكن أن يعبر عنه ، ويصف

منظراً يتحدى الوصف . إن المسيح فى مجيئه الثانى سينزل من السماء إلى الأرض ، وسيقول كلمته الآمرة ، وعندئذ سيقوم الأموات لدى سماعهم صوت رئيس الملائكة وبوق الله . ثم يختطف الموتى والأحياء معاً فى مركبات السحب لملاقاة الرب فى الهواء . وهكذا يكونون كل حين مع الرب .

إن هذا المنظر الفائق حد الروعة يحمل لنا درساً مهماً ومعزياً . إن المسيحى هو فى المسيح سواء كان فى حياته أو فى مماته ، وأن الاتحاد الكائن بين المسيح والمؤمنين به اتحاد وثيق لا يمكن لأية قوة أن تفصم عراه .

الأَصْحَاحُ الْخَامِسُ

كلص فى الليل

وَأَمَّا الأَزْمِنَةُ وَالأَوْقَاتُ فَلاَ حَاجَةَ لَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكُمْ عَنْهَا. لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِالتَّحْقِيقِ أَنَّ يَوْمَ الرَّبِّ كَلِصٍّ فِي اللَّيْلِ هٰكَذَا يَجِيءُ. لأَنَّهُ حِينَمَا يَقُولُونَ سَلاَمٌ وَأَمَانٌ حِينَئِذٍ يُفَاجِئُهُمْ هَلاَكٌ بَغْتَةً كَالْمَخَاضِ لِلْحُبْلَى فَلاَ يَنْجُونَ. وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلَسْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكُمْ ذٰلِكَ الْيَوْمُ كَلِصٍّ. جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ. لَسْنَا مِنْ لَيْلٍ وَلاَ ظُلْمَةٍ. فَلاَ نَنَمْ إِذًا كَالْبَاقِينَ بَلْ لِنَسْهَرْ وَنَصْحُ. لِأَنَّ الَّذِينَ يَنَامُونَ فَبِاللَّيْلِ يَنَامُونَ وَالَّذِينَ يَسْكَرُونَ فَبِاللَّيْلِ يَسْكَرُونَ. وَأَمَّا نَحْنُ الَّذِينَ مِنْ نَهَارٍ فَلْنَصْحُ لاَبِسِينَ دِرْعَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَخُوذَةً هِيَ رَجَاءُ الْخَلاَصِ. لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْنَا لِلْغَضَبِ بَلْ لاِقْتِنَاءِ الْخَلاَصِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ. الَّذِي مَاتَ لِأَجْلِنَا حَتَّى إِذَا سَهِرْنَا أَوْ نِمْنَا نَحْيَا جَمِيعًا مَعَهُ. لِذٰلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَابْنُوا أَحَدُكُمُ الآخَرَ كَمَا تَفْعَلُونَ أَيْضًا.

(١ تسالونيكى ٥ : ١ — ١١)

لا يتسنى لنا أن نفهم صور العهد الجديد عن المجيء الثانى فهماً كاملا ما لم نذكر أن لها أساساً فى العهد القديم . والصورة عن يوم الرب فى العهد القديم صور مألوفة ومعروفة . وكل هذه الصور التى تتعلق بيوم الرب قد ارتبطت بالمجيء الثانى . وكل الزمن فى نظر اليهودى كان ينقسم إلى عصرين رئيسيين : العصر الأول هو العصر الحاضر وهو عصر ردىء كله ولا علاج له ، والعصر الآتى هو عصر الله الذهبى . وبين العصرين يأتى يوم الرب . وسيكون ذلك اليوم يوماً مرعباً جداً وسيكون كالمخاض لولادة عالم جديد . سيكون يوماً فيه يتلاشى عالم قديم ويولد عالم جديد . وكثير من الصور المرعبة فى العهد القديم خاصة بيوم الرب (إشعيا ٢٢ : ٥ ، ١٣ : ٩، صفنيا ١ : ١٤ — ١٦ ، عاموس ٥ : ١٨ ، إرميا ٣ : ٧ ، ملاخى ٤ : ١ ، يوئيل ٢ : ٣١) ويتميز يوم الرب بالخواص الرئيسية التالية :

١ — سيأتى فجأة وعلى غير انتظار .

٢ — سيكون يوم اضطراب يشمل الكون كله مما يسبب اهتزازاً للكون بأسره .

٣ — سيكون يوم الدينونة الرهيب .

ومن الطبيعى جداً أن كتاب العهد الجديد كانوا متشبعين بما جاء فى العهد القديم عن يوم الرب ولذلك ربطوا يوم الرب بيوم المجيء الثانى ليسوع المسيح .

وكان طبيعياً جداً أن يتشوق الناس لمعرفة الوقت الذى يجيء فيه هذا اليوم . ولكن المسيح قال بمنتهى الصراحة إنه لا أحد يعرف ذلك اليوم أو تلك الساعة . وحتى المسيح نفسه فى أيام جسده أخلى نفسه عن معرفة ذلك اليوم . هذا سر لا يعرفه أحد إلا الله (مرقس ١٣ : ٣٢ ، متى ٢٤ : ٣٦ ، أعمال ١ : ٧) ولكن بالرغم من كلام المسيح الصريح فى هذا الأمر ، لم يتوقف الناس عن البحث والتنقيب فى معرفة موعد ذلك اليوم، مع أنه نوع من التجديف والتطاول أن يحاول الناس معرفة شيء لم يعرفه المسيح نفسه فى أيام اتضاعه . وبصدد هذا الموضوع الحيوى يقول بولس شيئين .

١ — إنه يعيد القول إن مجيء المسيح سيأتى بغتة . سيأتى ذلك اليوم كلص فى

الليل . لكنه يقول مؤكداً إنه ليس هناك من سبب يجعل المسيحى غافلا أو غير مستعد . إن الإنسان الذى يعيش فى الظلام والذى أعماله شريرة هو وحده الذى يؤخذ على حين غفلة . لكن المسيحى يعيش فى النور ، ولا يهمه متى يأتى هذا اليوم إذا كان ساهراً وصاحياً ، فإن هذا اليوم سيجده على أهبة الاستعداد .

٢ — ولا يعرف أحد متى يدعوه الله للإنتقال من هذا العالم . وهناك أشياء معينة لا يجب أن تترك حتى اللحظة الأخيرة . وسيكون الوقت متأخراً جداً إذا بدأت للاستعداد فى الامتحان وأوراق الإمتحان فى طريقها إليك . وسيكون الوقت متأخراً جداً إذا أردت أن تجعل بيتك آمنا والعواصف تهب من حوله غاضبة مزمجرة . هناك أشياء يجب أن تتم فى وقتها ولا تقبل التأجيل . عندما جاءت ساعة موت « مارى ملكة » أورانج » أراد راعيها الخاص أن يقرأ لها من الإنجيل بعض الآيات عن الخلاص فقالت له « إنى لم أترك أمراً مهماً كهذا الأمر إلى هذه الساعة » ومن هذا القبيل ما قاله رجل اسكتلندى عجوز عند موته . زاره أحد الأصدقاء وطلب أن يقرأ له بعض الآيات المشجعة فأجاب « لقد سقفت بيتى عندما كان الطقس دافئاً » إذا جاءتنا الدعوة فجأة فلا يجب أن تجدنا غير مستعدين . إن الإنسان الذى عاش حياته كلها مع المسيح لا يكون أبداً على غير استعداد عندما تأتى ساعته ليدخل إلى أقرب جوار للمسيح . إن الإنسان الذى يعيش فى النور وفى النهار لا يمكن أن يؤخذ فجأة وهو غافل من أمره .

نصيحة إلى كنيسة

ثُمَّ نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَعْرِفُوا الَّذِينَ يَتْعَبُونَ بَيْنَكُمْ وَيُدَبِّرُونَكُمْ فِي الرَّبِّ وَيُنْذِرُونَكُمْ . وَأَنْ تَعْتَبِرُوهُمْ كَثِيرًا جِدًّا فِي الْمَحَبَّةِ مِنْ أَجْلِ عَمَلِهِمْ . سَالِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا . وَنَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْذِرُوا الَّذِينَ بِلاَ تَرْتِيبٍ . شَجِّعُوا صِغَارَ

النُّفُوسِ. أَسْنِدُوا الضُّعَفَاءَ. تَأَنَّوْا عَلَى الْجَمِيعِ. انْظُرُوا أَنْ لاَ يُجَازِيَ أَحَدٌ أَحَدًا عَنْ شَرٍّ بِشَرٍّ بَلْ كُلَّ حِينٍ اتَّبِعُوا الْخَيْرَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَلِلْجَمِيعِ. افْرَحُوا كُلَّ حِينٍ. صَلُّوا بِلاَ انْقِطَاعٍ. اشْكُرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ. لأَنَّ هٰذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ اللهِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ مِنْ جِهَتِكُمْ. لاَ تُطْفِئُوا الرُّوحَ. لاَ تَحْتَقِرُوا النُّبُوَّاتِ. امْتَحِنُوا كُلَّ شَيْءٍ. تَمَسَّكُوا بِالْحَسَنِ. امْتَنِعُوا عَنْ كُلِّ شِبْهِ شَرٍّ.

(١ تسالونيكى ٥ : ١٢ — ٢٢)

يقترب بولس إلى نهاية الرسالة بجواهر منتقاة من النصائح الغالية. ومع أنه يضع هذه النصائح بغاية الإيجاز، لكن كل مسيحى وكل عضو بالكنيسة يجب أن يتأملها جيداً.

يقول بولس « اعتبروا قادتكم وقدموا لهم الاحترام اللائق بهم » وإن السبب فى تقديم هذا الاحترام لهم هو لأجل الخدمة التى يؤدونها. إن المسألة ليست مسألة الأصل العريق أو الجاه العريض. إنها الخدمة التى تجعل الإنسان عظيماً وتزين صدره بوسام الشرف.

ويقول بولس « عيشوا فى السلام » ويستحيل علينا أن نكرز بإنجيل المحبة فى جو مسمم بالكراهة. ومن الأفضل جداً للإنسان أن يبتعد عن جماعة يكون فيها تعساً ويجعل الآخرين تعساء مثله. ليبحث عن جماعة يستطيع فيها أن يكون فى سلام مع أفرادها والعدد الرابع عشر يلتقط أولئك الذين يحتاجون إلى رعاية خاصة. وكلمة « بلا ترتيب » فى أصلها تصف الجندى الذى ترك صفوف القتال. أنذروا الذين تركوا الكنيسة وساروا فى طريق وحدهم. أما صغار النفوس الذين يجب تشجيعهم فهم ضعفاء القلوب الذين عندهم مخاوف غريزية وينظرون دائماً إلى أسوأ الأمور. وفى كل مجتمع مسيحى يجد المسيحيين الشجعان الذين يساعدون الآخرين ليكونوا شجعاناً

مثلهم . ويقول أيضاً « أسندوا الضعفاء » وهذه نصيحة جميلة . عوضاً عن أن يترك الأخ الضعيف يجرفه التيار ويضيع نهائياً ، على المجتمع المسيحي أن يبذل محاولة جادة في سبيل عودته إلى الكنيسة بطريقة لا يمكنه الإفلات منها . يجب أن تضع روابط الشركة لكي تمسك بهذا الأخ المعرض للضلال والانحراف .

ويقول أيضاً تأنوا على الجميع ، ولعلّ هذه النصيحة أصعب هذه النصائح جميعها لأن آخر درس يتعلمه معظمنا هو احتمال الأغبياء بفرح . ويقول بولس كذلك « لا تجازوا أحداً عن شر بشر » حتى إذا كان إنسان يطلب أذيتنا ، يجب أن ننتصر عليه بطلب الخير له .

وتعطينا الأعداد من ١٦ — ١٨ ثلاث علامات للكنيسة الحقيقية :

١ — العلامة الأولى أنها كنيسة سعيدة . يشيع فيها ذلك الجو المشبع بالفرح الذي يجعل كل أعضائها يشعرون أنهم يستحمون في ضوء الشمس الباهر وفي دفئها المنعش . إن المسيحية الحقة هي التي تملأ القلوب بالبهجة لا بالكآبة :

٢ — العلامة الثانية أنها كنيسة مصلية . ولعل صلواتنا تكون أكثر اقتداراً إذا تذكرنا أن الذين يصلون أفضل صلاة في اجتماعهم مع الإخوة هم الذين يصلون أولا على انفراد .

إنها كنيسة شاكرة . وهناك دائماً شيء ما نستطيع أن نشكر الله من أجله . وحتى في أشد الأيام ضيقاً نستطيع أن نعد بركات الله ونحن شاكرون . يجب أن نذكر دائماً أننا إذا كنا نواجه نور الشمس فإن الظلال تتساقط من ورائنا ، ولكن إذا أعطينا ظهورنا للشمس فإن الظلال ستكون أمامنا بصورتها القاتمة .

وفي العددين ١٩ ، ٢٠ يحـــذر بولس أهل تسالونيكي من احتقار المواهب الروحية . كان الأنبياء في العهد القديم على قدم المساواة مع وعاظ العهد الجديد فهم الذين بلغوا رسالة الله للشعب . ويريد بولس أن يقول « إذا كان عند أحدكم شيء يريد أن يقوله فلا تمنعوه عن النطق به » .

والعددان ٢١ ، ٢٢ يصفان الواجب الدائم للمسيحي . يجب أن يتخذ من المسيح

المحك الذي يختبر به كل الأشياء . وحتى إذا كان هذا الواجب صعباً فيلزمه أن يحافظ على التمسك بالحسن دائماً ويبتعد عن كل أنواع الشرور وأشباه الشرور .

وعندما تعيش الكنيسة طبقاً لنصائح بولس ، تستطيع حقاً أن تنير في المكان المظلم ، وسيكون بها فرح حقيقي في داخلها ، وقوة جذابة لربح الآخرين للمسيح .

نعمة المسيح معكم

وَإِلٰهُ السَّلاَمِ نَفْسُهُ يُقَدِّسُكُمْ بِالتَّمَامِ وَلْتُحْفَظْ رُوحُكُمْ وَنَفْسُكُمْ وَجَسَدُكُمْ كَامِلَةً بِلا لَوْمٍ عِنْدَ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ . أَمِينٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ الَّذِي سَيَفْعَلُ أَيْضًا . أَيُّهَا الإِخْوَةُ صَلُّوا لأَجْلِنَا . سَلِّمُوا عَلَى الإِخْوَةِ جَمِيعاً بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ . أُنَاشِدُكُمْ بِالرَّبِّ أَنْ تُقرأَ هٰذِهِ الرِّسَالَةُ عَلَى جَمِيعِ الإِخْوَةِ الْقِدِّيسِينَ . نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَكُمْ . آمِينَ .

(١ تسالونيكي ٥ : ٢٣ — ٢٨)

عند نهاية الرسالة يستودع بولس أحباءه بين يدي الله ليحفظ أجسادهم ونفوسهم وأرواحهم . لكنه يقول هنا شيئاً جميلا « أيها الإخوة صلوا لأجلنا » إنه شيء عجيب بلا جدال أن يطلب أعظم قديس بينهم جميعاً الصلاة لأجله من أصغر إنسان مسيحي فيهم وأقلهم شأناً . جاء رجل إلى صديق له يهنئه بوصوله إلى مركز عظيم بل هو أعظم مركز تستطيع بلادنا أن تقدمه لمواطن ، فأجابه هذا السياسي الكبير « لا تقدم لي تهنئتك ، بل ارفع إلى الله صلواتك لأجلي » . كانت الصلاة عند بولس سلسلة ذهبية فيها صلى هو لأجل الآخرين ، وصلى الآخرون لأجله .

تسالونيكي الثانية

الأصحاح الأول

إرفعوا قلوبكم

بُولُسُ وَسِلْوَانُسُ وَتِيمُوثَاوُسُ إِلَى كَنِيسَةِ التَّسَالُونِيكِيِّينَ فِي اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.

يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كُلَّ حِينٍ مِنْ جِهَتِكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ كَمَا يَحِقُّ لأَنَّ إِيمَانَكُمْ يَنْمُو كَثِيرًا وَمَحَبَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ تَزْدَادُ. حَتَّى أَنَّنَا نَحْنُ أَنْفُسَنَا نَفْتَخِرُ بِكُمْ فِي كَنَائِسِ اللهِ مِنْ أَجْلِ صَبْرِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ فِي جَمِيعِ اضْطِهَادَاتِكُمْ وَالضِّيقَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُونَهَا. بَيِّنَةً عَلَى قَضَاءِ اللهِ الْعَادِلِ أَنَّكُمْ تُؤَهَّلُونَ لِمَلَكُوتِ اللهِ الَّذِي لأَجْلِهِ تَتَأَلَّمُونَ أَيْضًا. إِذْ هُوَ عَادِلٌ عِنْدَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يُضَايِقُونَكُمْ يُجَازِيهِمْ ضِيقًا. وَإِيَّاكُمُ الَّذِينَ تَتَضَايَقُونَ رَاحَةً مَعَنَا عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ مَلاَئِكَةِ قُوَّتِهِ. فِي نَارِ لَهِيبٍ مُعْطِيًا نَقْمَةً لِلَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ

اللهَ وَالَّذِينَ لَا يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ. الَّذِينَ سَيُعَاقَبُونَ بِهَلَاكٍ أَبَدِيٍّ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ وَمِنْ مَجْدِ قُوَّتِهِ. مَتَى جَاءَ لِيَتَمَجَّدَ فِي قِدِّيسِيهِ وَيُتَعَجَّبَ مِنْهُ فِي جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ. لِأَنَّ شَهَادَتَنَا عِنْدَكُمْ صُدِّقَتْ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. الأَمْرُ الَّذِي لِأَجْلِهِ نُصَلِّي أَيْضًا كُلَّ حِينٍ مِنْ جِهَتِكُمْ أَنْ يُؤَهِّلَكُمْ إِلَهُنَا لِلدَّعْوَةِ وَيُكَمِّلَ كُلَّ مَسَرَّةِ الصَّلَاحِ وَعَمَلَ الإِيمَانِ بِقُوَّةٍ. لِكَيْ يَتَمَجَّدَ اسْمُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ فِيكُمْ وَأَنْتُمْ فِيهِ بِنِعْمَةِ إِلَهِنَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.

(١ تسالونيكى ١)

يستهل القائد الحكيم هذه الرسالة بكل حكمة. يبدو أن الإخوة فى تسالونيكى كتبوا له خطاباً مليئاً بالشكوك فى بعض المسائل الجوهرية ويستوضحونه فيها. لقد خافوا خوفاً شديداً لئلا يكونوا غير صالحين فى حياتهم الجديدة. ولئلا يضعف إيمانهم ويهتز ثباتهم أمام الضيقات المتوالية عليهم. وكان رد بولس فى غاية الحكمة. فهو لم يدفعهم إلى بالوعة اليأس بتأييد نظرتهم إلى نفوسهم ـ نظرة الخوف والضعف ـ وكان على بولس أن يبرز فضائلهم وأعمالهم المجيدة مما كان له أبعد الأثر فى رفع روحهم المعنوية. ولعلهم قالوا لبعضهم البعض « إذا كان رأى بولس هكذا فينا فيجب أن نواصل كفاحنا ونثبت فى المسيح إلى النهاية ». قال « صموئيل روزر فورد » « طوبى لأولئك الذين يشفوننا من احتقارنا لنفوسنا » وقام بولس بعمل من هذا القبيل لكنيسة تسالونيكى. لقد عرف بالإختبار أنه كثيراً ما يفعل المدح الحكيم ما لا يستطيع الإنتقاد القاسى أن يفعله. عرف أن مديح الذين نحبهم لا يقودنا إلى الكبرياء بل يجعلنا متواضعين. عرف أن المدح الحكيم لا يجعل الإنسان يكتفى أبداً بما وصل إليه من فضائل بل يملأه بالرغبة فى السير على الدوام إلى الأمام.

ويذكر بولس ثلاث علامات للكنيسة الحية . وهى علامات الكنيسة فى تسالونيكى .

١ — الإيمان القوى . إنها علامة صحيحة للمسيحى المتقدم أنه ينمو كل يوم أكثر فأكثر بخطوات ثابتة وأكيدة فى المسيح يسوع . والإيمان الذى قد يبدأ كفرض أو نظرية ينتهى بحقيقة مؤكدة ومطلقة . قال « جيمس أجيت » مرة « إن عقلى ليس مثل سريرى الذى يحتاج إلى إعادة صنعه من جديد . فإن عندى بعض الأمور التى أنا متيقن منها كل الإيقان . ويصل المسيحى إلى هذه المرحلة عندما يضيف إلى روعة الاختبار المسيحى تدريب الفكر المسيحى ويتمسك بالذى تثبت صلاحيته .

٢ — المحبة المتزايدة . إن الكنيسة النامية بحق هى الكنيسة التى تنمو أكثر فأكثر فى الخدمة . وهذه علامة حتمية فى الكنيسة الحية . إن الإنسان قد يبدأ بخدمة إخوته كواجب يضعه عليه إيمانه المسيحى لكنه يرى فيما بعد أنه يجد فرحه الأعظم فى الخدمة . إن الحياة الأنانية لا تعرف للسعادة معنى ، اما حياة الخدمة فإنها تكتشف أعظم اكتشاف وهو أن إنكار الذات والسعادة يسيران معاً جنباً إلى جنب .

٣ — الصبر المحتمل . والكلمة التى يستعملها بولس للإحتمال كلمة رائعة . وهى لا تعنى فقط القدرة السلبية على احتمال ما ينزل علينا من مضايقات . وصف الاحتمال بأنه « ثبات الرجولة تحت التجارب » إنه يصف الروح التى لا تحتمل فقط بصبر ظروف الحياة القاسية ولكنها الروح التى تسيطر على هذه الظروف وتنتفع بها لتزداد قوة . إنها الروح التى تقبل ضربات الحياة ولكن فى قبولها إياها تحولها إلى وسائل ترتقى بها نحو إنجاز عمل جديد .

وتنتهى رسالة بولس الرافعة للروح المعنوية بأعظم وأروع كلمة مشجعة . تنتهى بما يمكن تسميته بالمجد المتبادل إذ أن المسيح عندما يتمجد فى قديسيه ويتعجب منه فى جميع المؤمنين وهنا نلتقى بالحق المذهل وهو أن مجدنا هو المسيح وإن مجد المسيح هو نفوسنا . إن مجد المسيح هو فى أولئك الذين بالإتكال على نعمته تعلموا أن يحتملوا وأن ينتصروا ، وأن يضيئوا كأنوار فى مكان مظلم ، وأن يشعوا بطيبة القلب وجمال

الأخلاق . إن مجد المعلم هو فى التلاميذ الذين يهذبهم، وأن مجد الآباء والأمهات هو فى الأطفال الذين يربونهم ، ليس لأجل المعيشة بل لأجل الحياة ، وأن مجـــد الرب يسوع هو فى تلاميذه . وقد أعطى لنا هذا الإمتياز العظيم وهذه المسئولية العظيمة أن مجد المسيح يحل فينا . وفى إمكاننا أن نعطى المجد للسيد الذى نحن له والذى نخدمه. وفى إمكاننا أيضاً أن نشين المسيح الذى دعى إسمه علينا . هل يمكن أن يكون هناك امتياز أعظم من هذا الإمتياز ، ومسئولية أعظم من هذه المسئولية .

الأَصْحَاحُ الثَّانِي

الأَثِيم

ثُمَّ نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاجْتِمَاعِنَا إِلَيْهِ. أَنْ لاَ تَتَزَعْزَعُوا سَرِيعًا عَنْ ذِهْنِكُمْ وَلاَ تَرْتَاعُوا لاَ بِرُوحٍ وَلاَ بِكَلِمَةٍ وَلاَ بِرِسَالَةٍ كَأَنَّهَا مِنَّا أَيْ أَنَّ يَوْمَ الْمَسِيحِ قَدْ حَضَرَ. لاَ يَخْدَعَنَّكُمْ أَحَدٌ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا. لأَنَّهُ لاَ يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً وَيُسْتَعْلَنْ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ ابْنُ الْهَلاَكِ. الْمُقَاوِمُ وَالْمُرْتَفِعُ عَلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلهًا أَوْ مَعْبُودًا حَتَّى أَنَّهُ يَجْلِسُ فِي هَيْكَلِ اللهِ كَإِلهٍ مُظْهِرًا نَفْسَهُ أَنَّهُ إِلهٌ. أَمَا تَذْكُرُونَ أَنِّي وَأَنَا بَعْدُ عِنْدَكُمْ كُنْتُ أَقُولُ لَكُمْ هذَا. وَالآنَ تَعْلَمُونَ مَا يَحْجِزُ حَتَّى يُسْتَعْلَنَ فِي وَقْتِهِ. لأَنَّ سِرَّ الإِثْمِ الآنَ يَعْمَلُ فَقَطْ إِلَى أَنْ يُرْفَعَ مِنَ الْوَسَطِ الَّذِي يَحْجِزُ الآنَ. وَحِينَئِذٍ سَيُسْتَعْلَنُ الأَثِيمُ الَّذِي الرَّبُّ يُبِيدُهُ بِنَفْخَةِ فَمِهِ وَيُبْطِلُهُ بِظُهُورِ مَجِيئِهِ. الَّذِي مَجِيئُهُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ. وَبِكُلِّ خَدِيعَةِ الإِثْمِ فِي الْهَالِكِينَ لأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا

مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصوا • وَلِأَجْلِ هٰذَا سَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ اللهُ عَمَلَ الضَّلاَلِ حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ . لِكَيْ يُدانَ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ بَلْ سُرُّوا بِالأُثْمِ •

(٢ تسالونيكى ٢ : ١ — ١٢)

هذا الفصل هو بلا جدال من أصعب الفصول فى العهد الجديد . وهو صعب لأنه يحوى عبارات وصوراً مألوفة جداً للذين يكتب لهم وأما لنا فهى غريبة جداً عنا . أولئك الذين سمعوها أو قرأوها لأول مرة لم يكونوا فى حاجة إلى توضيح لها. ولكنها بالنسبة لنا الذين ليست لنا معرفة بأحوال بيئتهم فهى مبهمة ويكتنفها الغموض .

إن الصورة العامة لهذا الفصل هى هكذا . كان بولس يتحدث إليهم عن وجوب الإقلاع عن انتظارهم العصبى التشنجى لمجىء المسيح الثانى . وهو ينفى أنه قال لهم إن يوم المسيح قد حضر . نشأ هذا الفكر من سوء تفسيرهم لأقوال بولس ولا ينبغى أن ينسب إليه تفسيرمضلل كهذا التفسير. وقال لهم إنه قبل مجىء يوم الرب ستحدث أحداث كثيرة، أولا سيأتى عصر الثورة والتمرد على الله . وقد دخلت من قبل إلى هذا العالم قوة شريرة تعمل سراً فى العالم وتؤثر فى الناس للتمهيد إلى قيام الثورة على الله . وفى مكان ما وضع الشخص الذى تجسد فيه الشر ويقول عنه الإنجيل إنه إنسان الخطية ، وابن الهلاك ، والأثيم . وفى الزمن المعين ستتخلى القوة التى كانت تحجزه ويترك له المجال . وعندئذ يجىء هذا الأثيم ويجمع شعبه الخاص إليه تماماً مثلما يجمع المسيح خاصته . وأولئك الذين رفضوا المسيح سيقبلون الأثيم سيداً عليهم وعندئذ ستحدث المعركة الأخيرة والنهائية التى فيها يضرب المسيح ذلك الأثيم الضربة القاضية ويلاشيه من الوجود . ثم يتجمع شعب المسيح حوله ، وأما الأشرار الذين قبلوا الأثيم سيداً عليهم فسيبيدهم الرب بنفخة فمه . إنها ستكون نوعاً من المعركة العالمية التى فيها يهجم الشر المتجسد هجومه الأخير الذى يلقى فيه هزيمته الأخيرة .

ولا يغيب عن أذهاننا أن اليهود كانوا يلقبون القوة الشيطانية «بليعال» . وإذا

أرادوا أن يصفوا إنساناً شريراً قالوا عنه إنه ابن بليعال (تثنية ١٣ : ١٣ ، ١ ملوك ٢١ : ١٠ ، ١٣ ، ٢ صموئيل ٢٢ : ٥) وقد استعمل الرسول بولس هـذا التعبير عينه ليشير به إلى ضد الله (٢كو ٦ : ١٥)ويقول يوحنا الرسول عن الشر المتجسد إنه ضد المسيح (١ يوحنا ٢ : ١٨ ، ٢٢ : ٤ : ٣) ومن الواضح أن هـذه القوة الشريرة لا تقدر أن تبقى فى السكون إلى الأبد ، فإن المعركة الحاسمة لا بد آتية وفيها ينتصر الله ويلاشى قوات الشر والفساد . هذه هى الصورة التى يرسمها بولس أمامنا فى هذا الفصل .

وما هى القوة الحاجزة التى كانت تقيد الأثيم ؟ لايعرف أحد هذه القوة على وجه التأكيد . ولكن فى الأغلب يقصد بولس القوة الحاجزة الإمبراطورية الرومانية . وقد كان بولس ينقذ مرات عديدة من هياج الرعاع بفضل عدالة القاضى الرومانى . كانت روما تلك القوة الجبارة التى حجزت العالم من قيامه بالفوضى المجنونة . ولكن سيأتى اليوم - كما يقول بولس - الذى فيه يزول سلطان الإمبراطورية الرومانية وبعد ذلك ينطلق الأثيم وينشر الفوضى والاضطراب .

وهكذا يرسم لنا بولس صورة ثورة عارمة جارفة تأخذ فى النمو المتزايد ضد الله عندما يجىء الشر المتجسد فى الصراع النهائى الأخير وتكون الغلبة النهائية الكاملة لله .

وعندما جاء هذا الشر المتجسد إلى العالم ، رغب كثيرون أن يجعلوه سيداً عليهم وهم الذين رفضوا المسيح ، وستكون نهاية هؤلاء الأشرار مثل نهاية سيدهم ، وسيلقون هزيمتهم الأخيرة ، وينالون دينونتهم المريعة العادلة .

وبالرغم من بعد هذه الصورة عنا ، فهى تحمل لنا بين طياتها حقائق ثابتة ودائمة . هذه الحقائق هى :

١ - إن فى العالم قوة كبرى للشر . وحتى أولئك الذين يجدون صعوبة منطقية فى الإعتقاد بشخصية الشيطان ، كثيراً مايقول أحدهم « أنا أعتقد بشخصية الشيطان لأنى التقيت به اليوم » . إننا نخفى رؤوسنا فى الرمال إذا كنا ننكر أن فى العالم قوة هائلة للشر .

٢ — إن الله هو المهيمن والمسيطر على كل شيء . وقد تبدو لنا الأمور أنها سائرة نحو الفوضى والخراب . ولكن هذه الفوضى ما هي إلا خطة مرسومة . وبطريقة ما نعلم أن الشر في قبضة يد الله .

٣ — إن نصرة الله النهائية أمر مؤكد ويقيني . في النهاية وفي المعركة الأخيرة لا يقف شيء ضد الله . قد يكون للأثيم يومه يجول فيه ويصول ولكن سيأتي اليوم الذي يقول فيه الله « قف مكانك ولا تتعداه » وهكذا يكون السؤال العظيم لكل واحد منا هو : « في أي جانب أنت » ؟ في الصراع الذي يدور في قلب الكون هل أنت مع الله أم الشيطان ؟

دعوة الله وجهد الإنسان

وَأَمَّا نَحْنُ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كُلَّ حِينٍ لِأَجْلِكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ الرَّبِّ أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ لِلْخَلَاصِ بِتَقْدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ . الأَمْرُ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَيْهِ بِإِنْجِيلِنَا لِاقْتِنَاءِ مَجْدِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ . فَاثْبُتُوا إِذاً أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَتَمَسَّكُوا بِالتَّعَالِيمِ الَّتِي تَعَلَّمْتُمُوهَا سَوَاءٌ كَانَ بِالْكَلَامِ أَمْ بِرِسَالَتِنَا . وَرَبُّنَا نَفْسُهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ وَاللهُ أَبُونَا الَّذِي أَحَبَّنَا وَأَعْطَانَا عَزَاءً أَبَدِيّاً وَرَجَاءً صَالِحاً بِالنِّعْمَةِ . يُعَزِّي قُلُوبَكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ فِي كُلِّ كَلَامٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ .

(٢ تسالونيكي ٢ : ١٣ — ١٧)

في هذا الفصل يعطينا الرسول نوعاً من الخلاصة الوافية للحياة المسيحية .

١ — إن الحياة المسيحية تبدأ بدعوة الله . لم يحدث أن اختار إنسان لنفسه . لم يكن في ميسورنا أن نبدأ بالبحث عن الله مالم يكن الله قد سبق له فوجدنا . إن المبادأة كلها هي من الله ، وأن العامل الرئيسي والمحرك الأول لحياتنا هو محبة الله الباحثة عنا باجتهاد حتى تجدنا .

٢ — إن هذه الحياة تنمو وتكبر بجهدنا الشخصي . ليس المسيحي مدعواً لحلم بل ليحارب . ليس مدعواً ليقف ساكتاً بل ليصعد ويتسلق . ليس مدعواً فقط لأعظم امتياز في العالم ولكنه مدعو أيضاً لأعظم كفاح في العالم .

٣ — هذا الجهد الشخصي يتأيد ويتقوى بفضل واسطتين كبيرتين .

[ا] الواسطة الأولى هي تعليم ومثال وإرشـــاد الأتقياء الصالحين . إن الله يتحدث إلينا بواسطة أولئك الذين تحدث إليهم قبلنا . إن القديس هو — كما قال أحدهم — شخص يجعل الإيمان بالله سهلا ميسوراً أمام الآخرين . وعندنا كثيرون يقدمون لنـا العون ، لا بأي شيء يقولونه أو يكتبونه بل بما هم عليه من حياة التقوى . إن مقابلة أناس من هذا القبيل هي مقابلة الله .

[ب] الواسطة الثانية هي العون الذي يقدمه الله نفسه لنـا . نحن لا نترك أبداً للحرب والكفاح والجهاد وحدنا . إن من يكلفنا بالعمل سيعطينا القوة الكافية للقيام به ، بل وأكثر من ذلك هو يعمل هذا العمل معنا . إنه لا يلقي بنا في معركة الحياة لنحارب بالموارد الضئيلة التي ربما تجدها أيدينا . إن الله يقف معنا ومن حولنا ويحيطنا بعنايته . وعندما كان بولس يواجه صعوبات في كورنثوس ظهر له الله في رؤيا الليل وقال له « لا تخف يابولس . . . أنا معك » (أعمال١٨: ٩، ١٠) إن الذين يقفون معنا في حرب الحياة أعظم بكثير من الذين يقفون ضدنا .

٤ — للقصد الإلهي نتيجتان من هذه الدعوة وهذا المجهود الشخصي .

[ا] النتيجة الأولى هي التكريس على الأرض . إن الشخص المكرس هو الشخص المفرز والمخصص لله لكي يستخدمه في خدمته . ولا يقول فيما بعد « إن

حياتى تخصنى ولى الحق أن أتصرف فيها كما يحلو لى » بل يقول بالحقيقة « إن حياتى تخص الله وله مطلق التصرف بها كما يشاء » .

[ب] النتيجة الثانية هى الخلاص فى السماء . إن الحياة المسيحية لا تنتهى مع الزمن . هدفها هو الأبدية . وغايتها الطهارة التى تعاين الله . إن المسيحى يختبر بهجة الخلاص فى العالم الحاضر ولكنه يتمتع بالخلاص الكامل من جميع الوجوه فى السماء. المسيحى هو الإنسان الذى يعتبر آلام الزمان الحاضر خفيفة بالمقارنة بالمجد العتيد أن يستعلن فينا .

هل لقاء نجتنيه عند فادينا الحبيب
من حياة النفس فيه وهو للقلب نعم النصيب ؟
هل ترى نهراً صفاه راق لوناً كالزجاج
حيث يعطينا الإله ثوب بر نقى وتاج ؟
كيف لا والرب صرح إننا معه نكون
فى ديار المجد نفرح كلنا أيها المؤمنون

الأصحاح الثالث

كلمة ختامية

أَخِيرًا أَيُّهَا الأَخْوَةُ صَلُّوا لأَجْلِنَا لِكَيْ تَجْرِيَ كَلِمَةُ الرَّبِّ وَتَتَمَجَّدَ كَمَا عِنْدَكُمْ أَيْضًا . وَلِكَيْ نُنْقَذَ مِنَ النَّاسِ الأَرْدِيَاءِ الأَشْرَارِ . لأَنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ لِلْجَمِيعِ . أَمِينٌ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي سَيُثَبِّتُكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ . وَنَثِقُ بِالرَّبِّ مِنْ جِهَتِكُمْ أَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ مَا نُوصِيكُمْ بِهِ وَسَتَفْعَلُونَ أَيْضًا . وَالرَّبُّ يَهْدِي قُلُوبَكُمْ إِلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَإِلَى صَبْرِ الْمَسِيحِ .

(٢ تسالونيكي ٢ : ٣ — ٥)

مرة أخرى يأتي بولس إلى نهاية رسالة من رسائله فيطلب من الإخوة أن يصلوا لأجله (١ تسالونيكي ٥ : ٢٥ ، رومية ١٥ : ٣٠ ، فيلمون ٢٢) إنه لأمر عميق التأثير في فكر ذلك البطل العظيم وهو يطلب الصلاة من هؤلاء الإخوة المعترفين بضعفهم . وليس هناك من دليل على تواضع بولس أقوى من هذا الدليل . والحقيقة أنه وقد ألقى بنفسه على قلوبهم لابد أنه جذب حتى أعداءه إليه ، لأنه من الصعب جداً أن تكره إنساناً يطلب منك أن تصلي لأجله .

ولكن بالرغم من محبة بولس للناس ومن ثقته فيهم كان إنساناً واقعياً . فقد قال بصريح العبارة إن الإيمان ليس للجميع ونحن على يقين أنه لم يقل هذه الكلمة متهكما أو شامتاً بل حزيناً متوجع القلب . ومرة ثانية نرى المسئولية الرهيبة لحرية الإرادة.

فإننا نستطيع أن ننتفع بها لتفتح قلوبنا المغلقة ، ونستطيع أن نستخدمها لتغلق هذه القلوب . إن نداء الإيمان مقدم للجميع ولكن قلب الإنسان قد يرفض الإستجابة لهذا النداء . وفى العدد الأخير من هذا الفصل نرى ما يمكن تسميته بالصفتين المميزتين لحياة المسيحى . الصفة الأولى هى الصفة الداخلية للمسيحى وهى إدراكه لمحبة الله أو هى الوعى العميق بأننا لا نقدر أن نجرف بعيداً عن تلك المحبة المتشبثة بنا . هذا هو الإحساس القوى بأن الأذرع الأبدية من تحتنا ومن حولنا . إن الحاجة إلى الأمن من أهم الحاجات الأساسية للحياة . ونستطيع أن نجد ملجأ لهـــذه الحاجة فى الشعور الأكيد بمحبة الله التى لا تتغير ولا تتبدل .

أما الصفة المميزة الثانية فهى الصفة الخارجية للمسيحى وهى الصبر الذى يعطيه المسيح. ونحن نعيش فى عالم تفاقمت فيه حالات الانهيار العصبى أكثر من أى عصر مضى من عصور التاريخ . وهذه علامة واضحة على تزايد عدد الناس الذين يشعرون فى قرارة نفوسهم أنهم لا يقوون على كفاح الحياة . نحن نعيش فى عالم يخشى فيه الناس أن يتطلعوا إلى الأمام . لكن الصفة الخارجية للمسيحى هى الصبر بإزاء الصعوبات . وبينما ينحنى الناس أمام أثقال الحياة ، يقف هو منتصباً مرفوع الرأس . وبينما يرزح الآخرون ويتدهورون ، يحمل هو حمله بشجاعة ويمضى فى طريقه ثابتاً مطمئناً . أجل ! إن المسيحى الأمين لسيده يستطيع أن يواجه أى شىء وذلك بمحبة الله فى قلبه ويصبر المسيح فى حياته .

مكانة النظام والترتيب فى المحبة الأخوية

ثُمَّ نُوصِيكُمْ أَيُّهَا الأُخْوَةَ بِاسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ تَتَجَنَّبُوا كُلَّ أَخٍ يَسْلُكُ بِلاَ تَرْتِيبٍ وَلَيْسَ حَسَبَ التَّعْلِيمِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنَّا . إِذْ أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يُتَمَثَّلَ بِنَا لِأَنَّنَا لَمْ نَسْلُكْ بِلاَ تَرْتِيبٍ بَيْنَكُمْ . وَلاَ أَكَلْنَا خُبْزًا مَجَّانًا مِنْ أَحَدٍ بَلْ

كُنَّا نَشْتَغِلُ بِتَعَبٍ وَكَدٍّ لَيْلًا وَنَهَارًا لِكَيْ لَا نُثَقِّلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ. لَيْسَ أَنْ لَا سُلْطَانَ لَنَا بَلْ لِكَيْ نُعْطِيَكُمْ أَنْفُسَنَا قُدْوَةً حَتَّى تَتَمَثَّلُوا بِنَا . فَإِنَّنَا أَيْضًا حِينَ كُنَّا عِنْدَكُمْ أَوْصَيْنَاكُمْ بِهٰذَا أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُرِيدُ أَنْ يَشْتَغِلَ فَلَا يَأْكُلْ أَيْضًا . لِأَنَّنَا نَسْمَعُ أَنَّ قَوْمًا يَسْلُكُونَ بَيْنَكُمْ بِلَا تَرْتِيبٍ لَا يَشْتَغِلُونَ شَيْئًا بَلْ هُمْ فُضُولِيُّونَ . فَمِثْلُ هٰؤُلَاءِ نُوصِيهِمْ وَنَعِظُهُمْ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِهُدُوءٍ وَيَأْكُلُوا خُبْزَ أَنْفُسِهِمْ . أَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فَلَا تَفْشَلُوا فِي عَمَلِ الْخَيْرِ . وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُطِيعُ كَلَامَنَا بِالرِّسَالَةِ فَسِمُوا هٰذَا وَلَا تُخَالِطُوهُ لِكَيْ يَخْجَلَ . وَلٰكِنْ لَا تَحْسِبُوهُ كَعَدُوٍّ بَلْ أَنْذِرُوهُ كَأَخٍ. وَرَبُّ السَّلَامِ نَفْسُهُ يُعْطِيكُمُ السَّلَامَ دَائِمًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. الرَّبُّ مَعَ جَمِيعِكُمْ .

السَّلَامُ بِيَدِي أَنَا بُولُسَ الَّذِي هُوَ عَلَامَةٌ فِي كُلِّ رِسَالَةٍ هٰكَذَا أَنَا أَكْتُبُ. نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِكُمْ آمِينَ .

(٢ تسالونيكي ٣ : ٦ – ١٨).

يعالج بولس — كما فعل في الرسالة السابقة — الموقف الذى نشأ من سوء فهمهم للمجىء الثانى . كان فى تسالونيكى عدد من الذين نفضوا أيديهم من أعمالهم إنتظاراً لمجىء المسيح . ويتخذ بولس كلمة قوية يصف بها هؤلاء الكسالى الذين لا يشتغلون . والكلمة فى أصلها تفيد الرجل الذى يتخلف عن عمله بغير إذن من صاحب العمل . فمثلا إذا التحق صبى بمصنع يتعهد أبوه أن يقوم بالتعويض عن الأيام التى ينقطع فيها إبنه عن العمل بلا استئذان . كان هؤلاء الكسالى الغير المرتبين فى حياتهم فى حكم المتخلفين عن الواجب والمنقطعين عن العمل بلا عذر مقبول .

ولكى يعيدهم بولس إلى الصواب ، يضع أمامهم قدوته الشخصية . كان كل أيام حياته عاملا مجداً ورجلا يعمل بيديه . ولا يغيب عن أذهاننا أن اليهود كانوا يمجدون العمل وكانوا يقولون « من لا يعلم إبنه حرفة يعلمه السرقة » وكان بولس قبل تجديده معلماً مدرباً ولكن الشريعة اليهودية فرضت على المعلم ألا يأخذ أجراً مقابل تعليمه . ولذلك نجد عدداً من المعلمين الربيين يعملون خبازين ، أو حلاقين ، أو نجارين ، أو بنائين . ولم يجد اليهود غضاضة فى أى عمل ولو كان وضيعاً فى نظر الناس بل كانوا يمجدون العمل الشريف مهما كان نوعه . وكانوا يقولون إن رجال العلم فقدوا شيئاً وهم مستغرقون فى دراساتهم لأنهم انسلخوا من الحياة ونسوا كيف يعملون بأيديهم . ويقتبس بولس قولا من أقوالهم « من لا يشتغل لا يأكل » والمعنى الواضح أن من يرفض أن يشتغل لايستحق أن يأكل . وهذا المبدأ لاينطبق طبعاً على الرجل البائس الذى — لسبب خارج عن إرادته — لا يقدر أن يعمل أو لا يجد عملا يعمله . وهذا المبدأ — اشتغل لتأكل — هو ما سمى بالقانون الذهبى . وفوق الأمثلة البشرية التى تمجد العمل عندنا يسوع وهو المثل الأعلى لنا فى العمل . كان يسوع نجار الناصرة وتقول قصة إنه كان نجاراً متقناً لعمله فكان يصنع أحسن الأنيار فى كل فلسطين لدرجة أن جميع الناس من كل مكان جاءوا إليه ليشتروا الأنيار التى كان يصنعها جيداً . إن الشجرة تعرف من ثمرها والرجل يعرف من عمله. كان إنسان يتفاوض فى شراء بيت واشتراه فعلا من غير أن يلقى نظرة عليه . وسئل لماذا عقد هذه الصفقة بمثل هذه المغامرة فأجاب « إنى أعرف الرجل الذى بنى البيت وهو يبنى مسيحيته أثناء بنائه لبيته » . إن المسيحى — بسبب كونه مسيحياً — يجب أن يكون عاملا مثالياً أفضل من أى عامل آخر .